إبداع الخالق

في نظام خلقه دليل على وحدانيته

تأليف
فضيلة الشيخ
عبد العزيز بن عبد الله الزهراني

الناشر
دار التوحيد للنشر
الرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده، لا شريك له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وخاتم أنبيائه، وخيرته من خلقه، فصلوات الله عليه، وعلى آله وصحابته، ومن اهتدى بهديه، واتبع مِلَّته واستَنَّ بسنته إلى يوم الدين، أما بعد:

فهذه المقدمة للطبعة الثانية لكتاب «**إبداع الخالق في نظام خلقه دليل على وحدانيته**»، وقد أجريت بعض التعديلات، وأسميت الفصول بما **يُطابق معانيها**، وعدّلت بعض الجُمل المكررة في بعض فصوله، مثل: «**مبحث تكريم الإنسان**»، حيث عدلت فيه بعض العبارات وحذفت بعضها، لتنسيق الموضوع، كما **أضفت** مبحثاً بعد فصل تأثير كلمة التوحيد، وهو المبحث الثاني أسميته: «**لا تجعل لله نداً وهو خلقك**»، كما أضفت بعض المباحث مثل: «الأرض وما بث فيها من دابة»، و«التوكل على الله»، و«تحريم قتل الأولاد»، و«تقويم السلوك والعدل والإحسان»، و«أخذ الأسوة الحسنة»، وغيرها.

ونقلت بعض الفصول إلى فصول تقاربها في المضمون، وكذلك دمجت بعضها إذا كان مضمونها يتناسب مع بعضها الآخر، والمبحث العاشر من الفصل الأول، وألغيت اسم مبحث: «كيف المخرج؟» وأبدلته «بالتوكل على الله»، وأسميت المبحث الثاني من الفصل الثالث: «آيات الله في تنظيم الكون»، والمبحث الثالث منه «آية الله في مطالع الشمس والقمر»، والمبحث الرابع، «والسماوات مطويات بيمينه»، إلى غير ذلك مما يقتضيه التنسيق، كما نقلت مبحث «تكريم الإنسان» إلى

المبحث الثالث من الفصل نفسه، وأضفت إلى الفصل السابع بعد مبحث «التوبة النصوح» «مبحث تحقيق التوبة» وأوردت فيه قصة كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، الواردة في قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٨]، مع حديث كعب بن مالك الذي يصور تحقيق ومعنى التوبة النصوح.

هذا وأسأل الله جل في علاه أن يجعل عملي فيه خالصاً له وحده لا شريك له، وأن ينفع به من قرأه، أو أهداه، إنه على كل شيء قدير، وفي الختام أقول: اللهم اجعلنا ممن عنيتهم بقولك سبحانك ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠].

وأشكر فضيلة الشيخ سعد بن عبدالله السعدان على مراجعته للكتاب، كتب الله له الأجر وضاعف له المثوبة، ونفع به.

المؤلف

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له،أحمده حمدًا يليق بجلاله وكمال وحدانيته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخليله وخاتم أنبيائه ورسله، إمام المتقين، وقدوة المرسلين، وقائد الغر المحجلين، ورسول رب العالمين إلى الناس أجمعين، اللهم صَلِّ على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحابته ومن اهتدى بهديه واستن بسنّته، وسار على ملّته إلى يوم الدين، ثم إن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير القصص القرآن، وخير الهدي هدي الأنبياء، وخير السنن سنة محمد ﷺ، وخير الأمور عواقبها، وشر الأمور محدثاتها، وشر الندامة ندامة يوم القيامة، وشر الضلالة ضلالة بعد الهدى، وشر العمى عمى القلب، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

أما بعد: فإن عظمة الكون دليل على عظمة من خلقه، ولله في كل شيء آية تدل على جلاله وعظمته ووحدانيته، تجسدها بوضوح وَتُبَيِّنُها كل آية من آياته الناصعة، وبراهينه القاطعة، فمنها الدلائل القاطعة على عظمة الله ـ سبحانه ـ وفي الوقت نفسه فإن التفكر في عالم المخلوقات بجميع أنواعها وأشكالها يُرسّخ العقيدة الصافية في القلوب، ويُقوّي ركائز الإيمان في النفوس، وكانت الخلاصة ـ بعد أن أرسلت نظري في ملكوت الله الواسع، وتلوت بعضًا من آيات الله ـ كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي

فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقوله جل جلاله: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ – ١٩١].

أخي في الله: لقد أحسستُ في هذه الآيات، أنها تنسجم مع مطابقة النظرة بروحانية وانشراح صدر، ومهابة وجلال في أرجاء الكون الواسع، ما جعلني أستحضرُ معية الله ومراقبته، ورأيت في مشاهد الكون الفسيح الدليل ـ الذي لا يخالطه شك ـ على عظمة الله التي تتجلى في خلق السماوات، وكيف رفعها بلا عمد ولا قواعد ولا أوتاد تُقِلُّها، وجعل الجبال رواسي على الأرض، وأنزل الماء وأنبت به الكلأ، والمرعى قال ـ سبحانه وتعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١] نعم هذه الأجرام الهائلة وما ضمت من مخلوقات عجيبة لا يحصيها كتاب ولا يحويها ديوان، كلها من خلق الله، إنها مشاهد الكون، وهي دلائل عظمة الله في خلقه، فإذا كان من ضل سعيه وحبط عمله وزعم أن فيه إلهاً غير الله، وأن هذا الكون وما حوى هو من صنع غير الله؟ فنقول له: هات البرهان، وأين يقع نصيب الآلهة المزيفة من المخلوقات التي انفردت بخلقها في هذا الفضاء الواسع؟

إن من بداهة الخذلان لمن يزعم أنه إله مع الله، أو من يزعم أن له إلهاً غير الله ـ

أن يبرهن على مخلوقاته البائنة عن حدود مخلوقات الله، فهو جل شأنه بين آياته العظام، فيقول هذا خلقي أروني ما خلقتم إن كنتم آلهة كما تزعمون، أو أروني أنتم يا من تدعون غير الله ما هو الجزء الذي خلقه من تدعونه من دون الله، كقوله ـ سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ [فاطر: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤].

إن هذا والله هو التحدي السافر لأصحاب العقول المسلوبة والقلوب المقلوبة، هيّا إذا كنتم تزعمون أنكم ممن يُسامي فاطر السماوات والأرض؛ فأروني ماذا خلقتم من هذا الكون، في مثل هذا التحدي يبقى الوثني الضائع يتخبط في متاهة لا يدري إلى أين يتّجه، هيّا إذا كان لك رَبٌّ تدعوه وترجوه غير الله؛ فما هو الموقع الذي صنعه في الأرض، وهل ذلك المعبود مع الله له نصيب وشرك في السماوات؟ انطِقوا وتكلّموا وبرهنوا على صحة دعواكم، وعلى قدرة من تدعونه من دون الله، أم عندكم برهان وكتاب من الله فيه دلالة على دعواكم، إن هذا الكون الواسع، هذا الكون المفتوح، هذا الكون الباهر الذي كله آيات باهرة تنبئك بعزة الله الذي أوجدها وأبدع صنعها المعجز، إنه حقاً صنع الله، وما أسعدنا والحمد الله بالانتساب إليه، والحمد لله الذي جعلني من المسلمين، إن ذرّة أو ما هو أصغر من الذرّة، أو بعوضة أو ما هو أصغر من البعوضة في شكلها وحجمها، وما أودعه الله فيها من الأعضاء والعظام والمصارين والمجاري والأوردة والمخ في عظام البعوضة النحيلة ـ

تُعَدّ من أدق مخلوقات الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومعجزة من معجزاته في مخلوقاته، ولعلّي في هذا الكتاب المتواضع الذي سطرته في عجالة ـ آمل أن يجد فيه القراء ما يجلب لهم الهدى إلى توحيد الله، وترويض النفس على استشعار عظمة الله، ومحبته، وإخلاص العمل في السر والعلن، وتهذيب الأخلاق بالاستقامة والاعتدال، والسير الحثيث على نور كتاب الله وهدي نبيه المصطفى ﷺ، واستحضار معية الله ومراقبته، وأنه محيط بخلقه يعلم ما توسوس به النفوس وما تخفيه الصدور، ثم إن الذي دعاني أن أوردت فصلاً في تأثير كلمة الإخلاص كلمة التوحيد (لا إله إلا الله).

هذه الكلمة العظيمة قد شملت معاني العبادات، فكل أمر تعبّدي هو مما دلت عليه لا إله إلا الله، ورحم الله **شيخنا العلامة الشيخ سليمان بن عبدالرحمن الحمدان الفقيه** في علم التوحيد والفقه والحديث، الذي دَرَسنا عليه في كتاب التوحيد والحديث بالمسجد الحرام، حيث كان يكرر هذه الكلمات في أغلب دروسه، ويذكر بها بعد ذكر توحيد الله في أسمائه وصفاته، ثم يقول: (توحيد الإلهية والعبادة، وهو توحيد الطلب والقصد، وهو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله، ومن أجله أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ونصبت القبلة، وأسست الملة، وجردت سيوف الجهاد، وخلقت الجنة والنار، وهو سر الخلق والأمر).

أخي المسلم: إن كلمة **(لا إله إلا الله)** عليها مدار الإسلام، وهي ترقق القلوب وتطمئنها، مع الاعتقاد بوحدانية الله لا شريك له، ولا نِدَّ ولا شبيه في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأن لا معبود بحق إلا الله، فهو المعطي وهو المانع، وهو المبارك وهو الذي يمحق البركة بسبب المعاصي، وهو النافع وهو الضار.

ثم ذكرت بعد ذلك حُسنَ الخُلق الذي قد ميّز الله به خاتم أنبيائه ورسله،

محمداً ﷺ حيث كساه أعلى وسام شرف رباني، وهو وسام حسن الخلق الرفيع قال جل شأنه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، فكساه الله رونق الإخلاص والمهابة والوقار، ومنها الأسوة الحسنة المكتسبة من صاحب الخُلق العظيم، حيث وجّه المولى ـ جل جلاله ـ أتباع محمد ﷺ بقوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وبعد أن ذكرت عظمة الله في تنظيم الكون، وما أودعه الله فيه من الآيات ومنها: السماء المحيطة بالكون، وما فيها من الأجرام البديعة في نظام سيرها وأفلاكها، والأرض وما بث فيها من المخلوقات، ومنها الطير صافات بين السماء والأرض وما فيها من العِظَات، وذكرتُ منها النحل وهداية الله له.

إن الذي دعاني إلى تسجيل هذا الموضوع هو:

أولاً: شرود الفكر، ووساوس الصدر، حيث أقف في صلاتي مشدوهاً وشارد الفكر، وإذا بالجسد في الصف والروح تسبح في كل فج، وفي بعض الصلوات ما أشعر إلا بتسليم الإمام، وإذا بي أقف مشدوهًا لا أدري ماذا قلت، وبماذا قرأ الإمام.

ثانيًا: عند ما أفتح المصحف وأقرأ ما تيسر لي فلا أجد لما تلوته أثرًا في قلبي، بل إني قد أقرأ الصفحات ولا أشعر كيف مررت بها قرأت، ولما كانت الصلاة من أهم العبادات، وكان ثواب قراءة القرآن بكل حرف عشر حسنات، وكان الشيطان ـ أعاذنا الله منه ـ عدو الإنسان، وكانت أغلب وساوسه في هذين الموضعين الجليلين، لِقَصْدِ تفويت الثواب الكامل أو بعضه، تذكّرتُ قول عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ حيث قال: «اُطلب قلبك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفي

مجالس الذكر، وفي أوقات الخلوة، فإن لم تجده في هذه المواطن فسَلِ الله أن يَمُنَّ عليك بقلب فإنه لا قلبَ لك»[1].

فَسَجَّلتُ هذه الخاطرة لنفسي، ولمن ينفعه الله بها؛ لعلني إذا هَجَمت عليَّ الوساوسُ أتذكّر ما كتبت لعل النفس اللوامة تقول لي: إنك إنما توبخ نفسك بما كتبت، فتكون حافزًا لي على طرد تلك الوساوس التي أسأل الله أن يعصمني وكل مسلم من شرها إنه على كل شيء قدير.

وقد جعلت هذا الكتاب فصولاً؛ في كل فصل مباحث: الفصل الأول: (كلمة التوحيد) وتأثيرها، والفصل الثاني: في تهذيب الأخلاق وتقويم السلوك، والفصل الثالث: آيات الله في تنظيم الكون وما أودع فيه من عجائب قدرته وما بث فيه من الدواب وأصناف المخلوقات، الفصل الرابع: أشرت إلى بديع خلق الله في الإنسان وتكريمه بالعقل والفهم، والشكل والصورة، والإنتاج وعمارة الأرض وتنظيم الحياة، والفصل الخامس: في إبداع الله في خلق الدواب وعالم الحيوانات من جميع أصنافها وأشكالها، وكيف سخرها للإنسان، وما أودع فيها من المنافع، الفصل السادس: في أهمية الخلافة في الأرض ورحمة الله بنا أن بعث فينا خاتم أنبيائه ورسله، وأتم به النعمة ورضي الإسلام ديناً وأنزل معه كتابًا فيه توحيد الله وتعظيمه،فيه الهدى، وتنظيم حياة البشر، وسر سعادتهم في الدارين، وأمرهم بإقامة الخلافة في الأرض، يجدد لهم ذلك الخليفة معالم التوحيد، ويكون للناس ولي أمر ينظم لهم سير حياتهم ويقيم العدل بينهم، لأن ولي الأمر هو الحارس لشؤون من ولاَّه الله عليهم، وأن يلزمهم بتوحيد الله والتمسك بمبادئ

---

(1) الفوائد ص١٤٨.

إسلامهم، لأنه سر سعادتهم في الأرض لصيانة المجتمع، وإلزامهم بتحكيم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

وفي ثنايا هذا البحث خلصت إلى لطف الله وتلطفه بعباده، حيث يلاطفهم في مناجاته لهم بعطفه، وإضافتهم إلى ذاته الكريمة: (يا عبادي)، وزيادة في اللطف أنه يغفر الذنوب جميعًا لمن حقق العودة بالرجوع إليه، ثم ختمتُ هذا البحث المختصر بوجوب الرجوع إلى الله بالتوبة النصوح، وتصحيح النية بالتوبة الصادقة، والاستقامة على أمر الله، وتحقيق التوبة والإنابة، واغتنام فرصة الحياة.

وفي الختام؛ إن التفكر في آلائه مما يجسّد ويقوّي عقيدة التوحيد؛ لأن آثار الصنعة تنبئك بعظمة وقوة صانعها ـ جل شأنه ـ وأسأل الله أن يختم حياتي بالتوبة والرجوع إلى الله، والاستعداد للرحيل من هذه الدنيا إلى دار النعيم، كما أسأله أن يجعلنا من أهل دار النعيم، ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٥].

الفصل الأول

التوحيد

(١) المبحث الأول: تأثير كلمة التوحيد.

(٢) المبحث الثاني لا تجعل لله ندًا وهو خلقك.

(٣) المبحث الثالث مرض الرياء.

(٤) المبحث الرابع: الاستقامة.

(٥) المبحث الخامس معيّة الله تعالى

(٦) المبحث السادس: التحدي و الإبداع في صنع الكون.

(٧) المبحث السابع: آيات الله في الأرض وما حوَت.

(٨) المبحث الثامن: التوكل على الله.

(٩) المبحث التاسع: وإن من شيء إلا يسبح بحمده.

المبحث الأول: تأثير كلمة التوحيد

(لا إله إلا الله) تُروِّض النفس وتهذب السلوك، وتُشعر قائلها بأنه لا معبود بحق، ولا نافع ولا ضار، ولا معطي ولا مانع، ولا مبارك ولا ماحق للبركة إلا الله، **(لا إله إلا الله)** هي دعاء الكرب، وتفريج الشدائد، حين يقول العبد المسلم: (لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم).

(لا إله إلا الله) تلين القلوب القاسية، وتروض النفوس الشاردة؛ لكونها أعظم الكلام وأشرفه، حيث حوتها واشتملت عليها أعظم آية في كتاب الله، وأشرف آية، هي آية الكرسي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] حيث اشتملت هذه الآية الكريمة على أصول توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد أسماء الله وصفاته، وقد ورد في صحيح مسلم من حديث أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ؟»** قَالَ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: **«يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله ﷻ مَعَكَ أَعْظَمُ؟»** قَالَ قُلْتُ: الله لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: **«وَالله لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»**.(١)

---

(1) أخرجه مسلم (١٨٣٥).

فسماها أعظم آية في كتاب الله، **(لا إله إلا الله)** هي كل شيء في حياة المسلم، وهي عنوان منهجه وسلوكه، وهي كلمة الإخلاص، هي التي لا يقبل الله من أحد سواها، (لا إله إلا الله) هي بداية كل رسالة، وهي دليل الأنبياء لمحاربة الوثنية وسقوطها، ومجابهة المشركين وإبادة الشرك والإلحاد، **(لا إله إلا الله)** دعت إليها جميع الرسل، وهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام.

(لا إله إلا الله) عظيمة الشأن، ثقيلة في الميزان، خفيفة في اللسان، منجية لعباد الرحمن، وإليك أخي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ به وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، قَالَ موسى: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَذَا قَالَ: قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أنت يا رب، إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخُصُّنِي بِهِ، قَالَ: يَا مُوسَى، لَوْ أَنَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ الله فِي كِفَّةٍ مَالَت بِهِنَّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله**».(١)

(لا إله إلا الله) هي أول دعوة يدعو بها جميع الرسل إلى من أرسلوا إليهم، وهي أول كلمة تقرع أسماع المشركين من رسلهم حين ينادي كل رسول أمته بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ **(لا إله إلا الله)** هي التي أخرج الله بها عباده الموحدين من ظلمات الشرك الوضيع والجهل والضياع إلى توحيد الله الخالص، وكرمهم بها، ورفعهم من أعمق هاوية وأحط منحدر إلى الدرجات العلا.

---

(١) أخرجه النسائي (١٠٦٧٠) وابن حبان (٦٢١٨) وأبو يعلى (١٣٩٣) والحاكم(١٩٣٦) وصححه، وقال الحافظ (في الفتح ١١/ ٢٠٨): سنده صحيح. وقال الهيثمي «مجمع الزوائد ١٠/ ٨٢»: ورجاله وثقوا وفيهم ضعف.

(لا إله إلا الله) رَوَّضَت قلب من آمن بها على التواضع وتحطيم الكبر، وأرشدتهم إلى مدلولها، وهو قول الله ـ تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣]. **(لا إله إلا الله)** غرست في قلوب المؤمنين بها حب الخير للناس جميعًا، وبذله عن حب وتقرب، وإيمان وإيثار، ببذل المعروف عن طيب نفس ورغبة في الخير، وحب الإخوان في الله؛ قال ـ جل شأنه: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

(لا إله إلا الله) زرعت في قلوب أتباعها الحب في الله والبغض في الله على نور من الله، وانشراح صدر للإسلام، وأن يحب المسلم من أحب الله، ويبغض من يبغض الله.

(لا إله إلا الله) هي كلمة الفصل بين الإيمان والكفر، والعلامة المميزة بين الحق والباطل، والحاجز المنيع بين التوحيد لله والإشراك به، تميز العبد المؤمن المتقي من المشرك الوثني أو الملحد، **(لا إله إلا الله)** كتبت على راية التوحيد، ونزلت الكتب الربانية بمدلولها، ومن أجلها أسست الملة الإسلامية، وعلى ضوئها نصبت القبلة، وهي شعار الإسلام، ومفتاح دار السلام، ومن أجل تثبيتها جردت سيوف الجهاد في سبيل الله، وهي الركن الأول من أركان الإسلام الخمسة، فبها انتشر الدين، وعلى مدلولها ميز بين المسلم والكافر.

(لا إله إلا الله) حرز لمن آمن بمعناها، ومن أجل لا إله إلا الله خلقت الجنة وفتحت أبوابها، وتزينت الحور العين لخطابها، جزاء لمن نطق بها واعتقد مضمونها، وآمن بمقتضاها وعمل بما دلت عليه، وخلقت النار وفتحت أبوابها، وسيق إليها من

جحد بـ(لا إله إلا الله)، ورفض قبولها وأنكر مدلولها، فقذف في جحيمها وضمه سعيرها، وأكل وشرب من صديدها وزقومها، وحوته سرادقها ـ كما ذكر الله حال أصحابها: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

(لا إله إلا الله) هي بطاقة دخول الجنة لحزب الله وأوليائه، وعنوان الصلة بالله، وهي الصاعقة المدمرة لكل من أبى النطق بها، ورفض الانقياد لها واعتقاد معناها، وعادى من دعا إليها، وعبد مع الله غيره وسواه.

(لا إله إلا الله) هي المهيمنة، والمنجية، والحرز من عذاب الله، قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلاَّ حَرَّمَهُ الله عَلَى النَّارِ»(١).

وقوله ﷺ: «فإنَّ الله قد حرَّمَ على النارِ من قال: «لا إِلَه إِلاّ الله» يَبتغي بذلك وجهَ الله»(٢).

وفي الحديث الآخر: «وَعِزَّتِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي وَجِبْرِيَائِي لأُخْرِجَنَّ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله»(٣).

(لا إله إلا الله) حرب على عبادة المال والجاه والمنصب والشهرة والعلو في الأرض، وحرب على عبادة الذّات، وعبادة الشهوات، وعبادة السلطان، وثورة عاتية على كل معبود مع الله.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨) ومسلم (١١٢) من حديث أنس.

(٢) أخرجه البخاري (٤٢١) ومسلم (١٤٤٦) من حديث عتبان.

(٣) أخرجه مسلم (٥٠٠) من حديث أنس.

(لا إله إلا الله) تزرع العزة في قلوب المؤمنين بالله، فلا يخضع المؤمن إلا لله، ولا يحني رأسه ولا يذل إلا لله، وهي تحارب أهل الذلّة والمسكنة والانكسار والخنوع والخضوع والخشوع والتملق إلا لله - جل جلاله - وهي تفضح أهل النفاق والشقاق ومساوئ الأخلاق، وتقرر أن مأواهم في الدرك الأسفل من النار، وهي مجهر فضيحة على أهل التذبذب والتزلف والتذلل لغير الله.

(لا إله إلا الله) عون لكل من تمسك بها وبما دلت عليه بيقين جازم وإخلاص صادق لا رياء فيه ولا سمعة، (لا إله إلا الله) تأخذ بناصية من آمن بها واحتسب أجرها، ثم راقب الله في العمل بما دلت عليه، وخاف عقابه وخضع لأمره ونهيه، وعظم الرجاء فيه وإليه، والرغبة والرهبة منه وإليه، تأخذ بناصيته؛ ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣] وهي كلمة التوحيد التي لا يقبل الله من أحد سواها، فكل القرآن وما تكلم به ودعا إليه كل نبي ورسول هو من مدلول (لا إله إلا الله).

وبمدلول (لا إله إلا الله) والدعوة إليها فتحت أقطار المشارق والمغارب، فدخل الناس في دين الله أفواجًا، وأخرج الله بها من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، وبمضمونها ساد الحق والعدل والإنصاف بين عباد الله في كل شبر وقطر من أرض الله الواسعة، اللهم أبرم لهذه الأمّة أمّة (لا إله إلا الله) أمر رشد تعز به أهل طاعتك ومن آمن بلا إله إلا الله ودعا إليها وحكم بما دلّت عليه، كما أسأله جل شأنه أن بنصر دينه ويهدي ولاة أمر المسلمين للحكم بشرعه وعدله إنه على كل شيء قدير.

المبحث الثاني: لا تجعل لله نداً وهو خلقك

الند هو المثيل، والنظير، والشبيه، كقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] والقرآن المكي النازل قبل الهجرة النبوية كان محوره الأساسي يرتكز على تحقيق التوحيد الخالص، التوحيد المطلق الذي هو أساس المِلَّةِ وقاعدتها الراسية المتينة، وينهى عن الشرك قليله وكثيره، لأنه مناقض لتوحيد الله تعالى، التوحيد هو وحدانية الربوبية والألوهية، ووحدانية الخالق المعبود وتنزيهه عن الند والشريك، حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١ – ٢٤].

الله الذي جعل لكم الأرض فراشاً ليسهل التنقل على ظهرها، لكسب المعاش بدون مشقة أو تعب وتكلف، والسماء بناء، لتظل الأرض وينزل منها الماء فتحيا بعد الجدب، وينبت به الزرع، وكل ما ينفع الناس، والأنعام، وكل الدواب، وقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] فكيف يليق بمن كرمه الله وهو الإنسان أن يجعل لله مثيلاً وشبيهاً، وهو خلقه؟ ثم يأتي دور التحدي، فيخاطبهم بلهجة التعجيز المسكت، والمكمِّم للأفواه، المحير لمفاهيم المشركين، ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] التحدي العجيب تحدي القرآن، وهو المعجزة الخارقة والتقرير القاطع

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

وكلمة لا إله إلا الله هي أساس التوحيد وروح الإسلام، المنافية للشرك عن ذاته العظيمة، فإنه يجب التحذير من الشرك به، قال جل شأنه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨] قال ابن كثير رحمه الله: شهد تعالى -وكفى به شهيداً، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم، وأصدق القائلين- ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي: المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه، والفقراء إليه، وهو الغني عما سواه كما قال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ الآية. [النساء: ١٦٦] (١).

وقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]، في هذه الآيات ينحصر حكمة خلقه للإنس والجن في عبادته وحده لا شريك له، ولا تدل الآيات إلا على ذلك، فهو الغني عن كل خلقه، وجميع الخلق فقراء إليه، وهو غير محتاج إليهم، كما وردت الإشارة عن إبراهيم صاحب الحنيفية السمحة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠ – ١٢٣].

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٤.

وبعد تحقيق التوحيد يبدأ الأمر بتنفيذ الأعمال الصالحة والنهي عن حرمات من الكبائر التي تلي درجة الشرك، يظهر بيان ذلك في قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ – ١٥٣].

وقال في المؤمنين الصالحين: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩]، والشرك بالله نقيض توحيده، ومن بشاعته أن أوحى الله إلى كل أنبيائه ورسله أن من يقع في محذور الشرك منهم فسيحبط الله عمله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٥ – ٦٧]، وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ١٧]، وقوله سبحانه: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ

فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحج: ٣١]، وقول لقمان عليه السلام لابنه يحذره من مغبة الشرك: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

والشرك بالله ينقسم إلى: شرك أكبر، وشرك أصغر، فالشرك الأكبر يخرج صاحبه من الملة كما نصت عليه الآيات السابقة، لأن اللجوء إلى غير الله من وحي الشيطان بلا دليل شرعي، كقول إبراهيم لقومه: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٨١]، فالمشرك يشرك بالله بلا سلطان ولا دليل، إلا وفق وحي الشيطان عدو الإنسان، والشرك الأصغر يحبط العمل ومنه: الرياء نعوذ بالله من ذلك.

وقد خاطب المولى الكريم الإنس والجان بهذا الحوار الهادي، الحوار الواضح المبسط، حيث بدأ بالأمر لرسوله ﷺ بقوله: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟

بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٥].

وهذه الآيات من سورة النمل تمثل الحوار الهادي الصريح، والتحدي المعجز، وهذا الحوار المؤثر يشتمل على تلك الأسئلة المحيرة والبليغة المعجزة، فأول سؤال يطالعنا منها قوله: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ استفهام على سبيل التهكم والإنكار؟ أي: من هو الذي خلق السماوات وأنزل منها الماء؟ ومن خلق الأرض؟ ﴿ وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ [فصلت: ١٠]، ومن تفضل فأنزل عليها الماء من السماء، فقبلت الماء وأنبتت الزرع والكلأ وتزينت بـ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴾ فمن هو الذي أوجد تلك النعم وتفضل بها؟ ﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ ﴾؟ سبحان الله وتعالى أن يكون له ند أو شبيه، وسبحان الله كيف مُسخت عقول المشركين، وسلب منهم التوفيق، وقوله: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ يعدلون عن طريق الرشد إلى طريق الضلال، كما قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

ثم يتواصل الحوار والتحدي بقوله: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ جعل الأرض قراراً مستوية منبسطة، لتسهيل الحياة ومزاولة الأعمال عليها، وسير الماء يجري من خلالها أنهاراً، وجعل الجبال أوتاداً رواسي على ظهرها، كقوله جل شأنه: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ [الحجر: ١٩]، وقوله:

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥]، وهنا في قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ والحاجز بين البحرين العذب الفرات والملح الأجاج يفسرها قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]، العذب الفرات هو: الماء الحالي، بعكس الملح الأجاج، كما بينه في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

وفي هذا الحوار نفي العلم النافع عن كثير من الناس بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ثم هو يواصل التحدي والحوار بقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أفيدوا يا من جعلتم مع الله إلهاً غيره ! من يجيب سؤال المضطر المحتاج؟ ومن يكشف السوء إذا نزل؟ أإله مع الله ؟! سبحان الله ما أعظم شأنه وهو القائل: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

ويمضي السياق منبهاً الغافل الذي ينادي في الأزمات غير الله بقوله: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أمن يهديكم بنور الفطرة، ويرشدكم في حين أسفاركم حين يخيم التيه، من هو الهادي إلى مواقع النجوم، وأنتم في فجاج البر والبحر في أماكن تجهلون طبيعتها، فلم يبق إلا تجميع الحواس وتصويب النظر في ملكوت النجوم التي يُهْتَدَى بها كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقوله: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ من الذي أبدع وجود الرياح

لنقل السحاب، وتزف البشرى بقرب رحمة الله إلى عباده: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ويختتم هذا الحوار والتعجيز بما ينم عن التحدي والإفحام بقوله: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ هل من أوليائكم ممن تدعون عند الشدائد من يبدأ الخلقَ ثم يُعيدُه؟، ومن الذي أوجد الخلق في البداية من العدم إلى الوجود؟ ومن الذي يعيد الخلق كما بدأه إلى العدم ؟ قال جل شأنه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، وهو الذي: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤].

سبحان الله إنها لا تعمى الأبصار وإنما شر العمى عمى القلب، وَمِنْ أشَرِّ عمى القلوب أنهم إذا ركبوا في الفلك المسخر بأمر الله وأتتهم العواصف والأمواج العاتية وهم في البحر دعوا الله وحده، وإذا نجوا من البحر دعوا أصنامهم التي صنعوها بأيدهم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٢ – ٢٣]، ثم بين لهم بعد ذلك تفاهة الدنيا التي هي غاية

قصدهم فقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس:٢٤].

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥] أختتم هذه الجولة وذلك الحوار بل ذلك التحدي بقوله سبحانه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾ فالغيب مما أختصه الله لنفسه دون سواه فمن زعم أنه يعلم الغيب فهو مفتر كذاب، وكذلك قضية البعث والنشور هي من علم الله وحده لا شريك له لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩١-٩٣].

وأختتم هذا الفصل بحديث بن مسعود الذي يصور أعظم الذنوب وهو الشرك، كما روى البخاري ومسلم من حديث عبدالله بن مسعود قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ قَالَ «**أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ**». **ثُمَّ قَالَ: أيُّ؟ قَالَ:** «**أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَكَ**». قَالَ: ثُمَّ أيُّ؟ قَالَ: «**أَنْ تُزَانِىَ حَلِيلَةَ جَارِكَ**». وَأَنْزَلَ الله تَصْدِيقَ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨][1].

---

(١) أخرجه البخاري(٦٠٠١) ومسلم(١٤١).

ملاحظة: ذكرت في الفصل عظمة آيات الله في مخلوقاته من السماوات والأرض، ونزول الغيث وأثره في الأرض، وذكرت البحار والأنهار، والحاجز بين الماء الحلو ومياه البحار المالحة، أوردت ذلك دليلاً على وحدانيته، وسوف أكرر هذا المقطع في مباحث الأنهار والبحار، وغيرها في مناسباتها الآتية بإذن الله تعالى، ليأخذ المتأمل العبرة من عظمة آياته في مخلوقاته.

المبحث الثالث: مرض الرياء

الرياء يحبط العمل، وهو الشرك الأصغر، قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يحل بذروته، ولا يحل بذروته حتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى، والتواضع أحب إليه من الشرف، وحتى يكون حامده وذامّه عنده سواء.(١)

إن مصيبة البلوى بالرياء هي من أخطر الذنوب - بعد الشرك بالله - حيث حذرنا منه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وحذر منه الرسول ﷺ حيث ورد في مسند أحمد، عن محمود بن لبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**» قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً**».(٢)

وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة مرفوعاً، قال الله تعالى: «**أنا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ**»(٣)، وفي رواية «**تَرَكْتُهُ وَشِرْكَه**» قال: في كتاب التوحيد، رواه مسلم،(٤) وأقره

(١) أخرجه أحمد في الزهد ص ١٥٨

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٦٨٠) والبغوي في تفسيره ١/ ٣٢٦، قال الهيثمي (المجمع ١/ ٢٩٠): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وصححه الألباني في الصحيحة (٩٥١).

(٣) رواه ابن ماجه بسند صحيح ورجاله ثقات.

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) وابن ماجه (٤٢٠٢) وغيرهما.

شيخنا المُسْنِد المحقق الشيخ سليمان بن حمدان رحمه الله، في شرحه للكتاب، وكذلك ما زال سلف الأمّة يحذرون الخلف من فتنة الرياء، ويحثون الخاصة والعامة على البعد عن ذلك المرض الخفي القاتل.

قال فيض بن وثيق: سمعت الفضيل بن عياض يقول: إن استطعت أن ألا تكون محدّثًا ولا قارئًا، ولا متكلمًا، إن كنت بليغًا، قالوا: ما أبلغه وأحسن حديثه، وأحسن صوته، فيعجبك ذلك، فتنتفخ، وإن لم تكن بليغًا ولا حسن الصوت، قالوا: لا يحسن الحديث ولا صوته بحسن أحزنك ذلك، وشق عليك فتكون مرائيًا، وإذا جلست فتكلمت فلم تبال بمن ذمك ومن مدحك؟ فتكلم.[1]

قال الفيض: قال لي الفضيل بن عياض ـ رحمه الله: لو قيل لك مراءٍ غضبت، وشق عليك، وعسى ما قيل لك حق، تزينت للدنيا وتصنعت، وقصرت ثيابك، وحسنت هيأتك وَسَمْتَك، وكففت أذاك حتى يقال: أبو فلان عابد، ما أحسن سمته فيكرمونك، وينظرونك، ويقصدونك، ويهدون إليك، مثل الدرهم المزيف، لا يعرفه كل أحد، فإذا قشر، قُشر عن نحاس.[2]

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتاب الفوائد: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس ـ إلا كما يجتمع الماء والنار، والضب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبِل على الطمع فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا

---

(١) أخرجه الأصبهاني في حلية الأولياء٨/ ٩١ وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء٨/ ٤٣٣

(٢) سير أعلام النبلاء٨/ ٤٣٩

استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح، سهل عليك الإخلاص...»، إلى آخر ما قال ـ رحمه الله. [1]

قلت: كيف الخلاص إذا قَلّ الزاد، وكسدت البضاعة، ولم يتم الاستعداد للرحيل في السفر الطويل ومشقة الطريق؟ كيف المخرج إذا بقي العبد مأسورًا في حبائل الشهوات، مقيدًا بأغلال الأماني، تهيمن عليه وساوس الشيطان، وتلعب به هواجس النفس الأمّارة بالسوء، وسقط في مصيدة الهوى، وفُتن بمرض حب الجاه والمدح والثناء؟ فأصبح همّه حب المال والولد والأصحاب، وقدمها على حب الله ورسوله وكتابه وعباد الله الصالحين، فإن تلك العوامل إذا استحكم حبها في القلب هيمنت على كل المشاعر، وأصبحت هي أطواقًا وأغلالاً، تعكس سير الإنسان من الهدى إلى الضلال، ومن الرشد إلى الغي، ومن الصدق إلى الكذب، ومن الإخلاص إلى الرياء، ومن الأمانة إلى الخيانة، ومن النصيحة إلى المداهنة، ومن كراهية الحق إلى حب الباطل، ومن ترك العلم إلى الرضى بالجهل، ثم يعيش ذلك الإنسان في متاهة لا يهتدي بعدها إلى طريق السعادة، فكيف الخلاص؟ رُحْماك يا رب.

---

(١) الفوائد ص ١٤٩

المبحث الرابع: الاستقامة

الاستقامة بمعنى الانتصاب والاعتدال، والسير الحثيث على الصراط المستقيم، والمرور على النهج القويم، الذي خطه صاحب المقام المحمود ﷺ؛ قال -جل شأنه- في محكم التنزيل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]. والاستقامة ضد الاعوجاج والميل والانحراف، وهي نهج الصراط المستقيم، وقد أوجب الله على كل مسلم أن يقرأ في كل ركعة من صلاته الفرض والنافلة بقول الله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦ – ٧]

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ لنا رسولُ الله ﷺ يوماً خطاً ثم قالَ: «هذا سبيلُ الله» ثم خطَّ خطوطاً عن يمينِهِ وعن شِمالِهِ ثم قالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ، على كل سبيلٍ منها شيطانٌ يَدْعُو إليه» ثم تَلاَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] (١).

وأخرج أحمد والترمذي بسند صحيح عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ضَرَبَ الله مَثَلاً صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلا تَنْفَرِجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ،

(١) أخرجه النسائي (١١١٧٤) وأحمد (٤١٤٢) والحاكم (٢٩٣٨) وصححه ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان (٦).

وَالصِّرَاطُ الإِسْلامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللهِ تَعَالَى، وَالأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»(١).

فالاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم، والمداومة على فعل الطاعة بالقول والفعل، اعتقادًا وبنيّة خالصة ويقين جازم، والتوسط في الأمر بلا إفراط ولا تفريط حسب نهج النبي محمد ﷺ، وعلى هديه، وسلوك طريقه، واجتناب نهيه، قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣].

إن النبي ﷺ كان المثل الأعلى في الاستقامة، ومع كمال طاعته واستقامته يأمره الله ـ جل شأنه ـ أن يستقيم هو وصحابته ومن تمسك بسنته إلى قيام الساعة، ونهاهم عن ضدها وهو الطغيان؛ قال جل جلاله: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢]. هنا ينبه الله نبيه ﷺ إلى الحذر واليقظة الدائمة المستمرة، ومع عصمة النبي ﷺ فإن الله يحذره وينهاه عن الطغيان، فكما أمره ومن معه بالاستقامة الدائمة على العمل الصالح وعدم التجاوز، نهاهم عما يناقض مقتضى الاستقامة وهو الطغيان، فمعنى ذلك ألا غُلُوّ في تأدية الواجب والمندوب والمستحب، كذلك لا تقصير ولا تهاون ولا تفريط في تأدية الواجب، وإنما الاستقامة على هدي كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ وإن قلّت العبادة، فإن الله يتقبل من عبده المؤمن إذا علم صلاح نيّته، روى مسلم في

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٧١) والترمذي (٢٨٦٣) والطبراني في مسند الشاميين (٢٠٢٤) والبيهقي في الشعب (٧٢١٦) وصححه الحاكم (٢٤٥).

صحيحه عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**قَارِبُوا وَسَدِّدُوا وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ**». قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَلاَ أَنْتَ قَالَ: «**وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**».(١)

إن الوسطية في الأمور مع النية السليمة والتمسك بالهدي النبوي الكامل، هي السبب المباشر ـ بتوفيق الله ـ في قبول العمل وغفران الذنوب.

إن الاستقامة وحدها لا تنفع صاحبها إذا لم يصحبها إخلاص في القصد والنية الصادقة، واعتقاد وصفاء في القلب، وحب الله ورسوله، ومن المعلوم بالضرورة أن القلب مَلِكُ الجوارح؛ فبصلاحه يصلح الجسد كله، وبالعكس إذا فسد القلب فسدت الجوارح وجميع الأعمال. ومصداق ذلك في حديث النعمان بن بشير الذي رواه البخاري ومسلم، وفيه قال ﷺ: «**أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ. أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ**»(٢). وسبب صلاح الجسد بصلاح القلب لأن كل الجوارح مملكة للقلب، فمتى صلح الملك صلحت الرعية، ومتى فسد الراعي فسدت الرعية، وكل المجتمعات على دين ملوكها، ومعنى هذا أن القلوب بيد الله وقد ورد في مسند الإمام أحمد عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ**» فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: إِنَّكَ تُكْثِرُ أَنْ تَقُولَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ! قَالَ: «**وَمَا يُؤْمِنُنِي وَإِنَّمَا قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ**

---

(١) مسلم (٢٨١٦)

(٢) البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩)

إِذَا أَرَادَ أَنْ يُقَلِّبَ قَلْبَ عَبْدٍ قَلَّبَهُ» قَالَ عَفَّانُ: بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.(١)

اللهمّ أصلح نياتنا وأعمالنا وأصلح أبناءنا وأزواجنا، وأصلح أئمّتنا وولاة أمرنا، وارزقهم البطانة الصالحة التي تدلهم على الخير وتعينهم عليه، وكما هو الحال، فمتى ما بقي المسلم على الاستقامة فهو خير دائم، ونهجه مستقيم على دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد سواه، عن ثوبان رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمْ الصَّلاةَ، وَلا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلاَّ مُؤْمِنٌ»** أخرجه ابن ماجه، وابن حبان، والحاكم بسند صحيح.(٢)

❁ ❁ ❁

(١) أحمد (٢٦١٧٦) وأبويعلى(٤٦٦٩) بسند صحيح، وصححه الألباني (ظلال الجنة ٢٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٤٣٢) وابن ماجه (٢٧٧) وابن حبان (١٠٣٧) والدارمي (٦٥٥) والحاكم (٤٤٩) وصححه، والطبراني في مسند الشاميين (٢١٧) والبيهقي في الشعب (٢٨٠٢) وغيرهم، (انظر إرواء الغليل ٢/ ١٣٥).

المبحث الخامس: معية الله وعلمه

إن من اليقين تصور العبد لمعية الله ومراقبته، فهو ـ سبحانه ـ محيط بدقيق أحوال العباد وجليلها إحاطة شاملة، فهو مع كل فرد من البشر بسمعه وبصره وعلمه، يرى مكانه، ويسمع كلامه، سواء كان منفردًا ذلك الإنسان أو في جمع، أو في ليل أو نهار فهو معه، قال ـ تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١] من هذه الآية وأمثالها يرسخ يقيننا بالله ـ سبحانه ـ أنه عليم خبير بجميع أخبار عباده في جميع الأوقات، من ليل أو نهار، ولا يعزب عن علمه وبصره وسمعه من مثقال ذرة، فهو يرى ويسمع ما هو أصغر من الذرة أو أكبر، وسواء كانت في الأرض أو في السماء أو في قاع البحر، فهو يسمعها ويراها ويعلم مكانها: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣] ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد:٤] وقوله ـ تبارك وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة:٧].

ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ، وَرَبَّ الأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ

كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحُبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ» رواه مسلم في صحيحه،[1] وأبو يعلى الموصلي، عن عائشة ـ رضي الله عنها.[2]

فلا يخطر على فكر إنسان من البشر أنه يغيب عن علم الله، بل من المفروض أن يتصور مدى شمولية إحاطة علم الله، فعلم الله يعجز التفكير البشري القاصر المحدود أن يحيط به، ولدقة التعبير في القرآن المعجز الذي يسلط الضوء على شمولية علم الله ـ سبحانه ـ بدقائق الأمور يجملها ـ سبحانه ـ في مضمون الآية التالية، قال ـ جل شأنه: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس ٦١]. سبحان العليم الخبير بكل أحوال عباده.

ومما يطابق هذا المعنى ما ينسب لأبي العتاهية:

إذا ما خَلَوتَ الدَهرَ يوماً فَلا تَقُل ... خَلَوتُ وَلَكِن قُل عَلَيَّ رَقيبُ
وَلا تَحسَبَنَّ اللهَ يَغفَلُ ساعة ... وَلا أَنَّ ما يَخفى عَلَيهِ يَغيبُ
لَهَونا لَعَمرُ اللهِ حَتّى تَتابَعَت ... ذُنوبٌ عَلى آثارِهِنَّ ذُنوبُ

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).
(٢) أبو يعلى (٤٧٧٤).

فَيا لَيتَ أَنَّ اللهَ يَغفِرُ ما مَضى ... وَيَأذَنُ في تَوبَاتِنا فَنَتوبُ
إِذا ما مَضى القَرنُ الَّذي كُنتَ فيهِم ... وَخُلِّفتَ في قَرنٍ فَأَنتَ غَريبُ
وَإِنَّ امرَأً قَد سارَ خَمسينَ حِجَّةً ... إِلى مَنهَلٍ مِن وِردِهِ لَقَريبُ
نَسيبُكَ مَن ناجاكَ بِالوِدِّ قَلبُهُ ... وَلَيسَ لِمَن تَحتَ التُرابِ نَسيبُ
فَأَحسِن جَزاءً ما اجتَهَدتَ فَإِنَّما ... بِقَرضِكَ تُجزى وَالقُروضُ ضُروبُ

إذًا فعلم الله لا يحويه كتاب، ولا تتسع له الدواوين، والتفكر فيه يروض النفس على الخوف من الله وتعظيمه، ويهذب السلوك، علم الله علمان؛ علم الغيب، وعلم الشهادة، فعلم الغيب لا يعلمه أحد إلا الله وحده، وهذا الاعتقاد هو من ركائز الإيمان وأصوله الثابتة، أما علم الشهادة، أو عالم المشاهدة فهو علم شامل لا يدرك منه الإنسان إلا ما ظهر له من الله بجلاء في محيطه الذي يعيش فيه، ومراقبة الله تتجسد في ذهن العبد الصالح، حيث يستشعر شمول علم الله به، وهو محيط بالكون من جميع جهاته، قال ـ تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩] ، هذا تعبير صادق يصوره الله في كتابه العزيز عن سعة علمه ـ جل شأنه ـ ومن هذا التعبير الرباني يتبين لنا شمول عناية الله، لنتصور عظمة إعجاز القرآن الكريم حين يصور في أذهان عباد الله مدى سعة علمه بمن خلق، وإحاطته بكل ما ذرأ وبرأ، وأحصى في الأرض والسماء، وفي كل أرجاء الكون الفسيح ـ بتعبير بليغ موجز ـ حيث يوجه الأنظار إلى ما أودعه الله في جميع أنحاء الأرض، بما فيها من جبال وشعاب وأودية، وبحار ومحيطات، وما بث فيها من جميع أنواع المخلوقات، وجميع الموجودات،

وجميع الأمم ـ ما كان منها في البر أو البحر، سواء كانت جمادات أو حيوانات، أو غيرها من مخلوقات الله التي لا يحصيها إلا هو، مع سعة علمه بدقائق المخلوقات، من الجبال الرواسي، إلى الهَبَاتِ الطائرة في الهواء التي لا تدركها أبصار العباد، ولا ورقة تسقط من شجرتها، ولا حبة مطمورة في مجاهل الأرض وظلمتها، في شعابها وأوديتها، في برها وبحرها، فكم تحمل الأرض الصغيرة من أصناف الأشجار المتعددة، وكم تحوي الشجرة الواحدة من الأغصان المتراكبة، وكم يحمل كل غصن من الأوراق؛ الثابتة منها والساقطة، وكم في كل بلد، وقُطر، وقارة، وكل القارات في العالم من الأشجار والمزارع التي تنتج ملايين؛ بل مليارات المليارات من أطنان الحبوب في كل عام؟، وهو ـ سبحانه ـ لا تخفى عليه ورقة واحدة تسقط من شجرتها، أو ثابتة بأصلها، ولا حبة واحدة من الحبوب التي تنتجها مزارع العالم في جميع أنحاء الأرض، فهو يعلم موقع كل حبة مطمورة في كل مجاهل الأرض وظلماتها، يعلم مكانها، ويحصي عددها، لا تخفى عليه منها خافية ـ سبحانه.

أورد ابن كثير نقلاً عن ابن أبي حاتم، بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ـ تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩] قال: (ما من شجرة في بر أو بحر، إلا وملك موكل بها يكتب ما يسقط منها)[١] الله ـ جل جلاله ـ يعلم بكل نبتة أو شجرة في حال رطوبتها، وفي حال يبسها، وعند بداية نبتتها، وفي حال نهايتها، فالله يعلمها لأنها لا تنبت إلا بأمره، ولا تنتهي إلا بقدره ـ سبحانه: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فإذا كان الأمر كذلك أفلا يليق بالإنسان الضعيف الفقير إلى عون الله وتوفيقه،

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٦٥.

أن يعلم أن الله مطّلع على كل عمل يعمله؟ وهو ـ سبحانه ـ معه حين يعمل؛ يرى مكانه، ويسمع خلجات صدره، ويعلم ما توسوس به نفسه، أفلا يستحيي ممن خلقه وبرأه أن يعمل من المعاصي ما يغضبه وهو معه ويراه، قال ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ – ٨]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ [العاديات: ١١]، ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

قال حاتم الأصم: تعهد نفسك في ثلاثة مواطن؛ إذا عملت فاذكر نظر الله إليك، وإذا تكلمت فانظر سمع الله منك، وإذا سكتَّ فاذكر علم الله فيك.(١)

الإنسان من بداية حياته إلى أن يلاقي ربه وتقبض روحه، وبعد وفاته ـ وهو في قبضة الله، مطّلع عليه، مرصودة أعماله في كتاب؛ ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. فالأعمال كلها مسجّلة في سجلّ موثّق محفوظ، قال ـ سبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣ – ١٤]. قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ حين تلا هذه الآية: (ابن آدم؛ بُسِطَت لك صحيفة، وَوُكّل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل، أو أكثر، حتى إذا متّ،

---

(١) صفوة الصفوة ٤/ ١٦٢.

طُوِيَت صحيفتُك، وجُعِلَت معك في قبرك مربوطة في عنقك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ ثم قال: عَدَلَ والله من جعلك حسيب نفسك).(١)

قلت: لو أن الإنسان شعر بمراقبة عيون السلطان، وجهاز المخابرات، والمباحث العامة، وجواسيس الدولة وعيونها، تطارده وتراقبه، وترصد حركاته، ويتناوب أفرادها على كشف سيره ووجهة مسيره، وجنود المراقبة السرية تقتفي أثره صباح مساء، بما يمتلكونه من أجهزة التنصّت ووسائل المتابعة، عند ذلك كيف يكون شعور ذلك الإنسان، وكيف يكون خوفه وحذره؟ مع العلم أن جواسيس الأرض السرية والعلنية، وجنود دول العالم بما تمتلك من وسائل للاستطلاع، وكشف الأسرار ـ لا يستطيعون أن يحصلوا من أي إنسان إلا ما استعلن من أمره؛ لأن الدول وما لديها من تحريات وأسرار لا تعلم الغيب، وليس بيد أحد غير الله موتًا ولا حياةً، ولا بعثًا ولا نشورًا، وكل قلوب العباد ونواصيهم بيده، يجري على صاحب الملك والدولة مثل ما يجري على أصغر إنسان في مملكته، فكيف بمن يعلم السر وما هو أخفى من السر؛ ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾، ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل: ٦٥]. فالمخلوق مهما عظمت دولته، وامتد سلطانه، وتنوعت وسائل الضبط والربط بحوزته، وبلغ من القوة ما بلغ، وظن أنه قد ملك سر العباد وعلانيتهم، فإن معلوماته قاصرة، وسلطانه محدود، والله

(١) أخرجه الصنعاني في تفسيره ٣/ ٢٣٧ والطبري ٢٦/ ١٥٩ وأبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ٧٠.

ـ جل شأنه ـ هو صاحب السلطان المطلق، وله الهيمنة الأبدية الكاملة؛ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

فيا عجبًا كيف يخشى الإنسان من إنسان مثله، وهو لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا؟! ثم هو يغفل؛ بل ويحارب الله بالمعاصي علنًا، وهو الذي خلقه ورزقه، وأحياه ثم يميته، وهو في قبضته، ومطّلع على سره وعلانيته، وكل أعماله، لا تخفى منها على الله خافية؛ ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]. وقال ـ جل شأنه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٦ – ١٨].

ففي هذه الآيات يخبر ـ سبحانه ـ بقربه من عبده، فهو عليم بوسوسة النفس وما يكنه الصدر، وملائكته ـ تقدست أسماؤه وتعالى جده ـ تسمع كل كلمة يتكلم بها الإنسان، وتعلم بكل لفظة يتلفظ بها؛ أورد الإمام أحمد، والترمذي، وغيرهما عن بلال بن الحارث المزني ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الرجُلَ ليتكلمُ بالكلمةِ من رِضوان الله عز وجل ما يظنُّ أن تُبلغَ ما بلغت، يكتبُ الله ـ عز وجل ـ له بها رضوانَه إلى يَوْم القِيَامَة، وإنَّ الرجُلَ ليتكلمُ بالكلمةِ من سَخطِ الله عز وجل ما يظنُّ أن تبلغَ ما بلغت، يكتبُ الله -عز وجل- بها عليه سَخَطَهُ إلى يوم القيامة**» فكان علقمة يقول: كم من كلام مَنَعَنِيهِ حديثُ بلال بن الحارث[1]، وقال ـ جل شأنه: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠–١٢].

(١) أخرجه أحمد (١٥٥٤٨) والترمذي (٢٣٥٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح. والحديث ورد عن أبي هريرة بنحوه، أخرجه البخاري (٦٣٣١).

إن أي مخترع غير الله ـ تعالى وتنزه الله عن الشبيه ـ يخترع صنع آلة من المخترعات هو أعلم من غيره بما يصلح تلك الآلة أو ذلك المصنوع، أو ما يفسده، والسبب أنه هو الذي توصّل إلى إخراج ذلك المخترع أو تلك الآلة وتركيبها، إلا أن ذلك الصانع لتلك الآلة لم يوجد أصل مادة الآلة المخترعة لكون أصل مادتها موجود، أوجده خالق المعدوم، خالق الصانع وما صنع، أوجده رب السماوات والأرض وجميع المخلوقات.

والله هو الذي خلق الإنسان، وكل ما كان في محيط ذلك الإنسان مكشوف لعلم الله الشامل، مطلع على كل أحواله، لا يحجبه عن الله حجاب، ولا يستره عن الله ساتر، يعلم ما توسوس به نفسه، ويعلم بما هو أخفى مما توسوس به كل نفس؛ ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. لأن الإنسان ما هو إلا مادة أوجدها خالق السماوات والأرض، خلقها من العدم إلى الوجود، فإذا كان الوريد هو مجرى الدم الذي تجري فيه روح الإنسان بأمر الله؟ فالله أقرب إلى الإنسان من الروح التي يعيش بها، ومن الوريد الذي بواسطته تجري فيه الدورة الدموية بأمر الله.

قال رجل لحاتم الأصم: ما بنيت أمرك في التوكل؟ قال حاتم: على أربع خصال؛ علمت أن رزقي لا يجاوزني إلى غيري فوثقت به نفسي. وعلمت أن عليّ فرض لا يقوم به غيري فأنا به مشغول. وعلمت أني لا أغيب عن عين الله طرفة عين، فأنا أستحيي منه أن يراني حيث نهاني. وعلمت أن الموت يأتي بغتة فهو لا يتخلف عني، ولا يبادرني قبل ميعاده، فأنا أبادره وأستعد للقائه[1].

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ٧٣، والبيهقي في الشعب ٢/ ٩٨.

فإذا علم الإنسان وأيقن أن نواصي كل العباد بيده وحده، وهو المتصرف المطلق، وكل الخلق ملوك وصعاليك هم عبيده، وخاضعون لسلطانه، يصرّفهم كيف يشاء، فإنه يكتسب حصانة من خوف ما سوى الله، فالكل عبيد له ـ سبحانه ـ وهو المتصرف والمدبر، وقلوب العباد بين إصبعين من أصابعه وفي قبضته ـ جل شأنه.

قال الفضيل: من خاف الله لم يضره أحد، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد، وقال: من أطاع الله لم تضره معصية أحد، ومن عصى الله لم تنفعه طاعة أحد.

وقال الفضيل: رهبة العبد من الله على قدر علمه بالله، وزهادته في الدنيا على قدر رغبته في الآخرة[1].

أفلا يليق بالإنسان أن يكون أشد خشية لمن خلقه ورزقه، ومَن حياتُه ومماتُه بيده، وهو مطّلع عليه في جميع أحواله وتقلباته، حيث يراه ويعلم خلجات قلبه، ووساوس صدره، وما تكنه نفسه، وما يخفيه فؤاده، ويعلم ما هو أخفى من السر؟ يا سبحان الله؛ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. ومن الواجب المفروض أن يتملّق الإنسان لمن أوجده من عدم إلى وجود، وسيعيده من وجود إلى عدم، وسيعيده مرة أخرى في يوم البعث والنشور بعد يوم الحساب.

روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كنت خلف النبي ﷺ فقال: «**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظْ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظْ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ الله وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ**

---

(١) تهذيب الكمال ٢٣/ ٢٩٠.

إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»(١).

وفي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال جبريل للنبي ﷺ: «**فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»(٢). ففي هذين الحديثين تتجلى عقيدة التوحيد الخالص، فيجب على العبد المسلم أن يستشعر معية الله في جميع الأحوال، وأنه معه يراه ويسمع كلامه، لا يخفى عليه من أعماله صغيرها وكبيرها، ويعلم ما توسوس به نفسه، وأنه محيط بعباده، يرعاهم برعايته، ويكلؤهم بعنايته، فلا مجال للتوجس والهوس والخوف من غير الله تبارك وتعالى.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (٨).

المبحث السادس: التحدي والإبداع في صنع الكون

انظروا معنى التحدي والإبداع والإعجاز في صنع الكون، إنه تحدٍ لكل من زعم أن هناك إلهًا غير الله، أو زعم أن هناك إلهًا مع الله، قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ: ٢٢]، والتحدي يتجسد بسؤال من عبد مع الله إلهًا غيره، أو دعا غيره أو توكل على غيره، هل أوجد ذلك المدعو شيئاً من الكائنات؟ وما هو الجزء الذي خلقه ذلك الإله المزيف من الكون الفسيح؟ وما تأثيرمَن تدْعُونه مِن دون الله في صنع المعجزات؟ قال ـ سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ [فاطر: ٤٠]. وقوله ـ تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤]. هذا والله هو التحدي السافر لأصحاب العقول المسلوبة والقلوب المقلوبة.

ادّعى نمرود في زمن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه يحيي ويميت كما أن الله يحيي ويميت، وقرر في ذهنه ما أملته عليه غطرسته الحمقاء أنه باستطاعته أن يقتل رجلاً من شعبه المغلوب على أمره، ويعتق رجلاً آخر استحق عقوبة القتل،

فعندها يوهم البسطاء أنه يحيي ويميت ـ فدحر الله، زعمه وخيب أمله ـ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. انظر إلى الزيف كيف يتوارى ويضمحل ويضيع أمام الحقائق الربانية، إن ذلك الفاسق الذي يزعم أنه رَبٌّ يحيي ويميت، وأن لديه القدرة الكاملة على الرهان، وحيلته أن يقتل إنسانًا مغلوبا على أمره، ويعتق آخر استحق في نظره القتل، فرجع إبراهيم إلى دحر فرية الكذاب وألجمه بصفة المولى الخالق العظيم الذي لا يشاركه فيها أحد، ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ـ إن هذا التحدي بأن الله يأتي بالشمس من المشرق، فاعكس سيرها أنت ودعها تطلع من المغرب، فما كان منه إلا أن بُهِتَ ورجع القهقرى، فتحدّاه إبراهيم فنزل التحدي على الطاغية مثل الصاعقة، فأعمى الله بصره مع عمى بصيرته، لأن ذلك خارج عن قدرته، عند ذلك التحدي خارت قوى الطاغية، وضاع سلطانه المصطنع فبُهت وبان الخواء الروحي والعقلي وهيمن الضعف البشري عليه ـ كما قال: ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ نعم لقد انهزم الطاغية في المباراة مع إبراهيم، فأخرس الله لسانه، وسقط قناع الربوبية المزيفة، وظهر الزيف على حقيقته، وتجلت عجائب إعجاز القرآن في تحدي من زعم أنه إله مع الله، أو يعبد غير الله.

وهذا من أقوى البراهين على توحيد الخالق؛ ومُوجد آياته في الكون الفسيح،

وما أبدع الله فيه من البراهين، والعظمة الربانية المذهلة ـ إن ما في هذا الكون من آيات وبراهين يرسخ عقيدة التوحيد في قلب المؤمن بالله، ومن أبرزها وضوحًا آية الله التي لا تغرب عن البصر لحظة واحدة؛ وهي هذه السماء التي تتحدى بإعجاز ما حوته من آيات تبهر اللُّب، وتربط على القلب، وترسخ خطرات الفؤاد، تلك الآية العظمى المحيطة بالكائنات من كل اتجاه، وهي الآية المشاهدة من كل طبقات البشر، آية عظمى تفتح لكل من تأملها نوافذ البصائر، والأحاسيس المغلقة، وتحطم حواجز القلوب المغلفة، ليعي الناظر عظمة صنع الباري فيما خلق.

إن ضخامة الإعجاز الإبداعي تتجلى في أعظم مخلوق نشاهده: السماء المحيطة بالكون كله من أجرام لاحصر لها وهي تجوب الجو بغير وسيلة مادية يشاهدها من يرسل النظر إليها، إن تلك المخلوقات إنما هي مواعظ تشد اللب إلى توحيد من أوجدها من العدم، وإن هذه الأرض التي نعيش على ظهرها، وهذه الجبال الرواسي التي تجثم في كل نواحيها، ونزول الماء الزلال المبارك النازل من السماء لتحيا به الأرض، وتنبت النبات من الأرض الموات كلها، ألا تدل على توحيد الذي أبدع خلقها؟ قال ـ تبارك وتعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [لقمان: ١٠ – ١١].

حقًّا إن الإنسان يبقى مشدوه الحس، مرتجف الفؤاد أمام عظمة هذا الخلق الهائل والإبداع العجيب في صنع السماء، وارتفاعها بغير جدار ولا عمد، وإبداع خلقها، وإحكام صنعها، وكذلك خلق الأرض وما حوته من صنوف الأمم، كل

ذلك تم بقدرة الله الواحد القهار، الذي أحكم خلقها، وتولى رونق جمالها، خلق السماوات والأرض، وزيّن السماء بالشمس والقمر والنجوم، وقدر مدار الأفلاك الواسعة، وجعل لتلك الكواكب الضخمة مدارات في الفلك الواسع ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] تَسْبَحُ في هذا الفضاء الواسع، وتُسَبِّحْ لله الذي أبدعها وسخرها، ولا يعلم مدى التساعه وما يحويه من أسرار الغيب وعجائب ما أودع وأبدع فيه إلا هو سبحانه، والإنسان بطبعه الضعيف وحواسه القاصرة، لا يرى السماء إلا في شكل قبة مجوفة، ولكننا نجهل كل الجهالة ضخامتها، وماهيتها، ونوع مادتها، وما تحويه من أنواع المخلوقات الضخمة، وإنما يعلمها من صَنَع الكون، وزيَّنه وأبدعه، نحن نرى السماء حين نرسل أنظارنا وهي محيطة بنا، ولكننا لا ندري كيف، وما مدى بعدها واتساعها حيث لا نهاية لها.

ولم نشاهد معالم تحدها، وتبين معالمها وحقيقة عظمتها، وشكلها وجمالها، ناهيك عن الأرض وما فيها من عجائب خلقه، حيث ألقى على الأرض الجبال الرواسي لئلا تميد وتضطرب وتختل، وبث فيها من كل ما خلق من الدواب، من جميع أصناف الخلق، من إنس، وجن، ووحوش، وطيور، وغيرها مما لا يعلمه إلا الله الواحد القهار، ثم أنزل الماء على الأرض الموات وأنبت به ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧]، بل أزواجًا من نبات شتى وغير النبات من جميع صنوف المخلوقات نعم هذا هو الإعجاز، وذلك هو التحدي قال تعالى، ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١].

إن الإبداع الرباني في خلق السماوات والأرض والجبال والشمس والقمر والشجر والنجوم والرياح والسحاب ـ هي دلائل ثابتة، وآيات باهرة عظيمة،

نشاهدها في كل ساعات الليل والنهار، لا يملك أحد إنكار وجودها؛ قال ـ سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩]. والقرآن الكريم يلفت الأنظار إلى صنع الله وإبداعه في مخلوقاته وآيات الله في الكون: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧]. ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٠١]. فالقرآن يحطم حواجز الغفلة، ويفتح نوافذ البصيرة من أولي الألباب، ويقطع الشك باليقين على توحيد الله، وحتى تنظر تلك البصائر المستنيرة إلى عظمة الله ـ سبحانه ـ في خلقه، وأنه إله واحد متفرد بالربوبية والألوهية، وأنه لا إله إلا هو؛ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، وعظمة إبداعه في مخلوقاته دليل ساطع على عظمة مَن أوجدها وأبدع خلقها، وجودة المصنوع دليل على عظمة الصانع ـ سبحانه ـ لأنه لا نِدَّ له، ولا نظير له، ولا إله غيره، فهو ـ سبحانه ـ غني عن جميع مخلوقاته، وكل خلقه مفتقرون إليه، فلو انقطع مدده عن خلقه لحظة واحدة لهلكوا، ومع غناه عنهم وفقرهم إليه، فخيرُه إليهم نازل، وشرّهم إليه صاعد، يتحبب إليهم بالعطاء، ويتبغّضون إليه بالمعاصي، ومع هذا وذاك فهو ـ جل جلاله ـ لا يزال يتحبب إلى خلقه، ويذكّرهم بنعمه وآلائه التي لا تحصى، فتلقاه تارة يذكّرهم بما خلق لهم من نعمه التي لا غنى لهم عنها، ولا حياة لهم بغيرها، ويذكّرهم بوجوب شكرها، والتعلق بمن وهبها دون غيره، وتارة يذكّرهم بعظيم سلطانه في آياته الباهرة، وعظمة صنعه وإبداعه في صنع مخلوقاته التي لا يباريه في صنعها أحد، ولا يدعي

مباراته في صنعها أحد، ومن أعظم مخلوقاته؛ وما أبدعه في هذا الكون الفسيح من سماء وأرض، وشمس وقمر ونجوم، وما فيها من آيات معجزة باهرة، يعجز التصور البشري أن يصفها، أو يحيط بشيء من وصفها وعظمتها، فضلاً أن يدعي أحد منافسته في إبداعها، وكم أشار الخالق إلى إعجاز خلقها وما أوجده فيها بقوله ـ سبحانه: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان: ١٠]. ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]. ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٦]. سبحان الله إن ضخامة مخلوقات الله وإبداع صنعها برهان ساطع على عظمة من خلقها وأوجدها وقدر فيها أقواتها، وهذه الآيات تلفت النظر، وتوقظ الحس الغافل إلى التفكر في هذا الخلق العجيب، حين يرسل المؤمن بربه نظره عن اليمين والشمال، ويأخذ العبرة من جنبات الكون الفسيح وما فيه من عظات، وإبداع، وعبر: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ – ١٩١]. إن حركة نفس المؤمن حين تشاهد مظهر العظمة في منظر السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتعاقب الشمس والقمر والنجوم، والرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض، وأسرار

هذا الكون العجيب ـ عندها يشعر القلب بعظيم جلال خالق الكون ومبدعه، إن عظمة الله في آيات الكون تتجلى بوضوح كامل لأهل القلوب المطمئنة الذاكرة لله، وتلفت العواطف المؤمنة بجدية إلى قدرة خالق هذا الكون.

ياسبحان الله! كيف يغفل لب من سلب الله عقله ولبه، وانصرف عن النظر في ملكوت الله، وعطل عقله ومواهبه عن أخذ العبرة من إبداع الله فيما يشاهده مما يبهر العقل في نظام خلقه، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥ – ١٠٦] ، إن تصور عظمة الله في مخلوقاته؛ ومنها السماء والأرض ـ تعيد المتعظ إلى القاعدة الأساسية، وهي عقيدة التوحيد الخالص، توحيد الذي خلق السماء والأرض، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢]، ومن مشاهدة إبداع الله في الكون تتجه قلوب المؤمنين، إلى الله، وإلى ذكر الله، والتعلق بجلاله في كل وقت وحين، فالمؤمن لا ينسى ذكر الله حين قيامه، وساعة قعوده، وعلى جنبه، وفي كل أوقاته، هذا الصنف من البشر هم الذين يتفكرون في خلق وإبداع السماوات والأرض، وآيات الله في مخلوقاته، وبإعجازه في صنعه.

فإذا كانت تلك عظمة مَخْلُوق من خَلْق الله، فكيف بعظمة خالق المخلوقات ومبدعها وموجدها من العدم إلى الوجود؟، وخلق السماوات والأرض بالحق وتم ذلك الخلق لحكم ظاهرة وأخرى من أسرار الكون لا يعلمها إلا من خلقها وأوجدها، وتعالى الله أن يخلق شيئًا عبثًا؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦-١٧].

وقال ـ سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان: ٣٨ – ٣٩]. وهو الذي بث فيها من عجائب مخلوقاته، ثم أبدعها في هذا الهيكل العجيب، قال ـ جل شأنه ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١]. من هنا يبدأ التحدي الرباني، حين يصف ـ سبحانه ـ إبداعه في رفع السماوات، وعظمتها، واتساع أرجائها، وتزيينها بالبروج والكواكب والشمس والقمر، فإذا نظر الناظر إلى عجائب صنع الله فيها حار النظر، ثم رجع خاسئًا وهو حسير، وهذه العبارات التي تشير إلى عظمة هذا الكون ومافيه قد تتكرر في فصول هذا الكتاب، وهي إشارة إلى عظمة آيات الله في كل مخلوقاته، وقد تكرر ذكر السماء والأرض في أغلب السور من كتاب الله تعالى، لأن ما حوته من المجرات والشمس والقمر والنجوم، هو أعظم ما يشاهده الإنسان.

المبحث السابع: آيات الله في الأرض وما حوت

آيات الله في خلق الأرض وما بث فيها من مخلوقاته، تأتي في مقابل آيات الله في خلق السماء، فهو الذي أبدع الأرض، وما أودع فيها من جمال واتساع، وبث فيها من كل دابة، ومد الأرض وجعل عليها الجبال أوتادًا لتبقى راسية ثابتة لا تميد ولا تضطرب: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٤ – ٦٥]. وقوله ـ سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٣ – ٤]. وقال ـ تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ [الحجر: ١٩]. ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [ق: ٧].

نعم، الله هو الذي خلق الأرض والسماء وسخرها، واستخلف الإنسان لعمارتها، وتطوير الحياة فيها، ولفت أنظار أولي الألباب وأهل البصائر والإنابة إلى هذه الأرض التي نعيش فيها وعلى ظهرها، وما أودعه الله فيها من مخلوقاته التي لا حصر لها، لينتفع المتمعن بالنظر ويتفكر في عظمة خلق الله، وأجناس الأمم والدواب التي قد بثها الله في أرجائها، وكيف مد الأرض وجعل فيها أقواتها، قال

ـ سبحانه ـ في سور (الرعد، الحجر، ق): ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾، وقال في سورة البقرة: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال في سورة طه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ [طه: ٥٣]، وقال في سورة الذاريات: ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٨]، وفي الانشقاق: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ [الانشقاق: ٣]، وقال ـ جل شأنه ـ في سورة الغاشية: ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ٢٠]، وكل ما ورد من قوله مددناها، وفرشناها، وسطحت، ومهدًا ـ كل هذه الألفاظ ليس فيها تناقض. ومن عجائب قدرة الله أن أوجد هذا النظام البديع الذي نعيشه ونعاينه في مرور الزمن باختلاف الليل والنهار المستمرين، ونظامه في هيئة الأرض ومناخها واختلاف طبقاتها، وما يخرج منها من أنواع الثمار والأشجار والنباتات المختلفة، ثم يذكر هنا الأرض المجدبة حين ينزل عليها الغيث من السماء، فتحيا بأمر محيي الموتى، قال ـ تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٣ – ٣٦]. وقوله ـ جل شأنه: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ [الزخرف: ١٢].

إن كل ما في الوجود يثبت لنا عظمة الله، وكل ما في الوجود شاهد على وجود الله وحده لا شريك له، وأنه يحيي الموتى، ولو لم يكن من الأدلة على ذلك إلا موات الأرض المجدبة الموحشة الميتة، فينزل المطر من عند الله وبأمره، فتهتز تلك الأرض وتحيا بعد موتها، فتنبت الحدائق والنخيل والأعناب، ويزرع الناس

الأرض فتخرج لهم من كل الثمرات، ثم يفجرون فيها من العيون الجارية ـ حين تفضل الله عليهم بنزول الغيث ـ فهو المتفضل بما أنزل عليهم الماء من السماء بعد الجدب والشدة وموت الأرض، رحمة منه وفضلاً. وهنا يأتي الأمر من الله ـ جل في علاه ـ إلى أشرف خلق الله وأحبهم إلى الله خاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ أن يحمده على ما تكرم به من النعم التي لا حصر لها؛ فقال ـ سبحانه: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾[النمل: ٥٩ – ٦٠]. هذا هو الإعجاز، وهذا هو البيان الشافي، فبعد الأمر من الله لرسوله بحمده وتمجيده والسلام على رسله ـ يأتي سؤال الاستنكار بصيغة الاستفهام، آلله خير أم شركاء نَصَبَهم أهلُ الشرك والوثنية أربابًا بدون برهان؟ إن أولئك العجزة من الآلهة والأرباب المزيفة الذين لا يخلقون ذبابًا أو ما هو أحقر من الذباب، وإن اجتمع لذلك كل مخلوق في الأرض والسماء. وزيادة في التحدي، فإن هجم عليهم الذباب وسلبهم شيئًا مما هو لهم لا يستنقذوه منه ولو اجتمعوا، وهل ذلكم الجماد الميت المطلوب منه دفع الكرب والشدائد خير، أمّن خلق السماوات والأرض، وأنزل الماء من السماء، وأنبت به الزرع، وأدرّ به الضرع هو خير وأبقى؟ يا ويل أمة انتحلت لها إلهاً ميتاً وجماداً لا يتكلم ونصبته معبوداً من دون خالق الأرض والسماوات العلى، فسبحان الله وتعالى علوًّا كبيراً.

❊ ❊ ❊

المبحث الثامن: التوكل على الله

كيف المخرج؟ وما هي وسيلة الخلاص من غضب الله؟ وماهي الوقاية التي تقينا من مصائب الدنيا وشهواتها؟ إنه لا نجاة للإنسان من حبائل الشهوات ولا عصمة من قيادة الهوى ووساوس الشيطان عدو الإنسان، إلا بتوفيق الله والتوكل عليه، وتوحيده، والاعتصام به دون سواه، والاعتماد عليه دون خلقه، فإذا يسر الله لعبده الهداية، ووفقه للتمسك بتوحيده والتوكل عليه، أصلح له النية، ورزقه سلامة القلب من الهواجس الشريرة قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢ – ٣]، وذكر الله والتوكل عليه جنة ووقاية من بطش الأعداء وغدرهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١]، فبذكر الله وتلاوة القرآن والتوكل عليه يقوى الإيمان وتوجل القلوب قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

فبتوفيق الله يتم الخلاص من تلك القيود والأغلال جميعًا، وبالتوكل على الله، والاعتصام به دون سواه، تتم السعادة، ويرسخ اليقين، ويأتي الفرج من كل ضائقة، وبه يتم الخروج من كل مأزق، ويتم حفظ الله لعباده من كل ظالم، فكل نواصي العباد بيد الله، ولا يجري في الكون شيء إلا بقدر الله، وحين توعد قومُ هودٍ، هودًا: ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا

نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٣ – ٥٦]. إني توكلت على الله، فما في الوجود شيء خارج عن قهره وسلطانه، لأنه حكم عدل وسلطان رحيم، لا يحابي أحدًا على حساب أحد، ولا يجري في حكمه إلا الحق، لأنه هو الحق، وسلطانه هو سلطان العدل، وطريقه الصراط المستقيم.

وإذا قصدنا الدواء الناجع الذي يغرس التقوى في قلوب المؤمنين ـ وجدناه في كتاب الله المنزّل الذي فيه الشفاء والنور؛ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] ، المتقون هم الذين يؤمنون بالغيب، وهو التصديق المطلق، والإيمان بالغيب يكون بالقول، وبالعمل، والاعتقاد، ثم بعد إيمانهم بالغيب – يقومون بعمل الفرائض؛ كقيام الصلاة على الوجه المطلوب، ودفع الزكاة المفروضة، والإيمان بكتب الله المنزلة، وبجميع رسل الله، والإيمان بالقرآن الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ولأنه عِصمة لمن تمسّك به من الضلال، ولأنه كتاب الله، كما جاء في الحديث: «وَمَنْ ابتغَى الهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ الله»(١)، لا شك ولا ريب في كتاب الله، فهو الذي تتجسد فيه دلالة الصدق واليقين ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، في كل كلمة من كلماته، بل وفي كل حرف من حروفه دلالة

(١) رواه الترمذي (٢٩٠٨) والدارمي (٢/ ٤٣٥) والبزار (٨٣٦) والبغوي في شرح السنة (١١٨١) وسنده ضعيف، والصحيح أنه موقوف على علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

على كامل السعادة والضياء والنور الموصل إلى طريق الهدى، هو الذي وصفه من أنزله بقوله: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [المائدة: ١٥ – ١٦]. إن من يتذوق معاني القرآن الكريم يشعر بعلو منزلته وعظمة من أنزله، فهو النور بكل ما تعنيه كلمة النور، كما قال ـ سبحانه: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ [المائدة: ١٥] فهو نور واضح يشع في كل اتجاه، ليس عليه لبس أو غموض، فهو بيّن في مضمونه ومعناه، وهو نور ساطع في القلب، ونور في العقل، ونور في المدارك، ونور في الحياة كلها، ونور في حقيقة الإيمان: ﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾، إن حقيقة القرآن التي نزل بها ـ هي هداية التوفيق إلى النهج القويم، والصراط المستقيم، هداية المتقين إلى رضوان رب العالمين إلى طريق النجاح والفلاح والسلامة، ومناهج الاستقامة، وسبل النجاة من المهالك، ويبعدهم عن سبل الضلالة.

﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ وذلك توفيق الله لمن كتب له نهج سبل السلام، وهي سبل الخير والبر والنجاة، سبل السعادة ورضوان الله، سبل الجنة دار الأبرار، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قال سيد ـ في الظلال: «وما أدقه من تعبير، وأصدقه من حديث، السلام

الذي يهدي إليه هذا الدين في الحياة كلها؛ سلام الفرد، وسلام الجماعة. وسلام العالم، وسلام الضمير، وسلام العقل، وسلام الجوارح، وسلام البيت، وسلام الأسرة، وسلام المجتمع، وسلام الأمة، السلام الذي لم تجده البشرية، ولم يجده العالم إلا في هذا الدين، في منهجه ونظامه وشريعته». ثم قال: «إننا نعاني من ويلات الجاهلية، والإسلام منا قريب، ونعاني من حروب الجاهلية، وسلام الإسلام في متناول أيدينا». انتهى(١).

من اعتصم بالله نجا، ومن عمل بكتابه أُجر، فهو الذي يجسد التقوى في قلوب الصالحين المهديين؛ ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. ومن هذا المنطلق؛ فإن تقوى الله، ومراقبته، والتوكل عليه، والاستعانة به ـ دون سواه ـ بإيمان، ويقين؛ هي الخلاص المنجي من المهالك، فالتقوى والتوكل عليه هما الخلاص من الشدائد، ولنا في صالح الأنبياء والرسل القدوة، فحين كانت تواجههم الشدائد يأوون إلى جناب المولى القدير فيتوكلون عليه ويعتصمون بعزته وجبروته، من غدر الغادرين وأعداء الرسل من كل ملحد لا يؤمن بيوم الحساب، فيأتي نصر الله العاجل، وحين نتدبَّر الحوار بين أنبياء الله ورسله، وبين عباد الأوثان، ومن ذلك ما قصه علينا في سورة إبراهيم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ

---

(١) ظلال القرآن ٢/ ٨٦٢-٨٦٣ .

وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ٨ – ١٢].

إن تقوى الله والتوكل عليه هما الملاذ، وهما اللذان يقيان من تمسّك بهما من أوهام الغرور، والخطرات الضالة التي تشط بالعبد عن مراقبة مولاه، التقوى هي: الخلاص من نوازع الهوى، وحب الحياة الفانية، والركون إليها، قال ـ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠ – ٤١] خاف مقام ربه حين الوقوف عليه، وكل إنسان يحمل في عنقه سجل حسناته وسيئاته، والهوى هو المحرك الأساس، والعنصر الرئيس لمادة الطغيان، لأن الهوى هو نقطة البداية لتجاوز حدود الله، وهو أساس كل معصية وتمرد على أوامر الله، وما تمردت الأمم والشعوب وشط بهم عن منهج الله إلا داعي الهوى؛ وانظر إلى سيرة عالم من علماء اليهود، وكان يعلم الاسم الأعظم الذي إذا دُعي الله به أجاب، فحين طال به الوقت وملكه الغرور واتبع الهوى ثم انسلخ من الهُدى قص الله خبره ليكون عبرة للمعتبرين قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا

لَرَفَعْنَهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥ – ١٧٦].

المبحث التاسع: وإن من شيء إلا يسبح بحمده

تسبيح الرعد والملائكة وكل مخلوق في الوجود وهذا عام في الحيوانات والنبات والجماد، قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾.

قال جل شأنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾[الرعد:١٢-١٣]، البرق اللامع والرعد المدوي، والسحاب الكثيف آيات باهرة ومشاهد كونيه معروفة تدل على توحيد وعظمة من أنشأها من العدم.

يذكر جل شأن رؤية البرق في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾ البرق هو: النور اللامع بسرعة خاطفة ينبعث ذلك الضوء من السحاب الكثيف. وقوله: ﴿خَوۡفًا وَطَمَعًا﴾ لعل الخوف من صواعق البرق، أو يخاف المسافر من البرد ومشقته، لو هطل المطر من جراء ذلك البرق، : ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمة الله بهطول المطر، يرجى بركته ومنفعته، والخير من بعده، ويطمع في رزق الله بسقياه.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ أي: يُوجد السحاب من العدم قبل أن يكن لها وجود، وسُمِّي السحاب سحاباً لكونه ينسحب في الهواء، فسبحان خالق كل شيء من المعدوم، وقوله: ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ ما تحمله السحب من الماء الثقيل، وهو الذي ينزل من: ﴿ٱلسَّحَابَ﴾ بقدرة الله وهو المطر الغزير فيحيي الله به الأرض بعد موتها.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ يسبح الرعد بحمد الله فعلاً. وصفة تسبيح الرعد وغيره ممن عناهم الله بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ

تَسْبِيحَهُمْ ﴾ غيبٌ أخفاه الله عن علم البشر، فهو سر لا يعلمه إلا هو، أخفاه الله سبحانه، ويتقبله المؤمن بالله بالتصديق الكامل والتسليم المطلق، لأن الله اختصه بعلمه دون أحد من البشر، لأن البشر لا يعلمون من أمر الله فيما أودعه من أسرار الكون، ولا يعلم الإنسان من أمر نفسه التي يحتضنها جسده إلا القليل!

وفي الحديث «إِنَّ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ يُنْشِىءُ السَّحابَ فَيُنْطِقُ أَحْسَنَ النُّطْقِ ويَضْحَكُ أَحْسَنَ الضَّحِكِ»(1).

وتعبير تسبيح الرعد بالحمد لله مقتبس من منهج رسم القرآن الكريم هو كلام الله الذي: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [،،،].

الوجود كله متجه إلى خالقه وموجده ومولاه، متجه في تسبيح أبدي مديدة شاملة يشترك فيه كل الوجود، كل شيء من الإنس والملائكة والجن الأحياء والأموات والدواب والشجر والمدر، ويضيف إليها تسبيح الملائكة والرَّعْدُ وظلال دخول الليل وذهاب النهار وظلال الأبنية والأشجار كل ما سوى الله فالكل يسبح تسبيحاً لا يفقهه إلا الحي القيوم.

وعَن سَالِمِ بنِ عَبْدِ الله بنِ عُمَرَ عَن أَبِيهِ: «أَنَّ رَسُولَ الله كَانَ إِذَا سَمِعَ صَوْتَ الرَّعْدِ والصَّوَاعِق قالَ: **اللَّهُمَّ لا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ وَلا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ وعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ**»(2).

وكذلك الصواعق المرسلة بأصواتها المزعجة التي تصاحب الرعد وهي نوع

---

(1) رواه أحمد (٢٣٣٠١) بسند صحيح، قال الهيثمي (المجمع ٢/ ٢١٦): ورجاله رجال الصحيح.

(2) رواه الترمذي (٣٥٨٥) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. اهـ والحديث سنده ضعيف.

من الرعد شديد الصوت الدالة على قدرت الله، وهي بذاتها آيات من آيات الله المشاهدة، وهي التي لها تأثير في النفوس.

وفي مثل هذا السياق، يبرز نظام الحياة وسيرها معجزة لهذا الكون وأسراره لتشارك هي الأخرى في مشهد الكون بحركة من جنس مشهده وإعجازه.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١٣] أي: يَشُكُّون في عظمته، وأنه لا إله إلا هو، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣]. قال ابن جرير: شديدة مما حَلَته في عقوبة من طغى عليه، وعتا وتمادى في كفره.

وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠-٥١].

وعن علي رضي الله عنه: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي: شديد الأخذ. وقال مجاهد: شديد القوة»[1].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٢-٤٤].

قال تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي: لو كان الأمر كما يقول المشركون من أن مع الله آلهة تعبد وتقرب إليه وتشفع لديه ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي: لكان أولئك المعبودون مع الله أومن دونه

(1) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٧٨.

اختطوا لهم طريقاً، وظهروا على عرش الرحمن بدون مشقة، وكان لهم في الأرض والسموات أجزاء اختصوا بها ولهذا تحداهم الله بقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ [فاطر:٤٠] وقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف:٤ـ٦].

فتبين من سورتي فاطر والأحقاف، أنهم عاجزون عن نفع أنفسهم، وهم عن نفع غيرهم أعجز، وذِكْر العرش يُوحي بالارتفاع المطلق والسمو العالي عن كل ما يدعونهم من الشركاء أو غيرهم من أصناف المخلوقات جميعاً، أن يكن لهم سلطان (مع الله). وهي ذليلة كليلة تحت عرشه وقهره وجبروته.

لذلك نزه الكريم نفسه فقال: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ سبحانه وتعالى عن الند والشريك فهو الواحد الأحد القوي المتين خالق كل شيء المندد بالشرك وأهله وكذلك من تحدي المشركين قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان:١٠ـ١١].

ثم يرسم القرآن الكريم للوجود وكل موجود، وكل ما في المعمورة من أصناف المخلوقات بجميع أشكالها وألوانها، وما حوته السماوات والأرض وما

في الكون الفسيح، الكل يتجه إلى الله، يسبح بحمده ويقدس له ويطلب إليه الوسيلة قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

تسبيح السماوات السبع والأرض ومن فيهن، يرسمه التعبير القرآني بلفظ بليغ تنطق به كل ذرة في الوجود وكل حي متحرك وجماد ثابت في هذا الكون الكبير، وتردد التسبيح كل روح حية، أو جماد لا حياة ولا روح فيه بنص قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾، الكل يسبح بحمد الله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤] فإذا الكون كله حركة حية وحياة تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير، وإذا الوجود يردد تسبيحه الذي لا يفقه ذلك التسبيح إلا خالق الكون الواحد الكبير المتعال.

﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي: وما من شيء من مخلوقات الله عز وجل إلا هو يسبح بحمد الله بلغات يعلمها الله وقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ أي: لا تفقهون أيها البشر أيها الناس؛ من تسبيحهم شيئاً لأنها بلهجات مختلفة خلاف لغتكم.

وهذا أشهر القولين، كما ثبت في صحيح البخاري، عن ابن مسعود قال: «كنّا نعدُّ الآيات برَكةً، وأنتم تعدُّونها تخويفاً، كنّا معَ رسولِ الله ﷺ في سفر فقلَّ الماء، فقال: «**اطلُبوا فضلةً من ماءٍ**»، فجاءوا بإناءٍ فيه ماءٌ قليل، فأدخلَ يدَهُ في الإناءِ ثم قال: «**حيَّ على الطَّهورِ المبارَك، والبركة منَ الله**»، فلقد رأيتُ الماءَ يَنبُعُ من بينِ أصابع رسولِ الله ﷺ، ولقد كنّا نسمعُ تَسبيحَ الطعامِ وهوَ يُؤكل»(1).

---

(1) أخرجه البخاري (٣٥٠٣).

وعند الترمذي بلفظ: «إِنَّكُمْ تَعُدُّونَ الآياتِ عَذاباً وإِنَّا كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ بَرَكَةً، لَقَدْ كُنَّا نَأْكُلُ الطَّعَامَ مَعَ النبيِّ وَنَحْنُ نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ. قالَ: وَأُتِيَ النبيُّ بِإِنَاءٍ فَوَضَعَ يَدَهُ فِيهِ فَجَعَلَ المَاءُ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ فقالَ النَّبِيُّ: «**حَيَّ عَلَى الْوَضُوءِ المُبَارَكِ والبَرَكَةِ مِنَ السَّماءِ**». حَتَّى تَوَضَّأْنَا كُلُّنَا[1].

وفي المستدرك: عن أبي هريرة ﷺ أنه سمع النبيّ يقول: «**مَنْ قالَ سُبْحانَ الله، وَالحَمْدُ لله، وَلا إِلَهَ إِلا الله، وَالله أَكْبَرُ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بالله، قال الله: أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ**»[2].

قال الذهبي في تاريخه «فصل في تسبيح الحصى في يده ﷺ».

وَقَالَ قُرَيْشُ بْنُ أَنَسٍ، حَدَّثَنَا صَالِحُ بْنُ أَبِي الأَخْضَرِ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ رَجُلٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ ﷺ يَقُولُ: «لا أَذْكُرُ عُثْمَانَ إِلا بِخَيْرٍ بَعْدَ شَيْءٍ رَأَيْتُهُ: كُنْتُ رَجُلا أَتَتَبَّعُ خَلَوَاتِ النبي ﷺ، فَرَأَيْتُهُ وَحْدَهُ، فَجَلَسْتُ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَسَلَّمَ وَجَلَسَ، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، وَبَيْنَ يَدَي النَّبِيِّ ﷺ سَبْعُ حَصَيَاتٍ، فَأَخَذَهُنَّ فَوَضَعَهُنَّ فِي كَفِّهِ، فَسَبَّحْنَ، حَتَّى سَمِعْتُ لَهُنَّ حَنِينًا كَحَنِينِ النَّحْلِ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فَخَرِسْنَ، ثُمَّ أَخَذَهُنَّ فَوَضَعَهُنَّ فِي يَدِ أَبِي بَكْرٍ فَسَبَّحْنَ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فَخَرِسْنَ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فِي يَدِ عُمَرَ فَسَبَّحْنَ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فِي يَدِ عُثْمَانَ فَسَبَّحْنَ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فَخَرِسْنَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**هَذِهِ خِلافَةُ النُّبُوَّةِ**».

صَالِحٌ لَمْ يَكُنْ حَافِظًا، وَالمَحْفُوظُ رِوَايَةُ شُعَيْبِ بْنِ أَبِي حَمْزَةَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: ذَكَرَ الْوَلِيدُ بْنُ سُوَيْدٍ أَنَّ رَجُلا مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ كَبِيرَ السِّنِّ، كَانَ مِمَّنْ أَدْرَكَ أَبَا ذَرٍّ

---

(1) أخرجه الترمذي (٣٧٨٥) وقال: حديث حسن صحيح.

(2) أخرجه الحاكم (١/ ٢١) وصححه ووافقه الذهبي. وهو كما قالها.

بِالرَّبَذَةِ ذُكِرَ لَهُ، فَذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ أَبِي ذَرٍّ[1].

قال الحاكم: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**أَلا أُعَلِّمُكَ**» أو قال: «**أَلا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ مِنْ كَنْزِ الْجَنَّةِ، تقولُ: لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِالله فَيَقولُ الله عَزَّ وَجَلَّ أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ**»[2].

قال سيد في الظلال: «ومن خلال سياق القرآن تذوب وتميع عقائد الشرك وتتهاوى إلى الحضيض، أمام نفي الله لمعتقداتهم الجاهلية، وينفرد المولى الكريم بالإلهية والتوحيد والعبادة والاتجاه والخلق والتصرف والحكم في هذا الوجود وما يحوي الوجود، ظاهره وباطنه، في الحياة الدنيا وفي الآخرة؛ ويبقى كل شيء متجه إلى المولى الكريم» انتهى[3].

فسبحان الله الواحد الأحد الفرد الصمد، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣]، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ،﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

المولى جل جلاله تسبح له وتعظم شأنه كل السموات السبع وكل الأراضي السبع ومن فيهن، وما بينهن، من كل أصناف المخلوقات، تسبحه، وتقدسه وتنزهه،

---

(1) تاريخ الإسلام (السيرة النبوية) ص٣٥٢.

(2) أخرجه الحاكم ١/ ١٧٤ والبيهقي في الكبرى ٢/ ١٨٤ وصححه الحاكم، وقواه الحافظ ابن حجر (الفتح ١١/ ٢١٤).

(3) في ظلال القرآن ٥/ ٢٣.

وتعظم شأنه وتجلّه وتكبره، فسبحان الله عما يقول الملحدون والمشركون، وتشهد كل المخلوقات له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته.

قال ابن كثير:

«فَفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلى أَنَّه واحد ...

كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾»[1] [مريم: ٩٠-٩١] فسبحان الله كما يليق بجلاله وكبريائه، فكل الخلق يسبحونه ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾، إلا يسبح له ويتقرب إليه، يبتغون إليه الوسيلة والقربى، وذكر العرش هنا يوحي بالارتفاع والتسامي على هذه الخلائق التي يدعون أنها آلهة (مع الله). وهي تحت عرشه وليست معه.. ويعقب على ذلك بتنزيه الله في علاه، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الشورى: ٥].

قال تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾[ص: ١٧-١٩].

أمر الله نبينا محمد ﷺ بالصبر على ما يلقى من أذى السفهاء، وهذا الدرس كله أمثلة من حياة رسول الله ﷺ وما يلاقيه، يأمره بالصبر ويَدَع ما يُعانيه من قومه

---

(1) تفسير ابن كثير ٥/ ٧٢.

من تكذيب واتهام وافتراء وسخرية، وأمر أن يذكر داود في صبره وقوته على عبادة ربه في قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

وقوله: ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾: أي القوة في طاعة الله تعالى، وقوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: مطيع لله محسن، والأواب الراجع المنيب، وَرَجُلٌ أَوَّابٌ كَثِيرُ الرُّجُوع إِلى الله تعالى مِنْ ذَنْبِهِ. والأَوَّابُ: التَّائِبُ. الذي يُذْنِبُ ثُمَّ يَتُوب إلى آخر ما قيل.

وهذا ثابت في الصحيحين عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ أَحَبَّ الصِّيَامِ إِلَى الله صِيَامُ دَاوُدَ، وَأَحَبَّ الصَّلاَةِ إِلَى الله صَلاَةُ دَاوُدَ (عَلَيْهِ السَّلاَمُ)، كَانَ يَنَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْماً وَيُفْطِرُ يَوْماً**»[1].

وقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ [ص: ١٨] أي: إنه سبحانه وتعالى سخر الجبال تسبح مع داود في الصباح والمساء، عند إشراق الشمس وعند غروبها، وفي تفسير تسبيح الجبال رد على ما أورده ابن كثير، وقال آخرون: إنما يسبح ما كان فيه روح. يعنون من حيوان أو نبات. وذكر قول قتادة في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] قال: «كل شيء فيه الروح يسبح»[2].

والصحيح أن كل شيء في الوجود يسبح الله بدليل قوله تعالى: في سورة سبأ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ﴾ [سبأ: ١٠] والجبال جماد، وقوله ﴿أَوِّبِي﴾ أي: سبحي، وكذلك الطير كانت تسبح بتسبيح داود وترجع التسبيح بترجيعه إذا حام

(1) أخرجه البخاري (٣٣٤٩) ومسلم (٢٦٩٢) واللفظ له.

(2) تفسير ابن كثير ٥/ ٧٢.

عليه الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بالتسبيح والتحميد والتهليل وذكر الله.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: الذين يحملون عرش الله من ملائكته، ومن حول عرشه، ممن يحفّ به من الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ يقول: يصلون لربهم بحمده وشكره ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ يقول: ويقرّون بالله أنه لا إله لهم سواه، ويشهدون بذلك، لا يستكبرون عن عبادته ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يقول: ويسألون ربهم أن يغفر للذين أقرّوا بمثل إقرارهم من توحيد الله، والبراءة من كلّ معبود سواه لذنوبهم، فيعفوها عنهم»(1).

وقوله: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يستغفرون لأهل لا اله إلا الله(2).

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾، أي: وسعت رحمتك وكرمك وجودك وعلمك كل شيء من خلقك، فأنت العليم بكل شيء، فلم يخف على علمك شيء، ورحمت خلقك، ووسعتهم برحمتك.

وقوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ أي: تجاوز، واصفح عن عقوبة من أجرم ثم تاب من شركه ومعاصيه من عبادك، وعاد إلى التوبة النصوح، واتبع أمرك واجتنب نهيك ودخلوا في الإسلام على هدي سيد الأنام.

---

(1) جامع البيان ٢٤/ ٢٩.

(2) قاله قتادة. المصدر السابق.

وقوله : ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: اصرف عن الذين تابوا ونهجوا سبيلك عذابك وسخطك ومقتك يوم القيامة.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٩﴾ [غافر: ٨-٩].

يقول جل جلاله وتقدست أسماؤه مخبراً عن دعاء ملائكته لأهل الإيمان به من عباده، يقولون: يا ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ يا رب: أدخلهم رياض جنتك وبساتين إقامة ﴿الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ أي: التي وعدت أهل التقوى والإنابة من عبادك أن تدخلهم الجنة ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ اجمع بينهم لتقر أعينهم، وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: لك الأسماء الحسنى والصفات العلى، أنت العزيز القوي الحكيم الذي لا يعجزه شيء أزاده.

وقال في ظلال القرآن: «نحن لا نعرف ما هو العرش؟ ولا نملك صورة له، ولا نعرف كيف يحمله حملته، ولا كيف يكون من حوله، ولا جدوى من الجري وراء صور ليس من طبيعة الإدراك البشري أن يلم بها، ولا من الجدل حول غيبيات لم يُطلع الله أحداً من المتجادلين عليها؛ وكل ما يتصل بالحقيقة التي يقررها سياق السورة أن عباداً مقربين من الله جل جلاله، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧]. وينص القرآن على إيمانهم وهو مفهوم بداهة ليشير إلى الصلة التي تربطهم بالمؤمنين من البشر.

هؤلاء العباد المقربون يتوجهون بعد تسبيح الله إلى الدعاء للمؤمنين من الناس بخير ما يدعو به مؤمن لأخيه المؤمن.

قال: وهم يبدؤون دعاءهم بأدب، ويعلمنا كيف يكون أدب الدعاء والسؤال. يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

يقدمون بين يدي الدعاء بأنهم في طلب الرحمة للناس إنما يستمدون من رحمة الله التي وسعت كل شيء، ويحيلون إلى علم الله الذي وسع كل شيء؛ وأنهم لا يقدمون بين يدي الله بشيء؛ إنما هي رحمته وعلمه منهما يستمدون وإليهما يلجاؤن:

﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ وتلتقي هذه الإشارة إلى المغفرة والتوبة بمطلع السورة، وبصفة الله هناك: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٣]. كما تلتقي الإشارة إلى عذاب الجحيم، بصفة الله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]. ثم يرتقون في الدعاء من الغفران والوقاية من العذاب إلى سؤال الجنة واستنجاز وعد الله لعباده الصالحين:

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [غافر: ٨].

ودخول الجنة نعيم وفوز، يُضاف إليه صحبة من صلح من الآباء والأزواج والذريات، وهي نعيم آخر مستقل، ثم هي مظهر من مظاهر الوحدة بين المؤمنين أجمعين . فعند عقدة الإيمان يلتقي الآباء والأبناء والأزواج، ولولا هذه العقدة لتقطعت بينهم الأسباب:

والتعقيب على هذه الفقرة من الدعاء: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يشير إلى القوة كما يشير إلى الحكمة . وبها يكون الحكم في أمر العباد .

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۚ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٩].

وهذه الدعوة بعد الدعاء بإدخالهم جنات عدن لفتة إلى الركيزة الأولى في الموقف العصيب، فالسيئات هي التي تُوبق أصحابها في الآخرة، وتُوردهم مورد التهلكة، فإذا وقى الله عباده المؤمنين منها وقاهم نتائجها وعواقبها.

وكانت هذه هي الرحمة في ذلك الموقف. وكانت كذلك أولى خطوات السعادة ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. فمجرد الوقاية من السيئات هو أمر عظيم! انتهى[1].

قلت: وهذه الآيات التي مرت بنا من سورتي، الرعد، وغافر، تلزم بترابط الأسرة المسلمة واستغفار المسلم لأخيه المسلم والطلب من الله تعالى بالمغفرة لمن تاب وآمن من الآباء والأمهات والإخوان، وعموم إخوة الإيمان في الله، وقد ورد في الأحاديث صورة ربط المسلم بأخيه المسلم، ورد في حديث عَبْد الله بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[2].

وفي حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَتَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَروا، وَلاَ يَبِع بَعضُكُم عَلَى بَيعِ بَعضٍ، وَكونوا عِبَادَ الله إِخوَانَاً، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِم، لاَ يَظلِمهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَيَحْقِرُهُ، التَّقوَى هَاهُنَا - وَيُشيرُ إِلَى صَدرِهِ ثَلاَثَ مَراتٍ - بِحَسْبِ امْرِىء مِن الشَّرِ أَن يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسلِمَ،**

(1) في ظلال القرآن ٦/ ٢٤٩.

(2) أخرجه البخاري (٢٣٩٩) ومسلم (٦٥٣٠).

كُلُّ المُسلمِ عَلَى المُسلِمِ حَرَام دَمُهُ وَمَالُه وَعِرضُه»[1].

وعن أنَسٍ رضي الله عنهُ عنِ النبيِّ ﷺ وعن حُسَيْنٍ المْعلِّمِ قال: حدثنا قَتادةُ عن أنَسٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «لا يُؤْمِنُ أَحدُكُمْ حتى يُحِبَّ لأَخِيه ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[2].

قال تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشورى: ٥].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ يقول تعالى ذكره: تكاد السموات يتشققن من فوق الأرضين، من عظمة الرحمن وجلاله»[3].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، والسدي، وكعب الأحبار: أي فرقًا، من العظمة من الله وجلاله»[4].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح: ٨-٩].

قال ابن كثير: «يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا ﴾ أي: على الخلق، ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ أي: للمؤمنين، ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ أي: للكافرين. وقد تقدم تفسيرها في سورة (الأحزاب).

﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغير

(1) أخرجه مسلم (٦٤٩٣).

(2) أخرجه البخاري (١٣) ومسلم (١٣٣).

(3) جامع البيان ٢٥/ ٦.

(4) تفسير ابن كثير ٧/ ١٧٣.

واحد: تجلوه وتعظموه، وقيل في معنى التعزير في هذا الموضع: التقوية بالنُّصرة والمعونة، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم والإجلال.

﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام، وقيل في التوقير: هو التعظيم والإجلال والتفخيم.

﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: تعظمون وتسبحون الله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: أول النهار وآخره»[1].

(1) المصدر السابق ٧/ ٣٠٥.

الفصل الثاني

العدل وتهذيب الأخلاق وتقويم السلوك

(١) المبحث الأول: ترويض النفس.

(٢) المبحث الثاني: تقويم السلوك.

(٣) المبحث الثالث: العدل والإحسان.

(٤) المبحث الرابع: الظلم نقيض العدل.

(٥) المبحث الخامس: الإحسان إلى الوالدين.

(٦) المبحث السادس: تحريم قتل الأولاد.

(٧) المبحث السابع: الوفاء بالعهد.

(٨) المبحث الثامن: تكافل المجتمع المسلم وحماية الحقوق.

(٩) المبحث التاسع: المجتمع النظيف.

(١٠) المبحث العاشر: الأسوة الحسنة.

المبحث الأول: ترويض النفس

كيف ومتى يأتي الوقت الذي يستطيع فيه الإنسان أن يسيطر على نفسه الأمارة بالسوء بضبطها، حتى تتهيأ لحب الله وحب رسوله ﷺ وللإيمان الخالص؟ كيف ومتى يكبح الإنسان جماح نفسه عن الأنانية الرخيصة المخلة بحقيقة التقوى؟ كيف ومتى نصل إلى مرحلة يقين الصادقين من سلفنا الصالح من ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤] كيف ومتى: يحرر الإنسان المسلم عمله من عوامل النزعات الشركية المنافية للإخلاص، ومن الوباء القاتل وهو حب الرياء والسمعة؟ كيف ومتى ترتبط قلوبنا بحبه والاعتصام به دون سواه، ونتخلص من الذل لغير الله ونستشعر الأثر القدسي: «**ما اعتصمَ بي عبدٌ من عِبادِي دُون غَيرِي أعلمُ ذلكَ من نيّته، ثم تكيدُه السَّماواتُ والأرض إلا جعلتُ له من بينهِنَّ فرجاً ومخرجاً**»(١)، كيف ومتى يقلع المؤمن عن الانغماس في الأمور الضارة غير النافعة وتصحيح النية السليمة لتصبح متجهة بكليتها إلى الله بنفس مطمئنة صافية، لا يحركها باعث الهوى، وطلب الجاه، وحب الشهرة، وطمع المنصب والرئاسة، والانتصار بالباطل للنفس الأمارة بالسوء؟ كيف ومتى نتخلص من حب الحمد والثناء من الناس بما نفعل وبما لا نفعل؟ قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٢٦.

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

كيف ومتى نفك أطواق الشهوات التي تجرنا بسلاسلها وأغلالها إلى حب الذات وحب التعالي والاستشراف للظهور وتجاوز الحد، ونبعد أنفسنا عن الانصياع للمظاهر الجوفاء ونكون عباداً لله صادقين؟ كيف ومتى تستعد هذه النفس الجموح للتوجه بنية الصدق إلى الحي القيوم، وملاقاة المصير المحتوم والمعاد المؤكد وكل ما هو آت قريب، ألا وإن البعيد ما ليس آتياً؟ كيف ومتى نعرف جيداً الهدف الذي من أجله خُلقنا، ونحاسب أنفسنا على التفريط في الواجب المفروض، ونشعر يقيناً أننا غرباء في هذه الحياة وسننتقل إلى دار القرار ونُحَاسب على كل ما اقترفناه من مخالفات لا تُرضي الله؟ حسبنا الله وكفى ولا حول ولا قوة إلا بالله، كيف ومتى نستعد للعودة إلى الله طلباً لرضاه، بنية خالصة وروحانية مطمئنة تهيمن على مشاعرنا وأفكارنا بحب الله وثقة بوعد الله ووعيده صادقة في الإنابة راضية مرضية، لتنال الفوز برضوان المولى في مقعد صدق عند مليك مقتدر؟ كيف ومتى نتصدى لعداوة العدو الأول عدو الله ورسله والناس أجمعين ألا وهو إبليس اللعين، الذي حذرنا ربنا سبحانه وتعال من موالاته، وأمرنا بالبعد عنه، لئلا يكون لنا عدو إلا هو وحزبه وننأى بنفوسنا عن خطواته، حيث قال المولى الكريم: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦] وقال تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٨ – ١٦٩] وقال جل شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟

خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [البقرة: ٢٠٨] وقال تبارك اسمه: ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [الأنعام: ١٤٢] وقوله: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴾ [الإسراء: ٥٣] وقوله: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴾ [الكهف: ٥٠] إلى غير ذلك.

الخُلق هو: مجموعة قواعد سلوكية، وهي غريزة من المكارم والمساوئ، فمن مكارم الأخلاق، الكرم بسخاء وشجاعة، ولها حدود لا ينبغي أن تتجاوز مضمونها الشرعي، ومنها لِين الجانب والتواضع في غير خنوع ولا جبن، والحلم والعفة، وحب الخير للناس، والترفع عن النقائص، وأحسن تلك الأخلاق ما كان خلقًا طبيعيًا وغريزة فطرية بعيدة عن التكلف، ويظهر ذلك بجلاء في سيرة الشخص وفكره المقتبس من نور أخلاق الإسلام التي دعا إليها القرآن والسيرة النبوية الطاهرة، أما الأخلاق غير المحمودة وهي المعاكسة لأخلاق الصالحين، مثل: الكبر، والغل، والحقد، والحسد، وسوء الجوار، وما أشبه ذلك، نعوذ بالله من سوء الخلق، فإن تلك الأخلاق السيئة هي أخلاق من سبقت شقاوته وخاب أمله، بخلاف أخلاق أصحاب المواهب الربانية ممن شرح الله صدورهم ونفوسهم للإسلام، وحازوا على شرف التأسي بصاحب الخلق العظيم ﷺ في القدوة الصالحة والشمائل المحمدية الرفيعة التي قال عنها صاحبه وخادمه أنس بن مالك ﷺ قال: «خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ، وَمَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لِمَ

صَنَعْتَهُ، وَلَا لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ لِمَ تَرَكْتَهُ؟ وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، وَلَا مَسَسْتُ خَزًّا قَطُّ وَلَا حَرِيرًا وَلَا شَيْئًا كَانَ أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ الله ﷺ، وَلَا شَمَمْتُ مِسْكًا قَطُّ وَلَا عِطْرًا كَانَ أَطْيَبَ مِنْ عَرَقِ رَسُولِ الله ﷺ»[1].

كانت كذلك سجايا رسول الله ﷺ، فالمسلم بعد أن تطمئن نفسه وجوارحه ويصقل عقله وقلبه وقالبه بالإيمان وحب الله وكتابه ورسوله فإنه يدعو إلى الله بكلامه وصمته وقيامه وقعوده لأن الإخلاص له رونق وروعة، يكسو صاحبه المهابة والوقار وحب من يخالطه أو يستمع لما يلقيه وما خرج من قلب الداعية يباشر شغاف قلب المستمع لأن الإخلاص له تأثيره المباشر في القلوب السليمة، ولما كان الخلق الحسن من أجل الأعمال فإنه يدعو إلى رقة القلب والسكينة، وانظر يا رعاك الله إلى أخلاق رسول الله ﷺ كيف قادت رجلاً أعرابياً جافياً إلى أن دخل الإسلام وكان قبل ذلك يكره الإسلام ودين الإسلام ورسول الإسلام والبلد الذي هو بلد الإسلام، فقد ورد في الصحيحين وغيرهما وكتب السير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ**»؟ فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتُرِكَ حَتَّى كَانَ الْغَدُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ**»؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ فَقَالَ: «**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ**»؟ فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ،

---

(١) رواه الترمذي (١٩٣٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

فَقَالَ: «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ» فَانْطَلَقَ إِلَى نَجْلٍ قَرِيبٍ مِنْ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، يَا مُحَمَّدُ وَالله مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَالله مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَالله مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ صَبَوْتَ، قَالَ: لَا وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله ﷺ،وَلَا وَالله لَا يَأْتِيكُمْ مِنْ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ(١).

يستشف من هذا الحوار العجيب الممتع أن حسن الخلق وحسن الحوار وحسن المعاملة والملاطفة أقنعت ذلك الأعرابي، لأن شخصية محمد ﷺ الداعية الأول إلى دين الله هي الشخصية الربانية المرموقة المتزنة، وأن ثمامة قد حصل على ضالته المنشودة، وأنه بعد أن كان وجه محمد ودين محمد وبلد محمد أبغض الوجوه والأديان والبلدان أصبحت أحب الأشياء إليه، فسبحان مقلب القلوب، وسبحان من وهب رسوله محمد ﷺ خلقاً وسع بها الناس جميعاً، ولذلك كان بحق وتوفيق من الله هو سيد الخلق ﷺ جميعاً وأحسن الناس خلقاً ألبسه الله أرفع لقب وكساه، وتوجه بأعلى وسام شرف رباني عرفه التاريخ في القديم والحديث، قال الله تعالى مخاطباً سيد ولد آدم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

انظر يا رعاك الله إلى هذه الشهادة تصدر ممن خلق الأرض والسماوات العلا هذه الشهادة العالية الربانية والتكريم العظيم، وهو وسام الخلق الحسن، وهو

---

(١) رواه البخاري (٤٠٢٤) ومسلم (٣٣١٠).

العطاء الحسن غير المحدود الممنوح لرسول الله ﷺ، وما رزق الله الإنسان بعد الإيمان بالله تبارك وتعالى أكرم ولا أجمل من الخلق الحسن، ولذلك كان حسن الخلق من أعلى الصفات وأنبلها، وهبها الله لأكرم الخلق وأشرفهم، وهو أعظم وصف وصفه الله به: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فالخلق الحسن هو سبيل الرشاد ورياضة الموحدين وثمرة المتعبدين ورياض الصالحين وتهذيب لنفوس المتقين، سئلت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن خُلق رسول الله ﷺ قالت: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»[1].

وأورد ابن جرير عن أمي بن ربيعة قال: لما أنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ، قال النبي ﷺ: «**ما هذا يا جبريل؟ قال: إنَّ الله أمرَك أن تعفُوَ عمَّن ظَلَمك، وتُعطيَ من حَرمَك، وتصلَ من قَطَعك**»[2]، فحسن الخلق يجب أن يكون التطويع الكامل للنفس وتذليلها وإخضاعها حتى تتخلق بمكارم الأخلاق النبيلة ظاهرًا وباطنًا، وحتى تصبح ملكة ملازمة للمؤمن، فلا يكفي الإنسان أن يحسن ظاهره بالخلق الحسن وباطنه خراب، والله العظيم جل في علاه هو الذي وصف النبي ﷺ بأنه على خلق عظيم حتى أصبحت فجاج مكة وشعابها تردد ذلك الوصف البديع، وتتجاوب أرجاؤها بذلك الثناء العطر الذي سيبقى كل مبدع بليغ مشدوها باهتاً أمام عظمته وبلاغته لذلك الوصف الرباني؛ لأنه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] والخلق الحسن هو الدواء الشافي لعلل النفوس

(١) رواه مسلم (١٢٣٣) وأحمد (٢٤١٣٩) واللفظ له.

(٢) تفسير ابن جرير (١٥٥٤٨) وهذا الحديث مرسل.

والعلاج الناجع للأسقام المستعصية أو الأمراض العارضة التي تصيب القلوب والأجسام، وحسن الخلق يقرب صاحبه من رسول الله ﷺ يوم القيامة ويحببه إليه، فعن جابر بن عبدالله ؓ أن رسول ﷺ قال: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: «**الْمُتَكَبِّرُونَ**»[١]، والخلق الحسن هو السبيل المستقيم إلى تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس الموصلة إلى الكشف ومعرفة الإنسان بعيوب نفسه وأمراضها وعللها، إن أول ما عرف من صدق نبوة الرسل عليهم الصلاة وأتم التسليم حسن الخلق وكرم السجايا التي تقود أتباع الأنبياء إلى القناعة والتصديق والانقياد بالطاعة.

وعن أبي الدرداء ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ**»[٢]، وعنه ﷺ: «**مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ**»[٣]، وفي حديث أبي هريرة ؓ عنه ﷺ أنه قال: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»[٤]، وروى أبو داود، والترمذي، والنسائي، عنه ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنكم لا تَسعُونَ النَّاسَ بأَموالِكُم، وليسَعُهم منكُم بسطُ الوجه وحسنُ الخلق**»[٥]. ويروى

(١) رواه الترمذي (١٩٤١) بسند حسن.
(٢) رواه الترمذي (١٩٢٦) بسند صحيح.
(٣) رواه أبو داود (٤١٦٦) والترمذي (١٩٢٥) بسند صحيح.
(٤) رواه الترمذي (١٠٨٢) وقال: حديث حسن صحيح.
(٥) رواه أبو يعلى (٦٥٥٠) والحاكم (٣٩١) والبيهقي في الشعب (٧٨٢٦) بسند حسن.

عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول: «**واهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ**»(١).

ومن هنا يجب تطويع النفس وتذليلها للتخلق بمكارم الأخلاق الحسنة ظاهراً وباطناً قولاً وعملاً واعتقادًا فإن الناس قد يتساوون في تحسين المظاهر، والتزين بمكارم الأخلاق فمن تخلق بمكارم الأخلاق بيقين ثابت وإخلاص متمكن، وكانت الصفات الحميدة ملكة راسخة واعتقادًا أصيلاً، فمن كان كذلك فذاك هو الذي أصاب حظه وأجر على ترويض نفسه بمكارم الأخلاق.

قال الفضيل: كفى بالله محباً، وبالقرآن مُؤنساً وبالموت واعظاً، وبخشية الله عِلماً، وبالاغترار به جهلاً(٢).

إن الله طيب لا يقبل من الأعمال والأخلاق إلا أجلها وأطيبها وأزكاها، يذكر عن الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي قال: أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل عمله وعلمه، الحلم، والتواضع، والسخاء، وحسن الخلق(٣)، وهذه الأربع هي من كمال الإيمان، ولا شك أن في سعة الأخلاق كنوز من سبل السعادة والفلاح، لأن من سمات حسن الخلق نور تشرق منه شمس الرحمة المتوهجة التي يضعها الله في سلوك من أراد الله فلاحه.

أما من تكلف واكتفى بتلميع الصورة الظاهرة ولبس قشرة من حسن الخلق الصناعي والخلق الصوري ليتوصل به إلى عرض زائل أو غرض رخيص أو

(١) رواه مسلم (١٢٩٠).

(٢) البيهقي في الشعب (٤٥١) وابن عساكر في تاريخه ٤٨/ ٤١١.

(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ٥٢.

منصب موقت أو خداع متذبذب ماكر، فإن ذلك هو لب معتقد أهل النفاق، الذين هم: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]، نعم إن من شِيَم المنافقين التفنن في الخداع والمراوغة، وانظر إلى قوله جل شأنه في وصفهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢ – ١٤٣] فإذا كان من الناس من يجعل التملُّق سُلماً ليقضي به مأربه، والأماني الكاذبة سبيله ليحصل بها على وطره من حطام الحياة الدنيا لقصد شهرة كاذبة وسمعة ممقوتة فإن تلك الأخلاق هي جل أخلاق المنافقين الذين وصفهم الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

المبحث الثاني: تقويم السلوك

لاشك أن الخلق الحسن الذي نزل به القرآن هو خلق الأنبياء والرسل، والخلق هو الفطرة وهو شعبة من شعب الإيمان، وسجية تختلف من شخص لآخر، وأكمل المؤمنين أحسنهم خلقاً، وخير ما رزق العبد تقوى الله وحسن الخلق.

وقد سبق أن أوردت نبذة فيما يتعلق بحسن الخلق في فصل تهذيب الأخلاق من هذه الرسالة، ورأيت أنه فاتني الكثير مما ورد في القرآن الكريم فيما يدل على العدل والإحسان والوفاء بالعهد وحرمة نقضه والأمر بالصلة للقريب والبعيد، والبر والإحسان إلى الوالدين، والأهل والأقارب، والجار القريب في النسب، والجار من المسلمين، والجار من غير المسلمين، والإحسان إلى الفقراء، والمساكين، وابن السبيل، والسائلين، وفي الرقاب، والإحسان إلى المملوك، وكفالة اليتيم والوفاء بالعقد وحفظ الحقوق ومراقبة الله في البيع والشراء ووفاء الكيل والميزان، ودوام القول الحسن لكل أصناف البشر، والتواضع في الحق، والاعتصام بهدي القرآن، وإصلاح ذات البين، والنصح لكل مؤمن، ويجب ردع الباغي إذا لم يقبل الصلح حتى يفيء إلى أمر الله، إلى غير ذلك، وكل هذه الأمور التي أمر الله بها هي طاعة لله، وتمثل قمة السجايا الكريمة والنماذج الخلقية الرفيعة التي أمر الله بها في القرآن الكريم.

كما نهى القرآن الكريم عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن والمنكر والظلم والبغي وقتل النفس التي حرم الله، وقتل الأولاد خشية الفقر والعار، وأكل مال اليتيم، ونقض العهود والمواثيق، وشهادة الزور، وأكل أموال الناس بالباطل، وقطيعة الرَّحِم، وقبول خبر الفاسق إذا شمل وشاية ضد بريء، وحرم السخرية،

وسوء الظن والتجسس، والغيبة، وأسباب التفرق والاختلاف، ودخول الإنسان فيما لا يعنيه، وشدد على حفظ كل الجوارح من الانزلاق في محظور مثل: القلب والسمع والبصر وغيرها، وهذه المنهيات هي بعكس مكارم الأخلاق فهي تجلب على المجتمع كافة الشرور والكوارث.

وكما قال بعض العارفين: إن العاقل حين يستعرض أمراً من أوامر الله ثم لا يقول العقل بعد تدبره لذلك الأمر ليته ما أمر به، بل يطابق ما يتمناه العقل الواعي المفكر، ويجده منسجماً مع الفطرة السليمة والقول السليم والمصلحة العامة، كذلك لم يستعرض العاقل نهياً نهى الله عباده عنه وحرمه عليهم ثم يجد في قلبه بعد تدبره لذلك النهي ما يدفعه إلى القول: ليته ما نهى عنه، لأن كل النواهي والأوامر لاتصدر إلا من حكيم عليم بما يصلح أحوال العباد في دينهم ودنياهم وأخلاقهم ومعاملاتهم، فهو أعلم بمن خلق.

المبحث الثالث: العدل والإحسان

ومن مزايا الإسلام الرفيعة وسماحته أنه يبني المكارم ويغذيها ويحرم ما يتعارض معها، وأولها تصفية عقيدة التوحيد من رواسب الشرك، ليعيش الإنسان حراً عزيزاً لا يثني صلبه إلا لخالقه الذي أوجده وهو في قبضته، لذلك فقد حرم الله على عباده الشرك به ولو كان أمراً يسيراً، ومن هنا نجد الآيات القرآنية التي تأمر بالبر والإحسان ومكارم الأخلاق تبدأ بالأمر بعبادة الله وحده، وتحرم الشرك بجميع صوره وأشكاله كقوله سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، وبعد هذه الإشارة الموجزة إلى ميزة توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، أعود إلى موضوع العدل والإحسان وما فيه من المزايا الحميدة والمكارم العالية، فالعدل صلاح كل شيء وبتحقيقه يصلح كل شيء، العدل هو الاستقامة يستقيم بفرضه كل موجود وفق منهج الله بدون غلو أو تقصير أو غش أو تزوير للحقائق، والعدل هو القسط وعنوان المساواة وهو يفرض الحب والألفة، وبالعدل تزدهر الحياة وتنمو وتنزل به البركة وتتحقق المساواة، والعدل هو عنوان الصلاح، بخلاف الجور الذي هو فساد كل صالح، والعدل هو الذي أنزله الله ميزاناً بين عباده فمن حاد عنه فقد عارض الله في سلطانه، ومن مكارم الأخلاق في الإسلام ما ورد ذكرها مستفيضاً في كتاب الله الكريم وفي السيرة النبوية الطاهرة، ففي قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] هذه الآية تشير إلى مجموعة

من المكارم والأخلاق السلوكية الاجتماعية والدينية، وهي العدل والإحسان، ومن ذلك السلوك ربط الأمة بنظام يجمع شملها ويوقع بين ربوعها الحب والود والصفاء، وبذل العطاء لذوي القربى وغيرهم، وينظف المجتمع من رواسب الفوضى وهي الفحشاء والمنكر والبغي، ويحرم الفرقة وشتات الأمة والخلاف الذي قد ينجم عنه انهيار المجتمع، وهذا نظام من شأنه أن يبني مجتمعاً متحداً متماسكاً يسوده العدل والإحسان، قولاً وفعلاً وعملاً، إن مجتمع العدل هو المجتمع الراقي مجتمع السعادة الأبدية في دار الدنيا والآخرة.

ثم بعد الأمر بالعدل فرض الإحسان الذي هو أعلى مراتب الإسلام وهي: الإسلام والإيمان والإحسان، وقد فسرها رسول الله ﷺ حين سأله جبريل عن الإحسان فقال: «**أَنْ تَعْبُدَ الله كأَنَّكَ تَراهُ، فإنْ لم تكُنْ تَراهُ فإِنَّهُ يراك**».

وهنا مقابلات بين الأضداد تظهر الموازنة بوضوح، فالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، يقابلها النهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، ففي جانب يكون العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى بكل ما تدل عليه من حسن وجمال وشمولية، وكلها آداب ومبادئ سلوكية وأخلاقية كريمة.

ويقابل المحاسن الثلاث، النهي عن الكبائر الثلاث، وهي: الفحشاء والمنكر والبغي، وهذه المناكر الثلاث من أقبح وأبشع المعاصي التي حرمها الله ونهى عنها لفحشها وبشاعتها الأخلاقية، وكأنها أصول المعاصي بعد الكفر بالله سبحانه، لأن المجتمع الذي تشيع فيه تلك المساوئ إنما هو مجتمع منهار ومتحلل من كل الفضائل.

وقد توجد مبادئ العدل في بلد لا يدين أهله بالإسلام! وقد توجد ركائز الظلم في بلد يدعي أهله الإسلام ويؤدون شعائره قال شيخ الإسلام ابن تيمية

بعد أن أورد: استقامة أمور الناس لا تكون إلا بتحقيق العدل، ثم قال: «**ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام**»[١].

قلت: وهذا ما نشاهده ونسمع به في زمننا هذا فكم من بلد ينتمي إلى الإسلام وهو يأبى حكم الإسلام ويحارب من يطالب بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثم يحاكم من يطالب بتحكيم الشريعة إلى حكم الغاب وقوانين الطواغيت الجلادين، والعكس من ذلك في بلاد أوربا وغيرها، وإذا نظرنا إلى هذا القول نجده صحيحاً في مجتمعاتنا المعاصرة من وجوه:

أحدها: حين ننظر إلى الأوضاع السائدة في بعض بلاد المسلمين التي تتسم بالتسلط والظلم والتعسف وإهدار الكرامة، فتجد هذه الأوضاع يصحبها الاضطراب والقلاقل وعدم الاستقرار، لأن قوة الضغط قد تولد قوة الانفجار مساوية لها في الحجم معاكسة في الاتجاه، في حين نسمع ببلاد الغرب أن الوضع السائد في أغلب تلك البلدان هو النظام، والأوضاع تتم بهدوء وكل يعرف ما له وما عليه، فلا يكاد يحدث هناك مثلما يحدث في بعض بلاد المسلمين، فالأمن هناك مستتب والأوضاع مستقرة والحريات متوفرة ولا سيادة لأحد على أحد إلا بالقانون.

ومن أهم مزايا الإسلام عقيدة التوحيد، التي تربط الإنسان بخالقه ومولاه متصلة برباط الفرد بأهله وعشيرته ومجتمعه، تجسدها الآيات التالية قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

(١) الاستقامة ٢/ ٢٤٧.

وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١ – ١٥٣] قال ابن مسعود ﷺ: من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فلينظر إلى هذه الآيات من سورة الأنعام: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [الأنعام: ١٥١][1].

تعالوا إلى ما يصلح الدنيا والدين إلى الوصايا النازلة من الرحمن الرحيم، حيث أوصى المولى الكريم إلى ما حرمه وما أوجبه على عباده فقال: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ فما هو الحرام الذي حرمته علينا يا رب؟ ﴿ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ وما هو نوع الشرك يا إلهي؟ ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ١٨٨.

المبحث الرابع: الظلم نقيض العدل

من عدل الله الكريم الرحيم، أن حرم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرماً لبشاعته ومغايرته لعدل الله تعالى، والظلم مشتق من الظلمة وجمعها الظلمات، والظلم تجاوز على عدل الله وقسطه، وصرف الحقوق إلى غير أهلها، وقد ورد في صحيح مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنْ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا**»[1] الحديث.

وحقيقة الظلم هو: الجور والتجاوز والخروج والعصيان والتمرد على الله، ووضع الشيء في غير موضعه، وهو غريزة شر، وسطو على حقوق الغير وأعراضهم والتعالي على كرامتهم والخروج عن الحق الذي فرضه الله، وعكس العدل والاعتدال، وقد توعد الله من اتصف بالظلم أن خاتمته أسوأ خاتمة، حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٢ – ٤٦].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

ومن الظلم ظلم الأمم المكذبة ببعثة الرسل كما ورد في كتاب الله، حين أورد قصة قوم نوح، وقوم عاد، وثمود، وقوم لوط،، وقوم شعيب ومن بعدهم، أتبع خبرهم بقوله: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٩ – ٤٠]، ومن الظلم ما يصدر من بعض الولاة الظلمة في ظلم شعوبهم ومن استرعاهم الله أمره، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] ، عَنْ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الله بْنَ عَمْرٍو يُحَدِّثُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ**»(٢).

ومنه ظلم الأقوياء على الضعفاء، والرجال على النساء والتطاول عليهم بأكل أموالهم والتعدي على أعراضهم وحرماتهم، وقال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) أخرجه أحمد (٥٠٧٩) والدارمي (٢٥١٦) والبيهقي (٢٠٩٢٨) وصححه ابن حبان (٥١٧٦) والحاكم (٢٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٨).

بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٤١ – ٤٢] ، وقال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وفي يوم القيامة يحاول الظالم الخلاص من عذاب الله، ولكن أين المفر؟ قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧] .

ومهما انتحلوا من المبررات وشحذوا من الأعذار فإنها لا تُجديهم شيئاً، لأن الندم والاستدراك كان بعد فوات الأوان كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الروم: ٥٧] ، وقوله: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [غافر: ٥٢] ، والظلم سبب من أسباب هلاك الأمم قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩] وقال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣١] وعن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لَيُملي للظَّالم، حتىٰ إذا أخذه لم يُفلِته» ثم قرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢][1].

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري (٤٤٠٩).

المبحث الخامس: الإحسان إلى الوالدين

ثم ماذا يا رب بعد أن أمرتنا بالإحسان وحذرتنا من أكبر الكبائر؟ وكأنه يدل عباده على أمر في منتهى الرحمة والعدل والإنصاف والكرم النبيل ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الإسراء: ٢٣] البر ضد العقوق، ويقال لمن بَرَّ والديه البار، والجمع بررة، وفي الحديث: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ»(١).

فالإحسان إلى الوالدين والبر والرحمة بهما تمتد مدى حياتهما وإن طالت بأحدهما أوكلاهما الحياة، ويبقى البر بعد موتهما بالدعاء لهما والترحم عليهما، فلا تظهر لهما في الحياة إلا كل ما يشعرهما بالسعادة والسرور، وفاء بحقهما وعملاً بقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ – ٢٤] ، وإذا كان الجزاء من الولد لوالديه، هو رد قرض سبق من الوالدين للولد في زمن الحمل والولادة والتربية، فإنه كان يصحبه من الوالدين للولد الحب والرحمة والشفقة عليه فيكون ذلك ليس بمكافأة لهما لأن تربيتهما للولد كانت بكامل الحب والرغبة والود ويتمنيان له طول العمر والسعادة الأبدية، أما الولد فإنه قد يعمل في خدمة والديه ويبرهما بشيء من التذمر والتأفف وهو قد يتمنى فراقهما!!

ومن رحمة الله ولطفه أن تكررت الوصية بالإحسان إلى الوالدين في آيات

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٥٣) ومسلم (٧٩٨) واللفظ له.

متعددة كما قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٨]، وقد ورد في حَديث مُصعب بن سعد عن أَبِيهِ أَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ مِنْ الْقُرْآنِ قَالَ: حَلَفَتْ أُمُّ سَعْدٍ أَنْ لا تُكَلِّمَهُ أَبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ وَلا تَأْكُلَ وَلا تَشْرَبَ قَالَتْ: زَعَمْتَ أَنَّ الله وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ وَأَنَا أُمُّكَ وَأَنَا آمُرُكَ بِهَذَا قَالَ: مَكَثَتْ ثَلاثًا حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهَا مِنْ الْجَهْدِ فَقَامَ ابْنٌ لَهَا يُقَالُ لَهُ عُمَارَةُ فَسَقَاهَا فَجَعَلَتْ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾[العنكبوت: ٨]﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى ﴾[لقمان: ١٥] وفيها: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾[لقمان: ١٥][1].

وقال سبحانه: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾[لقمان: ١٤] وفي قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[الأحقاف: ١٥] ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: «يَا رَسُولَ الله مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ؟ قَالَ: أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أَبُوكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ، أَدْنَاكَ»[2].

---

(١) رواه مسلم (١٧٤٨).

(٢) رواه مسلم (٢٥٤٨).

وعَنْ عَبْدَالله بن عَمْرِو بنِ الْعَاصِ قَالَ: أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ الله ﷺ فَقَالَ: أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ أَبْتَغِي الأَجْرَ مِنْ الله قَالَ: «**فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ**»؟ قَالَ: نَعَمْ بَلْ كِلاهُمَا. قَالَ: «**فَتَبْتَغِي الأَجْرَ مِنْ الله**»؟: قَالَ نَعَمْ، قَالَ: «**فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا**»[1].

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَجُلاً مِنْ الأَعْرَابِ لَقِيَهُ بِطَرِيقِ مَكَّةَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ عَبْدُ الله وَحَمَلَهُ عَلَى حِمَارٍ كَانَ يَرْكَبُهُ وَأَعْطَاهُ عِمَامَةً كَانَتْ عَلَى رَأْسِهِ، فَقَالَ ابْنُ دِينَارٍ: فَقُلْنَا لَهُ أَصْلَحَكَ الله: إِنَّهُمْ الأَعْرَابُ وَإِنَّهُمْ يَرْضَوْنَ بِالْيَسِيرِ، فَقَالَ عَبْدُ الله: إِنَّ أَبَا هَذَا كَانَ وُدًّا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ صِلَةُ الْوَلَدِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ**»[2].

(١) رواه مسلم (٢٥٤٩).

(٢) رواه مسلم (٢٥٥٢).

المبحث السادس: تحريم قتل الأولاد

وبعد تلك المكرمة العظيمة التي منحها المولى العظيم إلى الوالدين، أضاف مكرمة تظلل المجتمع بثوب الأمن والأمان، حيث قضى على رواسب الجاهلية وحرم قتل الأولاد والبنات، لأنهم كانوا في الجاهلية يقتلونهم خشية الإنفاق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١] يقتلون الإناث خوف المسبة والعار، وهذا ناتج عن فساد الاعتقاد في حكمة من خلقهم ورزقهم وهم في بطون أمهاتهم وتجري أرزاقهم وهم في أطوار خلقهم طوراً من بعد طور، فقد كان أحدهم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم نفخ فيه الروح ثم غذاه وحفظه وهو على تلك الحالة، ثم أخرجه من بطن أمه طفلاً لا مال له ولا ثروة، وحين نزوله إلى الأرض نزل رزقه مع نزوله في ثديي أمه حين كانا لحمة جافة، بقدرة من قال: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠] ، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وكان المشركون يرون من أكبر العار وتدنيس العرض أن تلد زوجة أحدهم أنثى كما ذكر الله حالهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨ – ٥٩]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ

مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٥ – ١٨].

فالحمد لله الذي أبطل بعدله ولطفه وإحسانه تلك العادة البشعة، وهو الذي أرزاق العباد بيده سبحانه تعالى.

المبحث السابع: الوفاء بالعهد

وأعاد بالإسلام تلك العقول المسلوبة إلى رشدها وبعث الثقة بالله تعالى ورسخ يقين الإنسان المسلم بخالقه ومولاه، والوفاء بالعهد شعار الصالحين وميزة الموحدين ونقض العهود والمواثيق عكس ذلك وهي شعار المنافقين قال جل شأنه: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١] وهو سمة إيمانية وأمانة وأمان يثبت دعائم الثقة بين أفراد المجتمع المسلم حيث امتدح الله من يفي بالعهد قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ [الرعد: ٢٠]، ويشمل الوفاء بالبيعة للرسول ﷺ، وبالبيعة لولي أمر المسلمين على كتاب الله سبحانه وسنة نبيه، ونهى عن نقض الأيمان فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ ﴾ وتوعد من نقض العهد بالخسران واللعنة والطرد من رحمة الله قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧]، وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٥] ، واحترام العقود الشرعية والوفاء بعهد الله وكل ما يدور في هذا الخصوص، طاعة لله وهو مكرمة من مكارم الأخلاق، وعكس الوفاء، نقض العهد أو نكثه خيانة لله قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠] وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ

حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤] ، في هذه الآيات دلالة واضحة على وجوب الوفاء بالعهد وتحريم نكثه لأن نكث العهد خيانة وفجور كما أسلفت، وذلك النكث يكون تجاوزاً على كفالة الله كما قال: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[النحل: ٩١] وفي نفس الوقت خداع ومراوغة وهو من شيم المنافقين المتلونين كما ذكر الله حالهم بقول الله: ﴿ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ٩].

ومن هذا القبيل، تحريم أكل مال اليتيم والقرب منه إلا بالحسنى ولقصد ما يصلحه، لقوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ وهذه ميزة من مزايا الإسلام أنه حرم أكل مال اليتيم إلا بالحق ومن استحل أكل مال اليتيم بغير حق فإنه يأكله ناراً يوم القيامة، ويكون مأواه سعير جهنم الحامية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[النساء: ١٠] فما أعدل حكم الله وأرحمه.

المبحث الثامن: تكافل المجتمع المسلم وحماية الحقوق

من أهم أصول التكافل الاجتماعي في الإسلام فرض الزكاة بقدر معلوم من النقد والحبوب وأصناف الماشية ومن عروض التجارة، فتتؤخذ من الأغنياء وترد إلى الفقراء حيث فرضها المولى الحكيم وجعلها حقاً معلوماً، بلا منة من أحد على أحد قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤] ، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [المعارج: ٢٤ – ٢٥] ، وقال في التطوع غير الزكاة: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٩]، وفي الحديث المتفق عليه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الله قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الله قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الله حِجَابٌ» هذا لفظ البخاري[(١)].

ومنها الوسطية هي حسنة بين سيئتين، مع أسباب الألفة بين أفراد المجتمع، يصورها القرآن في قول الله جل شأنه: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٦ – ٢٧] وقوله: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا

(١) رواه البخاري (١٤٢٥) ومسلم (١٩).

كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩] وقوله: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٥ – ٣٦] هنا يبرز القرآن ميزات عديدة لاتوجد في أي نظام غير كلام الله ونظامه، فهو يأمر اتباعه بالتواضع وحسن الخلق والإنفاق على ذوي القربى والمساكين وابن السبيل وينهاهم عن التبذير ومخالفة الشيطان ـ كما نهاهم عن الشح، وعن الإفراط في النفقة، كما شدد في التحذير من الكبر والبطر والخيلاء لأنها أخلاق شيطانية، لا تدل إلا على وضاعة ونقص من تخلق بها قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧].

ثم ختم المولى تلك الوصايا باتباع الصراط المستقيم، دون اعوجاج أو عدول عنه إلى السبل المتفرقة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وبعد أن أمرهم بسلوك الصراط المستقيم، وهو الاعتصام بحبل الله، حذرهم من التفرق والاختلاف، لأن التفرق والاختلاف أصل من أصول التنازع والفشل، والاعتصام بحبل الله أصل من أصول القوة والألفة والحب في الله، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ

ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] فكم في هذه الأوامر والنواهي من مصالح وضمانات للعزة، والكرامة، والمهابة، في داري الدنيا والآخرة لمن تمسك بها.

ومما يجسد تكافل المجتمع الإسلامي ويقوي تلاحمه ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢ – ١٠٣]، وما ورد عن النبي ﷺ، فعن سالم أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ الله فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

وقال الزُّهْرِيُّ: حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لا تَبَاغَضُوا وَلا تَحَاسَدُوا وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا، وَلا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ**»(٢)، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلا تَحَسَّسُوا وَلا تَجَسَّسُوا وَلا تَنَاجَشُوا وَلا تَحَاسَدُوا وَلا تَبَاغَضُوا وَلا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا**»(٣).

(١) أخرجه البخاري (٢٣١٠) ومسلم (٢٥٨٠).
(٢) أخرجه البخاري (٥٧١٨) ومسلم (٢٥٥٩).
(٣) أخرجه البخاري (٥٧١٧) ومسلم (٢٥٦٣).

وعَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أيضاً قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ الله عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالله فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ الله لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»(٢).

الله أكبر ما أعظم تعاليم هذا الدين الحنيف الذي كله عدل وكله رحمة وشفقة ووقار وسماحة، ففي هذه الأحاديث الثلاثة جميع مكارم الأخلاق، وسد لجميع منافذ الشيطان، فلو أن المسلمين تمسكوا بتعاليمه السامية لسادوا العالم، كما ساده سلف الأمة في صدر الإسلام، كيف لا وهو يدعو للم الشمل ونبذ الفرقة والقطيعة والبعد عن الحسد وما يسبب غيظ المسلم من أخيه: «**فالْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ**» ولا يتسبب في ظلمه وخذلانه وحسده ومضايقته، بل يجب أن يجله ويحترمه ويتمنى له الخير، كما حرم على المسلم قطيعة المسلم وهجره، وعلى المسلم أن يحرص على قضاء حاجة أخيه المسلم، وتفريج كربته، وستره إن حدثت منه هفوة، فالكمال لله، «**وَالله فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**».

---

(١) أخرجه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥).

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩).

المبحث التاسع: المجتمع النظيف

ومن عظمة من أنزل القرآن وجعله نظام حياة الصالحين من عباده أن سد سبل الفساد الخلقي وحرم الغيبة والنميمة وحذر من أكل لحوم البشر ورمي الأبرياء بما ليس فيهم ليطهر المجتمع المؤمن من النقائص، قال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].. ومن هدي القرآن الكريم أنه رسم الخطط لتوضيح المعالم بجلاء، لحماية المجتمع المسلم من الأحقاد وغل الصدور، وحذر من قبول التهم التي يشيعها ويروجها من أبطن الغدر، لأن أخبار الفساق مظنة الكذب، وهذه الآية مع ما يطابق معناها من الآيات تبني صرحا منيعا يحمي بنيان المجتمع من التصدع والانهيار، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، فحين يحدث نزغ من الشيطان بين طوائف المسلمين، وجب على المسلمين التدخل بينهم بالصلح العادل دون حيف ولا محاباة لحساب طائفة على أخرى، فإن بغت طائفة وأبت إلا أن تظلم الطائفة الأخرى ونكلت عن الرجوع إلى العدل، عندها وجب على بقية المسلمين قتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله سبحانه، والسبب: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]. والموجب لذلك أن المؤمنين إخوة، وأُخُوَّة الإسلام بنيت على الإيمان بالله والحب في الله مع إزالة ما يكون سبباً للفرقة والشتاتِ ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ ولذلك ورد في الصحيحين من حديث النعمان بن بشير قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله

ﷺ يقول: «**الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلا إِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[1].

وفي رواية: «**تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[2] هذا لفظ البخاري.

وإلى مكرمة من مكارم المولى على عباده فكما نهى عن تلقي خبر الفاسق، حرم السخرية بعباد الله لأنها من أقبح المساوئ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]. السخرية رذيلة ولا يتخلق بها الرجل الشهم، والرب الكريم أنزل كتابه العزيز ليطهر به المجتمع المسلم وينقيه من درن الرذائل، فجعل القرآن العظيم دستوراً ينظم حياة المجتمع الفاضل، حتى يعيش على مكارم الأخلاق والآداب الرفيعة، والقرآن يحفظ لكل فرد في المجتمع الإسلامي كرامته لئلا يتطاول عليها أمراض القلوب، لتبقى جماعة المسلمين في مأمن وبعيدة عن أسباب النقائص، أمة تبني حياتها على الود والطهر وحفظ الكرامة، ولما كانت السخرية من شيم الأنذال وسفلة المجتمع نهى عنها القرآن

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٦٥).

الكريم وحرمها قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة: ٢١٢] ، كما أن السخرية لا تصدر عادة إلا ممن غمر قلوبهم النفاق وأعماهم البطر وتلحفوا برداء الكبر الوضيع.

قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧٩] ، وقال جل شأنه: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠]، وحقيقة السخرية هي الانحطاط الخلقي الكامل، انظر كيف يعرض القرآن حال من مسخت عقولهم وكتبت في علم الله شقاوتهم من أعداء الرسل كيف سخر قوم نوح من نوح؟ فقضى الله بهلاكهم بعد أن سدوا مسامعهم عن دعوة نبيهم، وقَفَلَتْ قلوبهم عن قبول هداية الله، حين جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا على الكفر، أمر الله نبيه نوحاً أن يصنع الفلك، ثم قالوا في سخرية: كيف تحول الرسول من داعية إلى الله إلى ممارسة مهنة النجارة؟ يقولون ذلك في فكاهة وسخرية، و هم لا يعلمون عما ينتظرهم قال تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود: ٣٨ – ٣٩]، ولذلك ورد عن عبد الله بن مسعود ﷺ، أنه قال: «لو سَخرتُ من كلبٍ لخشيتُ أن أُحوَّل كَلباً»(١)،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٥٥٤٦).

وإذا كانت السخرية رذيلة قبيحة فقد نهى عنها القرآن وحرمها لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، والنهي عن القبائح مكرمة من الله سبحانه وتعالى لعباده.

ومنها: مسألة الظنون والتهم التي لا ترتكز على دليل واضح، وكذلك التجسس والغيبة والنميمة، وهي خواطر شيطانية تدفعها شهوة الانتقام والتشفي لدى مرضى القلوب وأنذال المجتمع، فقد نهى الله عن الظنون المغرضة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] ، ما أعظمك يا رب وأكرمك حين ترشد عبادك إلى معالي الأمور ومكارم الأخلاق، وإلى ما ينظم لهم حياتهم وما يربط بعضهم ببعض على الود والحب والطهر والنقاء انظر إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ كيف كانت رحمة الله بعباده، وهذا القرآن الذي هو كلامه جعل أعراض المسلمين محرمة وجعل لها حصانة، وحدوداً لا يتجاوزها إلا من تعدى حدود الله، ونحن نسمع القرآن يذب عن حرمات الناس ويحفظ لهم كراماتهم ويحمي أعراضهم حتى يعيش الإنسان المسلم حراً آمناً محترماً، بعيداً عن هواجس الشهوات ونوازع الشر وخطرات الإثم.

ويلي ظن الإثم جريمة التجسس فالتجسس جريمة أخلاقية تكشف العورات وتدل على أسرار الناس وحرما تهم، ولما كان التجسس من الصفات الكريهة وهي تفضح سر من يحرص على كشف ستر المسلم وتتنافى مع مكارم الأخلاق، لذلك حرمها الإسلام صيانة للأعراض وهي جريمة أخلاقية.

روى الترمذي عن ابن عمر قال: «**صَعِدَ رَسُولُ الله ﷺ الْمِنْبَرَ فَنَادَى بِصَوتٍ**

رَفِيع قالَ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لاَ تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلاَ تُعَيِّرُوهُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعُ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ يَتَّبِعُ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ». حديث حسن، ومن تغليظ حرمة المسلم قال: عبدالله بن عمر يوماً وهو جالس أمام بيت الله الحرام وهو ينظر إلى الكعبة المشرفة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك[(١)].

هذه هي أخلاق الإسلام، وتلك هي معتقدات المسلمين، ويا له من دين لو كانت له أمة تتمسك بهديه وتتخلق بأخلاقه وتنتهي عن محارمه وتقف عند حدوده، ويا له من دين لو كان له علماء ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين! بل وياله من دين لو كانت له دولة تبني قوته وتحكم شرعه في كل دقيقة وجليلة على البعيد والقريب، على منهاج الخلفاء الراشدين دون فوارق، دولة تؤمن به وتدعو إليه وتهيئ له الأسباب التي يستعيد بها مجده الضائع.

(١) رواه الترمذي (٢٠٣٢) والبغوي في تفسيره ٤/ ٢١٦ وصححه ابن حبان (٥٧٦٣).

المبحث العاشر: الأسوة الحسنة

مصادر الأسوة الحسنة، تقتبس من وحي القرآن الكريم الذي هو كلام الملك المنان عالم الغيب والشهادة، المحفوظ بحفظ الله قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] القرآن الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] وتقتبس الأسوة الحسنة من هدي خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فهو إمامنا وقدوتنا، وعنه تؤخذ الأسوة الحسنة ومع كونه خاتم الأنبياء وإما مهم فإنه ﷺ كان يأتم بأبي الأنبياء وإمامهم إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا وسائر المرسلين أفضل الصلاة وأزكى التسليم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الممتحنة: ٤ – ٦].

ولذلك ورد في دعاء طرفي النهار قوله: «**أَصْبَحْنا على فِطْرَةِ الإسْلامِ، وَعَلَى كَلِمَةِ الإخْلاصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِينا محمدٍ ﷺ، وَعَلَى مِلَّةِ أبينا إبراهِيمَ حَنِيفاً مُسْلِماً وما كانَ مِنَ المُشْرِكِينَ**»[1] وكذلك في الأسوة بإبراهيم قال تعالى: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٥] ومما يصور معنى الأسوة

---

(١) أخرجه النسائي (٩٨٣١) وأحمد (١٥٣٩٧) بسند صحيح.

الحسنة ويجسدها ما قصه الله علينا في سورة الأنعام في قصص موكب الأنبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، وهم: [إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ومن قبلهم نوح، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط] قال سبحانه بعد أن قص خبرهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[الأنعام: ٩٠] وأمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ الأسوة ممن سبقه من أولي العزم من الرسل وأن يتأسى بهم ويهتدي بهد يهم ويستن بسنتهم قال جل شأنه: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ، ومن دعاء أهل الإيمان طلبهم من الله أن يجعلهم أئمة صالحين لمن بعدهم قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤] فكتاب الله هو مصدر الهداية، والأنبياء هم أئمة، أتباعهم العلماء وطلبة، العلم والدعاة إلى الله هم أئمة الناس، ومنهم تؤخذ القدوة الحسنة، وهم قدوة الناس يدعونهم إلى دين أنز له الله ووضع معالمه صاحب الرسالة العظمى ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.

فنحن نهتدي ونقتدي به، اتباعاً لا ابتداعًا، فأناس خلقوا على طرق شتى منهم المتبع ومنهم المبتدع، فديننا دين اتباع وهو حرب على الابتداع، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[الأعراف: ١٥٨]، وقال عن

خيرة خلق الله بعد الأنبياء: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠] ، وقال سبحانه: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

والله جل شأنه يقول: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، إن اليقين الراسخ هو العامل الأساس والقائد إلى مبادئ الحق والعدل، والتأسي بنهج الصالحين في ميادين الاختبار ومواقف الامتحان، مثل ذلك كمثل نهج السلف الصالح من صحابة رسول الله ﷺ في يوم الأحزاب، وما نقل من صفة صبرهم وثباتهم حين أحدق بهم الخطر، وحفتهم الأهوال وعمهم الكرب وتوالت عليهم الأحداث العظام، وغشيهم الأعداء وأحاطوا بهم من كل اتجاه من فوقهم ومن أسفل منهم، وزلزلهم الرعب والخوف، إن هذا هو البلاء الذي ما بعده بلاء، وانظر يا رعاك الله إلى تصوير الحادثة في كتاب الله جل جلاله حيث قال: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

ومع ذلك الخوف والرعب والزلزال فقد ثبتوا واحتسبوا لأن القائد والإمام بقي ثابت الجنان مطمئن القلب، ومنه بعد هداية الله لهم أخذوا القدوة الحسنة،

وقد أعلن الله ذلك المبدأ وذكره في كتابه حين يرسم لنا ثبات النبي ﷺ وأخذ القدوة الحسنة منه، قال جل شأنه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢١ – ٢٢] إن المواهب الربانية التي منحها الله لمن اختار لهم الفلاح وشرح صدورهم للإسلام، ووهبهم نوراً يمشون به في الناس وعلى ضوئه يهتدون، هي للمتمسكين بهدي رسول الله ﷺ، وسوف يسألنا الله عن متابعته والتمسك بهديه قال ﷺ: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي»[1] من حديث المناسك عن جابر ﷺ وقد ترك فينا رسول الله كتاب الله الذي حفظه الله قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] وقال جل شأنه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١ – ٤٢]، إذن فمن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تكتسب القدوة الحسنة التي هي معيار النجاح وعنوان الصلاح.

وأخذ الأسوة الحسنة عن نبينا ﷺ، ومنها التواضع قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، وفي الحديث الذي رواه مسلم ومالك وأصحاب السنن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨).

الله ﷺ قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ الله عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلا عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلا رَفَعَهُ الله»(١) والتواضع ضده الكبر والكبر صفة من صفات الله تعالى لا ينازعه فيها إلا من خرج عن طاعته قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦ - ٣٧]، والتواضع هو الخشوع، والإنابة، وعدم الغرور، والكبرياء، والترفع على عباد الله، وهو الاستسلام لقبول الحق، والرضاء به، وفي وصية لقمان لابنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

عن مُطَرِّفِ بنِ عَبْدِ الله بْنِ الشِّخِّيرِ، عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «أَلا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، وَإِنَّ الله أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»(٢).

وتمام الحديث، عَنْ عِيَاض، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «أَلا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ الله نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ وَإِنَّ الله أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥).

قُرَيْشًا فَقُلْتُ: رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً قَالَ اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ قَالَ وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى، وَمُسْلِمٍ وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ، قَالَ: وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ الضَّعِيفُ الَّذِي لا زَبْرَ لَهُ[١] الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لا يَبْتَغُونَ أَهْلا وَلا مَالا، وَالْخَائِنُ الَّذِي لا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلا خَانَهُ وَرَجُلٌ لا يُصْبِحُ وَلا يُمْسِي إِلا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ، وَذَكَرَ الْبُخْلَ أَوْ الْكَذِبَ»[٢] الحديث.

(١) الزبر العقل، لا زبر له أي: لا عقل له، تبعاً، الذي يردد ما يقوله الناس ولا رأي له.

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة (٢٨٦٥).

الفصل الثالث

آيات الله في مخلوقاته

(١) المبحث الأول: آيات الله دليل على عظمة ذاته.

(٢) المبحث الثاني: آيات الله في تنظيم الكون.

(٣) المبحث الثالث: والسماوات مطويات بيمينه.

(٤) المبحث الرابع: آيته في دوران الشمس والقمر.

(٥) المبحث الخامس: آية الله في خلق الأرض والأنهار والبحار.

(٦) المبحث السادس: الفلك.

(٧) المبحث السابع: آيات الله في تعاقب الليل على النهار.

(٨) المبحث الثامن: الماء والحياة.

(٩) المبحث التاسع: آيات الله في الرياح وبعث السحاب.

المبحث الأول: آيات الله، دليل على عظمة ذاته

إن آيات الله الباهرة ونوره المتألق الساطع الذي هو نوره وكل نور في السماوات والأرض ما هو إلا مقتبس من نوره جل جلاله، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]. آيات الله وعظمة ذاته سبحانه وتعالى تظهر بائنة، و مصورة في جميع ما خلقه الله، وحواه هذا الوجود، وكل ما نشاهده ما هو إلا دليل قاطع على عظمة الله الواحد القهار، وتلك الآيات هي التي لا سبيل إلى إنكارها أو التشكيك في عظمة خالقها، أو دعوى أن غير الله خلق جزءًا من الكون، أو حتى مثقال ذرة منه ما هو إلا من باب الخواء الروحي وهبوط بل وسلب للعقول، قال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ

بِأَمْرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [الروم: ١٧-٢٦]. ففي هذه الآيات العشر من سورة الروم تبدأ بعد تسبيح الله ـ جل شأنه ـ وحمده في كل زمان ومكان، في كل وقت وحين، وأن من خصائصه التي لا يشاركه فيها أحد، مسألة الإحياء والممات؛ فهو يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، وينزل الغيث من السماء لحياة الأرض وكل ما فيها، وهو الذي يبعث من في القبور، ثم نبه أولي الألباب إلى عظمة آياته في كل شيء؛ لأن آياته تدل على عظمة ذاته، ومن آياته خلق كل بني الإنسان، وتفرقهم في كل أقطار الأرض، وأمنهم وتلبية مطالبهم بكل ما يشتهون، ومن أجملها أن جعل للإنسان زوجًا من نفسه، وكسى تلك العِشرة بجميل المودة والرحمة والعطف والشفقة بين الزوجين، وحبّب كل واحد منهما إلى صاحبه، وأنزل القرآن بلسان عربي يختلف عن اللسان الأعجمي.

ومن الآيات العظام خلق السماوات والأرض وما بث في الأرض من جميع أصناف الخلق، وميز كل مخلوق بلون يختلف عن لون الآخر، ومن آياته ورأفته بعباده أن يسّر لهم تعاقب الليل والنهار؛ ليأخذ الإنسان حظه من الراحة في الليل، ويمشي في شعاب الدنيا لتحصيل قوته بالنهار، ومن آياته وتمام نعمته إرسال بشائر السحاب والبرق والرعد؛ لأنها مقدمة لهطول الأمطار وبشائر الرحمة، ومن آياته العظيمة قيام السماوات والأرض، ودعوة الناس في المحشر للخروج من الأجداث إلى الحساب، ثم يصدر بعد ذلك فريق في الجنة وفريق في السعير، حين ينتصب ميزان العدل بالقسط بيد الحكم العادل، وقتها تزول الفوارق وينزع الله من كل صاحب سلطة سلطانه، ثم يقدمه إلى الحساب.

وهذه من أبرز آيات الله، ومن أنكر شيئًا من آياته فقد سلب الله منه عقله وتفكيره، وكتبت عليه الشقاوة، نعوذ بالله من ذلك، وإذا كان المشركون الذين بعث فيهم النبي ﷺ يقرون ويعترفون بأن تلك الآيات ما خلقها إلا الله وحده دون سواه، ولكن لم يوحدوه ولم ينزّهوه عن الشريك، لذلك لم يُفِدْهُم علمهم بذلك الفهم، ولم يدخلهم في الإسلام.

وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يحمده على ما وهب من النعم، وأنه هو الذي خلق ورزق العباد ـ بحوله وقوته ـ وليس لأحد فضل سواه، ومعجزة خلق السماوات والأرض فيها إفحام لمفاهيم أهل الشرك والوثنية ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس: ٣٤]. أمر الله رسوله ﷺ أن يناقش المشركين ليبطل معتقدهم الفاسد، ويصحح مفاهيمهم لفهم مبدأ العقيدة الصافية، فقال ـ جل شأنه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٤ – ٦].

وهذا والله هو الإعجاز، وهو التحدي المُلجِم المُسكِت المُكمِّم لأفواه المشركين، الذين عبدوا مع الله غيره، وَدَعَوْا في الشدائد سواه، أين الشركاء، أين مَن صَنَع مثقال ذرة، أو ما هو أقل مِن مثقال الذرة؟ وأين الجزءُ الذي خلقوه من السماوات، أو الأرض، أو من بقية مخلوقات الله؟ ما هو دليلهم وأياتهم التي تضاهي آيات الله ؟ إن بُعد المسافة بين السماوات والأرض، وارتفاعها، وإبداعها، وصفاءها، وزينتها بالكواكب المضيئة والنيرة والزاهرة، ومدار كل نجم في فلكه، وخلق الأرض،

وفرشها، وشكل جبالها، وسهولها، وأوديتها، وشعابها، وقفارها، وما أنبت من الثمار، وبثّ فيها من جميع أنواع الدواب، وما يتخللها من محيطات، وبحار، وأنهار، وعيون ـ كل ذلك دليل على قدرة الله، ورحمته بعباده وبرهان قدرته وآياته، وأما الماء النازل من السماء فلا يستطيع أي مخلوق أن يزعم أن هناك غير الله يمكنه أن ينزل منه قطرة واحدة، فالذي فطر السماوات والأرض هو وحده الذي ينزل الغيث، وينبت به الزرع، وينشئ الحدائق ذات البهجة والنضارة والجمال، وجميع أصناف النبات والمخلوقات، وكل ما فيها هو من آيات الله وصنع الله وحده، لا شريك له، وبيده وحده حياتها وموتها: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النمل: ٦٠] ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

تعالى الله لا شريك له، ولا ند، ولا إله غيره، فهو الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض؛ من المزروعات، والنباتات، والبساتين، والأشجار، ومن الجن، والإنس، والحيوانات، بجميع أنواعها وأشكالها، والدواب بجميع أصنافها وألوانها، في البر والبحر، والطيور بكل مسمياتها، وألوانها، كل ذلك من آيات الله وقوته وقدرته وحده، لا شريك له، ولا ند، وقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ تعالى الله عن الشريك والند والمثيل، لا إله غير الله، أو معه ـ تعالى عن ذلك عُلوًّا كبيرًا ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فهو المنزه عن الند والشريك، والصاحبة والولد، إنّ كل مَن سوى الله عاجز أن يصنع مثل بيت العنكبوت الرفيع الواهي؛ قال ـ سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]. ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢].

المبحث الثاني: آيات الله في الكون

آيات الله تتمثل في إيجاد المعدوم سواء كان من الجماد أو من ذوات الأرواح، ومن أبرزها ما نشاهده في هذا الكون الفسيح فنمعن النظر إلى السماء التي نراها محيطة بكل هذا الكون وما أبدع الله فيها من عجائب قدرته،قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧] ، وقال سبحانه: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وأخص من آيات الله تلك الأجرام الضخمة من سماء وشمس وقمر وغيرها، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٥]. وقال سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٢٩]، وقال في دوران الشمس والقمر: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٣] ، وقال جل شأنه: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٨ – ٤٠].

من آياته الباهرة في النجوم والأفلاك والأبراج، وآيات لا حصر لها ففي

النجوم إشارة إلى الحكمة مِنْ خَلْقِها قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

ومن الآيات المخالفة لما اعتاده الناس وما يعرف بخوارق العادات، وهو ما يجريها الله على يد بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، مثل: معجزة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام حين ألقاه قومه في النار، قال تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨ – ٧٠]، وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

وآية عصا موسى قال تعالى: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ۝٢١ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾ [طه: ١٧ – ٢٣]، وقوله: ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ۝٣١ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ

فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [القصص: ٣١ – ٣٢]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠١].

ومن آيات الله، ناقة صالح قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٧٣]، ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٤ – ٦٥].

ومن الآيات التي أجراها لعيسى عليه السلام حين أجرى الله على يديه أنه يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه الروح فيكون طيراً بإذن الله، ويحيي الموتى بإذن الله، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٩].

ومن الآيات: أن الله أسرى بنبيه ورسوله محمد ﷺ من مكة إلى الأقصى، ثم عرج به إلى السماوات السبع، ثم أعاده إلى مكة في ليلة واحد قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٢-١٨].

ومن آيات الله: قصة أصحاب الكهف وما ورد فيها من الآيات والعبر قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٦ – ١٧].

ومن أعظم آيات الله الباهرة: نزول الغيث من السماء إلى الأرض فتصبح الأرض مخضرة، وتخرج الأرض خيراتها من كل ما لذ وطاب قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وهذه الآيات التي أوردتها هنا في هذا الفصل ما هي إلا إشارة إلى آيات الله

المنتشرة في جميع أنماط الحياة وكل أرجاء الكون، وقد بسطت القول باختصار في الفصول المخصصة في الكتاب لكل فصل ما يناسبه من الآيات، والله المستعان.

المبحث الثالث: والسماوات مطويات بيمينه

الإعجاز الباهر ترسمه آيات الله في قوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] فحين يرفع الإنسان طرفه إلى السماء تدور الخواطر في ذهنه من رفع السماوات بلا عمد؟ وبلا وسيلة مادية ترتكز عليها؟ ما هو بعد المسافة بين السماء و الأرض التي تقلنا من جهة؟ وما هو بعد المسافات بين كل كوكب من تلك الكواكب اللامعة؟ وما يعد المسافة بين كل نجم وآخر؟ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢] ، هذه الآيات الدالة على عظمة الله وقدرته وتوحيده، فكيف طاشت عقول كثير من الناس أن عبدوا مع الله غيره من مخلوقاته وهم يعلمون أن الله هو خالق كل شيء؟! ألا يتفكروا في ضخامة مخلوقاته من السماوات السبع الطباق وكثافتها وبُعد ما بينها، وكذلك الأراضي السبع وكثافتها وبُعد ما بينها كلها في قبضة الله، أفلا تدل على توحيد الله؟ وأين ذهبت العقول المسلوبة وهي تشاهد كل ذلك؟ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧] ورد عن أبي ذر وأبي هريرة وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ[١] أن بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام وبين كل أرض وأرض مثل ذلك وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين

---

(١) كتاب العظمة ٢/ ٦٣٦ والدر المنثور ٧/ ٢٤٨.

الكرسي والعرش مسيرة خمسمائة عام، وما السماوات والأراضي وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ألقاها مُلقٍ في فلاة، وما الكرسي في العرش إلا كحلقة ألقاها مُلق في فلاة، وجميع ذلك في قبضة الله كالحبة وأصغر من الحبة في كف أحدكم، الله أكبر سبحان الله: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وكما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

ورد في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يَقبِضُ الله الأرضَ، ويَطوِي السماوات بيمينِهِ ثم يقول: أنا الملِك، أينَ مُلوكُ الأرضِ**»(١) وفي رواية في الصحيح عن ابن مسعود ﷺ قال: «**جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمدُ، إنّا نَجِدُ أنَّ اللهَ يجعلُ السماوات عَلَى إصْبعٍ، والأرضين على إصبع، والشجرَ على إصبعٍ، والماءَ والثرى على إصبعٍ، وسائرَ الخلائِقِ على إصبعٍ، فيقول: أنا الملِك. فضَحِكَ النبيُّ ﷺ حتى بَدَتْ نواجِذُهُ تصديقاً لقول الحَبر، ثمَّ قرَأَ رسولُ الله ﷺ:** ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾»(٢) فإذا كانت السماوات السبع وما بينها وما فيها والأراضي السبع وما بينها وما فيها ليست في الكرسي إلا كسبعة دريهمات ألقيت بأرض فلاة، وما

(١) أخرجه البخاري (٤٥٣٤) ومسلم (٢٧٨٧).
(٢) أخرجه البخاري (٤٦٩٣) ومسلم (٦٩٩٥).

الكرسي في بطن عرش الرحمن إلا كحلقة ألقيت بأرض فلاة إذن فكيف بعظمة من خلقها بتلك الضخامة المذهلة؟ سبحانك، يا الله ما أعظمك فما قدرناك حق قدرك! وكما زين السماء بالأنوار والمجرات والعلامات الواضحة كاشمس والقمر، زينها كذلك بالبروج وهي منازل الكواكب المنيرة، الكواكب العظام، وأوجد في السماء حفظة وحرس معهم رجوما للشياطين من مسترق السمع، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦-١٨]، وكان شياطين الجان يتلمسون في السماء الفرص ليسترقوا السمع فذكر الله حالهم بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨ – ٩]، وهذا هو النظام الرباني وإبداع رب العالمين: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وحين عاب على أهل الشرك المكذبين بالبعث والنشور والجزاء والحساب ـ ممن سلبت مواهبهم العقلية، وصادقوا على تعطيل مواهبهم الفكرية، قال ـ سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦ – ٨]. فإن من سلب منه عقله وتفكيره لا تنفعه الذكرى ولا تنفعه المواعظ، انظر كيف يلفت المولى الكريم أنظار المشركين إلى بديع صنعه في خلقه السماوات والأرض وهم يعلمون ذلك، ولكن قد سلبت منهم نعمة الفكر، والهداية إلى فهم صنع الله وآياته الباهرة، وعطلوا حواسهم وأهدروا عقولهم؛

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ إن العبرة في ظاهر صنع الله، أما الكيف فهو مجهول؛ لأنه لا يعلم كيف بناها إلا الذي بناها، ولأن أي مخلوق يبقى تصوره عاجزًا عن كيفية البناء، وإن حاول أحد أن يتكلف في التعريف، فقد زَجّ نفسه في متاهة حيث تكلف فوق طاقته وما لا يعنيه، والذي بناها هو العليم وحده كيف بناها، أما الزينة فهي بائنة الجمال، زينها بالمصابيح اللامعة المضيئة، وقال ـ سبحانه: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ أي: ما فيها شقوق ولا ثقوب ولا فروج، كما قال ـ جل شأنه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٣ – ٥]. وقوله ـ سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]. المؤمنون هم الذين تؤثر فيهم آيات الله ـ كما هو في آية الجاثية ـ وهم الذين ترق قلوبهم، ويأخذون العبرة منها، بخلاف المشركين حين وصفهم الله بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥ – ١٠٦]. أما في وصف السماء والنجوم، وما قاله بعض الشعراء فإني أورد ما تيسر منها:

قال أحدهم:

من ذا رأى أرضًا بغير سماء ... إن السماء لترجى حين تحتجب

وقال آخر:

إن السماء إذا لم تبك مقلتها ... لم تضحك الأرض عن شيء من الزهر

وقال آخر:

كـــأن ســــماءنا والـــشهب فيهـــا ... وأصـــغرها لأكبرهـــا مـــزاحم
بـــساط زمـــرد نثـــرت عليـــه ... دنـــانير تخالطهـــا دراهـــم

وقال التنوخي:

كـأنما نجومها نـصب عيـون الرمـق ... دراهم قـد نثـرت عـلى بـساط أزرق

وقال آخر:

كـــأن ســـماء الأرض نطـــع زمـــرد ... وقـد فرشـت فيـه الـدنانير للـصرف

وقال ظافر الحداد:

كـــأن نجـــوم الليـــل لمـــا تبلجـــت ... توقـــد جمـــر في خـــلال رمـــاد
حكـى فـوق ممتـد المجـرة شـكلها ... قواقـــع تطفـــو فـــوق لجـــة وادي

وقال آخر:

كـــأن النجـــوم نجـــوم الـــسماء ... وقـد لحـن للعـين مـن فـرط بعـد
مـــسامير مـــن فـــضة ســـمرت ... عـــلى وجـــه لـــوح مـــن الـــلاّزورد

وقال محمد بن عاصم:

تُرى صفحة الخـضراء والـنجم فوقهـا ... ككـــف ســـدوسي بـــدا فيـــه درهـــم
تـــرى وعـــلى الآفـــاق أثـــواب ظلمـــة ... وأزرارهـــا منهـــا شـــمالٌ ومـــرزم

❖ ❖ ❖

المبحث الرابع: آيته في دوران الشمس والقمر

النيران هما الشمس والقمر، الشمس ضياء، والقمر نور، فتبارك الله أحسن الخالقين الذي جعل الشمس سراجاً وهاجاً وضياءً مضيئاً وجعل القمر نوراً منيراً كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥-١٦] وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١] وجعل في السماء بروجاً ومنازل وأفلاكاً فسبحانه من خلق، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥] والشمس والقمر آيتان من آيات الله الكونية، خلقهما لمعرفة الليالي والأيام والشهور والأعوام: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥] وبهما أيضا تنتظم الحياة والفصل بين الأوقات قال سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨-٤٠].

والشمس تجري في فلكها المقرر لها أن تدور فيه إلى مستقر يعلمه من خلق الشمس وهي تجري كل يوم في فلك ومطلع غير المطلع والفلك الأول، والقمر قدر منازله الذي خلقه منازل وتلك المنازل يشاهدها الخلق، فالقمر في بداية الشهر يكون

هلالاً فيزيد كل ليلة منزلة حتى يمسي بدراً كاملاً، ثم يعود إلى النقص في كل ليلة منزلة حتى ينتهي ثم يبيت هلالاً مرة ثانية كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ ومن آية الله في الشمس سيرها في مدارها الذي رسمه الله لها، وكذلك القمر حيث جعل لكل منهما فلكاً يدور فيه لا يتجاوزه، وكذلك بقية الكواكب، والله وحده هو الذي يعلم بعد المسافة بين الشمس والقمر وبين الأرض والسماء وبين كل نجم وآخر لأن الله هو الذي خلق الكون وأبدع صنعه ووضع تصاميمه وأبعاده، فالشمس تسبح في فلكها والقمر يسبح في فلكه بتقدير صانع الفَلَك، ومن قدرة الله أن جعل الشمس ضياء، والقمر نوراً، وجعل الظل بين الضياء والظلام، فعند غروب الشمس ينكمش الضياء ويبدأ الظل ثم لم يلبث الظل إلا يسيراً فيختفي ويسود الظلام، وعند طلوع الفجر يبدأ الظل في الظهور حتى تطلع الشمس فيهيمن الضياء ويختفي الظل ووقت الظل ما بين طلوع الفجر إلى ظهور الشمس، وما بين غروب الشمس إلى أن يسيطر الظلام وكذلك ظل الحائط أو الشجرة قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٤٥ – ٤٦] والقبض اليسير يقبض الظل بطلوع الشمس حتى ينتهي بحيث لا يبقى إلا ظل شجرة أو ظل سقف أو ظل حائط والله أعلم.

وفي تسخير الشمس والقمر وجريانهما كل في فلكه وتعاقبهما ونظام من أبدع الكائنات، كل ذلك يشد الحواس والمشاعر إلى مشهد الكون الذي لا تنقضي عجائبه، قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٢٩]

وقوله: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٣] وقال جل شأنه: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحديد: ٦].

إن مشهد الكون من الليل والنهار يصدق بعضه بعضاً، من ولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل، وتسخير الشمس والقمر إلا أن هنا مشهدًا يندد بالمشركين الذين سلب الله عقولهم وأفكارهم حين لم ينتفعوا بمشاهدة خلق الله في الكون وفي كل شيء فأشركوا مع الله غيره وعبدوا معه غيره بغير سلطان رغم مشاهدة عجائب قدره الله وصنعه لهذا الكون، كما قال هنا: ﴿ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴾ [فاطر: ١٤] سبحان الله من ضعف عقول المشركين كيف ضلوا عن دعاء من بيده ملكوت السماوات والأرض وخالق السماء والأرض وما بث فيهما من دابة، ويدعون مالا يملك من قطمير، والقطمير هو: غلاف النواة الواهي، فإذا كان ذلك الغلاف الرقيق الصغير لا يملكه شركاء وأرباب المشركين الذين يدعونهم من دون الله ويلجؤون إليهم في الشدائد، ويتركون من بيده ملك السماوات والأرض وما فيهما، يطلبون الحوائج وتفريج الكربات من الذي لا يملك قطميراً وما هو أقل من القطمير، وزيادة في البيان إن من دعا هؤلاء الشركاء لا يسمعوا دعاءهم، ومع فرض لو سمعوا ما استجابوا لهم، وحين الوقوف بين يدي الله يتبرؤون ممن أشركهم مع الله ويكفرون بشركهم، اللهم إني أعوذ بك من الضلال وضياع العقل، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد أن هديتنا يا كريم.

المبحث الخامس: آية الله في خلق الأرض والأنهار والبحار

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١] الأرض مستقرة ثابتة لا تميد ومصممة وفق صنع الله لها فهي مبسوطة ثابتة: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ والذي أجرى الأنهار هو الله، وهو الذي أجرى المياه العذبة في جميع أنحاء الأرض، وجعل خلالها أنهاراً، أجرى تلك العيون والأنهار خلال الجبال الصلبة والأرض القاسية، ومن آيات الله أن الماء على سلاسته ولينه يخترق ويفجر تلك الصخور الصم والأراضي اليابسة، ويشق ويخترق منها مجاري ويخرج من غبار الأرض وتربتها العكرة عذباً زلالاً فتصبح بقدرة الله أنهارًا جارية وعيوناً صافية، رحمة ورزقاً للعباد.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ وجعل للأرض رواسي وهي الجبال الشم أرساها ثابتة ومثبتة ومستقرة، وأوتاداً رواسي تثبت دعائم الأرض، والجبال الرواسي عادة تنحدر منها مياه الأمطار وتستقر في بطون الأودية والشعاب وتتكون منها العيون ومجاري الأنهار والمياه، قال جل جلاله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥-١٦].

ألقى في الأرض رواسي بحيث لا تميل ولا تميد، وأجرى الأنهار من المياه العذبة تجري من بلد لبلد، يشرب منه العباد وترتوي منه الأرض والثمار وكل كائن حي، وسبلاً وهي الطرق المؤدية من أرض إلى أرض أخرى، ومن مدينة إلى مدينة وبلدة وقرية أخرى، عبر طرق واضحة المعالم لكل من يسلكها ويهتدي

بجبالها وأوديتها ومعالمها البارزة، والنجوم هي علامات يهتدي بها التائه أو من يضل الطريق ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾[النمل: ٦١] والحاجز بين البحرين هي: الأرض اليابسة تفصل بين النهر العذب الفرات، وبين البحر الملح الأجاج، فجعل بينهما حاجزاً حتى لا يختلط الماء العذب بالماء المالح فيفسده كقوله جل شأنه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]، وقال سبحانه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ البحر الساكن هو: المحيط والبحر المالح، والبحر الجاري هو: النهر الحالي العذب الفرات، كنهر الفرات بالعراق وتركيا، ونهر النيل من السودان ومصر، والعذب الفرات هو الماء الحلو أودعه الله في الأنهار والعيون، والأجاج هو ماء البحار المالح والمحيطات الراكدة، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي: حاجزاً من الأرض اليابسة، ليبقى العذب كما هو بحلاوته وعذوبته، ويبقى المالح كما هو مالحًا راكدًا ومائجًا لا يختلط بالعذب والله سبحانه يبين لعباده ما أوجده لهم من النعم ليشكروه عليها، ومن منافع البحار ما يصاد ويؤكل من أنواع الأسماك.

ومن هنا يقيم بها الحجة على الكافر المعاند، وهناك نعمة الدليل والهداية قال سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣] ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ تعالى الله عن الند والمثيل والشريك: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون لأنهم حجبوا عقولهم عن التفكر في عظمة خالق الكون، وحرموا التوفيق فسلب الله منهم نعمة العقل والفهم.

المبحث السادس: الفلك

ومن نعم الله وتفضله أن سخر الفلك وغيرها، فهي من نعم الله التي لا تحصى وعطاؤه الذي لا ينقطع، فقد سخر الله لك أيها الإنسان كل ما في السماوات والأرض، وأسبغ عليك جميع النعم الظاهرة منها والباطنة قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، الشاهد من هذه الآية هنا قوله: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ كما هو المشاهد والملموس أن من رحمة المولى الكريم أن سخر الكون كله للإنسان لعله يتفكر ويشكر نعم الله عليه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨] قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢ – ١٣].

ومن رحمة الله سبحانه ونعمه على عباده أن سخر لهم البحر الذي يحمل على متنه الفلك، وهي تلك البواخر العملاقة والسفن الجارية التي تمخر عباب البحار والمحيطات محملة بالناس، وبما ينفع الناس، وتنقل الأرزاق من منتجات بلد خصب في قارة نائية في غرب الكرة الأرضية أو شرقها إلى بلد مجدب ناءٍ في قارة تقع في نهاية الكرة الأرضية من شرقها أو غربها، فتنقل محاصيل هذا البلد ومواشيه وفائض تجارته إلى بلد يفتقر إلى تلك السلع والأرزاق وفائض المنتجات من الأرزاق وما يحتاج إليه البشر، إن عقيدة التوحيد تقتبس من كتاب الله تعالى

وهو الدعامة القوية التي لا يتطرق إليها الشك، فحينما ينظر صاحب الفطرة السليمة إلى تسخير الله لهذا الكون الهائل سخره لذلك الإنسان الضعيف.

فمن أنا في الوجود؟ وما هو الأمر الذي أحدثته حتى استحق به من الله سبحانه أن يسخر لي الكون بما فيه من السماوات والأرض والجبال والبحار والفلك والأنهار والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والأنعام وغيرها ؟ فسبحان الله الذي أعطى ولم يمن بما أعطى قال جل شأنه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[النحل: ١٤ – ١٥] وقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾[إبراهيم: ٣٢-٣٣].

الشاهد من الآية: تسخير الفلك في البحر، الله الذي سخر هذا البحر الهائل بأمواجه المتلاطمة وذلّـله لعباده ومخلوقاته، هذا الرب الرحيم لك أيها الإنسان الذليل الآبق، ثم ترجو في الشدائد غيره من العجزة وتخشى سواه من المساكين قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[فاطر: ١٢] والله هو الذي سخر البحر ليدفع إلينا بأرزاقه وما فيه ويظهر لنا حلية للتزين والجمال، فهل آن لنا أن نشكر الله على نعمه

التي لا تعد ولا تحصى، ومنها الفلك المسخرة التي تجري بنعم الله لعباده حتى يفكر المسلم الملهم إلى تعداد تلك النعم الظاهرة والخافية، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣١- ٣٢] انظر يا رعاك الله كيف يلجأ من سلب منه التوفيق وكُتبت عليه الشقاوة، أنهم في وقت العافية والأمان والطمأنينة يدعون غير الله ويشركون معه غيره، فإذا ضاق عليهم الخناق وألمت بهم كارثة وغشيتهم الأمواج العاتية من كل مكان وحدق بهم الخطر عندها يوحدون الله، وبمجرد أن يستجيب الله دعاءهم وتزول عنهم الكارثة يعودون إلى دعاء غيره جل جلاله وينادون ما كانوا به يشركون من قبل، فكيف هداهم فكرهم المعكوس إلى توحيد الله حين تلم بهم ضائقة لا مفر منها، ويشركون بالله في زمن الرخاء؟: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥] وأحل الله صيد البحر وطعامه في زمن الإحرام وحرم صيد البر على المحرم قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦].

المبحث السابع: آيات الله في تعاقب الليل والنهار؟

ومن آياته العظام في مخلوقاته تداخل الليل والنهار فيطول النهار في الصيف ويقصر الليل، وكذلك يطول الليل في الشتاء ويقصر في الصيف، إن في الكون مواعظ وذكرى: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦] ومن آيات الله البينة انسلاخ الليل من النهار، وكذلك النهار من الليل، وتعاقبهما لا الليل يسبق النهار ولا النهار سابق الليل، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٣٧ - ٤٢]، قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] سبحان من سخر هذا الكون لك أيها الإنسان، وجعل فيه آيات باهرات لا حصر لها، ومن أعظم آيات الله آيتا الليل والنهار واختلافهما المستمر قال الله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ

يَعۡقِلُونَ ﴾ [الجاثية: ٥] هذه الآية شملت عددًا من آيات الله في الكون، منها: اختلاف الليل والنهار، ومنها: نزول الغيث من السماء، ومنها: حصول الأرزاق بنزول الماء، ومنها إحياء الأرض بعد موتها، ومنها تصريف الريح، فتارة تهب من الشمال، وتارة من الجنوب، وتارة من الغرب، ومرة من الشرق، وقد تهب من الجهات غير الأصلية، مثل: الشمال الشرقي، أو الشمال الغربي، أو الجنوبية الغربية، أو الجنوبية الشرقية، فسبحان مثيرها ومصرفها: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢]، وخروج الليل من النهار وخروج النهار من الليل، وآية الليل يسلخ منه النهار، فيطبق الظلام فيذهب ضوء النهار ويبقى الجو مظلما فيذهب ظلام الليل بضياء النهار، ويذهب ضياء النهار بظلام الليل، والليل يطلب النهار والنهار يطلب الليل بسرعة حثيثة فيذهب النهار فيحل محله الليل، ويذهب الليل فيحل محله النهار، وإذا حل الظلام توقف القدم، وتتوقف الحركة، فيخلد الناس وكثير من المخلوقات إلى الراحة وسلطان النوم قال تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلًا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٢].

ومن رحمة الله بعباده أن جعل الليل للسكنى والراحة حين يطبق ظلام الليل فيعودون إلى الملجأ لتستقر فيه النفوس بعد الكد وتعب النهار؛ كما قال في الآية الأخيرة، إن في النظر إلى آيات الله في هذا الكون أكبر حافز لذكر الله وتوحيده، ووجوب الشكر لله المنعم المتفضل سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾ [يونس: ٦٧]

وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] إن من العبر تداول الليل ولنهار لتنظيم حياة البشر ودقة أطوار الحياة وأزمنة الحوادث وصدق الله القائل: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤]، وقال جل ذكره: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧].

وهنا موعظة وذكرى في تعاقب الليل والنهار، وإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، ألا ترى أن في زمن الصيف من كل عام يطول النهار ويقصر الليل، ثم يعود الليل فيأخذ من طول النهار فيطول الليل ويقصر النهار، فيأخذ الليل من طول النهار في زمن الشتاء حيث يتم طول الليل في برج الجدي وبداية برج الدلو، ثم يأخذ النهار من الليل حتى يتم طول النهار مع تمام قصر الليل في برج الجوزاء آخر فصل الربيع وأوائل فصل الصيف، فسبحان من نظم نظام الكائنات، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٩].

ثم يعيد الكرة إلى رؤية الكواكب لينبه المؤمن العاقل فيرى بعين عقله وثبات يقينه تلك الكواكب والأجرام الجميلة، الثابتة منها والسيارة، وهي تدور في فلكها الثابت لا يسقط كوكب منها على الآخر ولا يصدم أحدها الآخر ولا تضل طريقها وهي تجري في سير متناسق بديع ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨].

وكذلك في ولوج الليل في النهار، يذكر جل شأنه نعمه على عباده وفضائله ورحمته بهم حيث قدر ولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل، وسخر تلك الآيات العظام وذللها لعباده من أجل تنظيم حياتهم وأوقات راحتهم، وطلب المعاش، وفي ولوج الليل في النهار وكذلك ولوج النهار في الليل، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٦١]، مع تنظيم الزمان بمعرفة الأيام والليالي والشهور والأعوام والأحقاب والقرون، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٧] فهذه من رحمته أن جعل لكم أيها الناس الليل لباسا ساترا للوجود يغشاه بظلامه كقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ [الليل: ١] ، وقوله: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾ النوم هو الراحة في الليل بعد مشاق العمل والكد في النهار، والنوم هو آية من آيات الله، سباتاً حين تسترخي الروح والأعضاء في كامل راحة النوم وتنقطع الحركة، ويكون الليل هادئاً يكف فيه القدم وتنقطع فيه الحركة، والليل والنهار آيتان من آيات الله، فآية الليل المظلمة ليتهيأ كل فرد إلى الراحة، وآية النهار المبصرة لطلب الفضل من الله في النهار، ومعرفة عدد السنين والحساب بمسميات الليل والنهار ومرورهما، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٦] وقال جل شأنه وتقدست أسماؤه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ

وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ – ٧٣] فسبحان من خلق الكون ووضع له نظامه المحكم المتناسق،

وقوله: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠] أي: إن الليل لا يسبق النهار فيذهب عنه ولا يدركه بل هو مسرع في أثره يطلبه حثيثاً مسرعاً، ثم يذهب الظلام بطلوع الشمس فينتشر شعاعها في الأفق، لدى الشروق ويستيقظ النائم من سبات نومه، ليتأهب لطلب الرزق وكسب القوت كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥].

المبحث الثامن: الماء والحياة

إن المتأمل في موت الأرض حين يصيبها الجدب، وحياتها حين يتفضل الله عليها بهطول الغيث ليحيي به الأرض المجدبة وكل كائن على ظهر الأرض بإذن الله بعد ما قنط سكانها وما حل بها من القحط والجدب، حين تغور مياه الأرض وييبس كل أخضر ثم تعود لها الحياة بإذن خالقها ومبدعها قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] وهذه الآية قد أوردتها في أول البحث وللمناسبة كررت إعادتها هنا لمناسبة الترجمة.

وقال المولى جل شأنه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] إن هذا الكون وكل ما فيه من مواعظ ترق لها القلوب المؤمنة وتطمئن إليها الجوارح المنيبة، وتظهر عظمة الله في خلقه فتنكشف الغمة وينكسر طوق القنوط واليأس، وتتنور البصائر والأبصار وتنجلي الغشاوة

عن القلوب ويرسخ الإيمان بالله، قال الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ [ق: ٩]، ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦]، سبحان الذي خلق، كل الأزواج مما نعلم ومما لا نعلم سواء كانت من الملائكة، أو من المخلوقات البشرية، أو الحيوانات، أو الدواب، أو الطيور، أو غيرها من الكائنات الحية، أو النباتات والمزروعات وغيرها، سبحان خالقها وموجدها ورازقها والعالم بها.

أما الماء فقد أودع الله فيه حياة كل كائن بإذن الله، قال جل شأنه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠] الله له الحمد هو الذي جعل حياة الأرض وكل مخلوق عليها من الماء، قال سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الزخرف: ١١] والماء الذي هو سبب في حياة كل الإنسان والحيوان والنبات كما أسلفت، وأن الله يخرج به الحبة الميتة من الأرض الميتة بعد أن يلمع البرق يتبعه الرعد القاصف ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٤].

إن الماء هو معجزة خارقة وآية من أعظم آيات الله في مخلوقاته، يحيي به الأرض الموات، وكذلك يحيي به الأجساد الميتة ويعيدها من الأرض بعد أن كانت رمماً هامدة وتراباً اختلط بتراب الأرض، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما بين النَّفْختين أَربَعون، قال: أربعون يوماً؟ قال: أَبيْتُ. قال: أربعونَ شهراً. قال: أبيتُ. قال: أربعون سنةً؟ قال: أبيتُ. قال: ثم يُنزلُ الله من**

السماءِ ماءً، فيَنبُتُون كما يَنْبُتُ البقْلُ، لَيس منَ الإِنْسان شيءٌ إلا يَبلَى، إلا عَظْماً واحِداً وهوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، ومنه يُرَكبُ الخَلْقُ يومَ القيامة»[1]، وكما هو معلوم أن الماء رحمة من الله لبلاده وعباده، فحين ينزل الغيث من السماء يستبشر به الإنسان وكل دابة تعيش على هذه الأرض لأنه يحيي به الله القلوب كما يحيي به الأرض الميتة قال تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٥٠] وقوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الشورى: ٢٨] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان: ٣٤].

إنه لا يستقيم سلوك المرء ولا ينتفع بمواعظ القرآن، إلا من وفقه الله وهداه وشرح صدره للإسلام وتجردت نفسه من كيد الشهوات ومزا لق الهوى، وفتح الله قلبه وبصره وبصيرته للتفكر في سر عظمة الخالق، وفي سر آيات الله في خلق هذا الكون الفسيح وما حواه وأودع فيه من عجائب قدرته وآياته الباهرة.

(١) أخرجه البخاري(٤٨١٥) ومسلم(٧٣٦٣).

المبحث التاسع: آيات الله في الرياح وبعث السحاب

الرياح والسحاب آيتان من آيات الله، والرياح آية لا ترى بالبصر ولا يشعر بها الإنسان إلا حين تصادم جسماً من الأجسام الثابتة، أو المتحركة كجسم إنسان، أو حيوان، أو شجر، أو جبل، أو حائط، أو تثير غبارًا من الأرض، فهناك يشعر الإنسان بهبوب الرياح ويسمع صوتها، وكذلك السحاب هو الآخر آية من آيات الله يرى ويسد الأفق ويحجب الرؤية وليس له جسم ملموس فالرياح تحمل السحاب بقدرة الله، والسحاب يحمل الماء، والماء ينزل على الأرض قطرات متتابعات، فهو يبدأ قطرات خفيفة ثم يستمر بالغزارة شيئاً فشيئاً حتى يقوى في غزارته إلى ما شاء الله، ثم يهدأ تدريجياً كما بدأ، فسبحان من أنزله بقدر معلوم، وكيف لم يهبط على الأرض دفعة واحدة؟ وذلك لاشك من رحمة الله ولطفه بعباده، فنزول المطر في البداية قطرات ليكون للناس علامة بهطول المطر، ليأخذوا حذرهم من البرد والغرق وغير ذلك من الأضرار، وعند نهايته يتقلص كما بدأ ليكون معلوماً حتى ينتشر الناس إلى أعمالهم!، وعادة ما يأتي ذكر السحاب والرياح في القرآن الكريم مترادفين قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وتصريف الرياح، الرياح هذا المخلوق العجيب الذي لا يرى جسماً واضحاً كما أسلفت، ولكنها تزلزل الأرض وتقلع الشجر وقد تهدم المباني وتثير المدر وتقل السحاب وتثيره وتنقله من بلد إلى بلد آخر قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣].

فسبحان مسخر السحاب والرياح فهو الذي يسوق السحاب ويؤلف بينه فيجمعه بعد أن كان متفرقاً فيكون كثيفاً متراكماً، فإذا بالودق وهو ماء المطر يخرج من خلال السحاب على الأرض: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ فقد يكون ذلك البرد عقاباً، فيصيب به من شاء الله ويصرفه عن آخرين وسنا البرق هو قوة ضوئه ولمعانه حين يلف معصرات السحاب، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧-٥٨] وكذلك السحاب يكون ثقالاً وهو الركام كما مر في آية سورة النور، وفي قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٢-١٣]، والله هو مسخر الريح لنقل السحاب وهي جند من جند الله، يرسلها بالرحمة مبشرة بمقدم نزول الغيث، وقد تتحول الريح إلى كارثة فيرسلها الله بالعذاب، نعوذ بالله من نزول سخطه، وهو مُسخِّر السحاب كذلك، ينشئه الله متى شاء ويسوقه حيث يشاء وهو آية من آيات الله تعالى، كما قال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨-٥٠] وقال تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥].

إن أكثر الناس قد صُرِفَ عن الإلهام بالشكر لله على ما تفضل به فهو الذي أرسل الرياح وبحكمته لتكوين السحاب، وبفضله نزل المطر وأحيا به الأرض بعد موتها فيجب أن يشكر على عموم فضله، ومن عظمة رحمة الله وقدرته أن جعل الرياح تقل السحاب لتنقله، فهي مبشرة ومقلة ومثيرة للسحاب، ومع نزول المطر، ينزل الخير والبركة وكل حياة المخلوقات متوقفة بأمر الله على نزول المطر فسبحان من خلق الأشياء كلها بحكمته ودبرها بقدره ورحمته.

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩]، والتفكر في عظمة خلق الله تعالى من دلائل الإيمان وقوة اليقين، لأن كل آيات الله الكونية تترك في نفس الإنسان إحساساً وشعوراً واضحاً وملموساً بقوة اليقين أمام تلك المشاهد الحساسة، لأنها مشاهد حية بارزة ومعجزة من صنع الله الذي صُنعه يُبهر العقول، فمثلاً: الأرض تحيا بالمطر إذا نزل بها وتموت بفقده، والنفوس كذلك تحيا بالوحي والطاعة وتموت بالمعصية والبعد عن هدي كتاب الله ووحيه موت لا حياة بعده حتى يذعن لأمره، وأن يعمل بطاعته قال تبارك وتعالى: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٦٣]، نعم إن هداية الله بكل معاني الهداية تتمثل في هداية الدلالة وهداية التوفيق وهداية السعادة في الدارين، وقد أحاطت عناية الله بالإنسان والحيوان والدواب، وجميع من خلقه الله في البر والبحر والجو.

فهو يهدي الحيارى إلى معالم الهداية، وبها يهتدون وعلى معرفتهم بها يسيرون، فسبحان اللطيف الخبير، وقوله جل جلاله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ

وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم: ٤٦] ومن آياته الدالة على قدرته أن خلق كل شيء وأوجده من العدم واقتضت حكمته أن يرسل الرياح إلى السحاب، كما يرسل الرسل إلى أهل الأرض مبشرين ومنذرين، وهنا لفظة لطيفة وهي: ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ [الروم: ٤٦] وتذوق طعم الشيء اللذيذ ونزول الغيث يحدث في النفوس فرحة ولذةً واستبشاراً وسروراً، لأن ذلك يعقبه الخير الكثير، وتحيا به الأرض بعد موتها وجفافها، فيكثر الخير وتخرج الأرض كنوزها ويتبارك فيها الرزق والخصب والنماء.

وعودة إلى قول الله جل شأنه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾ [الروم: ٤٨ – ٤٩].

فالعود إلى تكرار تلاوة هذه النصوص من كتاب الله تعالى تعيد الراحة والرحمة وقوة اليقين العامرة بالإيمان: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ بقدرته جل جلاله فيبسط ذلك السحاب ويمده في السماء كيف يشاء، فيصير ﴿ كِسَفًا ﴾ أي: ركاماً كثيفاً ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ ﴾ [النور: ٤٣] وهو: الماء يتساقط ويخرج من خلاله عند ما تلفه معصرات السحاب، وهو البرق والرعد، وعند نزول المطر تعم الفرحة بالغيث الممرع الغزير النافع بإذن الله، فترى أسارير البشرى والبهجة قد عمت الجميع، فيقول الله منبها أهل القلوب الحية: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٥٠].

الفصل الرابع
الإبداع في خلق الإنسان وتكريمه وأطوار حياته

(١) المبحث الأول: الإبداع في مراحل خلق الإنسان.

(٢) المبحث الثاني: تكريم الإنسان ومكانته.

(٣) المبحث الثالث: التكريم مطلق أم مقيد؟

(٤) المبحث الرابع: إبداع الخالق في هيكل الإنسان.

(٥) المبحث الخامس: الرأس وما وعى.

(٦) المبحث السادس: السمع.

(٧) المبحث السابع: نعمة البصر.

(٨) المبحث الثامن: من أفضل السمع أم البصر؟

(٩) المبحث التاسع: الأنف والفم.

(١٠) المبحث العاشر: آية الله في جمال الصوت.

(١١) المبحث الحادي عشر: عجائب قدرة الله في منافع اليدين.

(١٢) المبحث الثاني عشر: البطن وما حوى.

(١٣) المبحث الثالث عشر: الرجلان.

(١٤) المبحث الرابع عشر: خصيم مبين.

(١٥) المبحث الخامس عشر: مودة ورحمة.

(١٦) المبحث السادس عشر: موقع الرجل من زوجه.

(١٧) المبحث السابع عشر: ميزة خلق الذكر من الأنثى.

المبحث الأول: الإبداع في مراحل خلق الإنسان

ومن العجائب العظام حين يسبح الفكر القاصر في جلال عظمة الخالق القادر وفي كل شيء من مخلوقاته آية بل آيات تدل على عظمة قدرته، فحين تعود بالإنسان الذاكرة إلى خلق نفسه وما أودع الله فيه من معجزات قدرته حين يتلو قول الله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١] وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [الروم: ٤٠] قال تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٧-٢٢] هنا تنفع الذكرى، ففي هذه الآيات يذكر المولى جحود الإنسان ويثبت أساس خلقه وتطوره ويقرر سبحانه أساس مادة خلقه من نطفة، ثم كرر سبحانه حقيقة بداية خلق الإنسان من خليط ممزوج وجعل له عقلاً وإدراكاً وفهماً وسمعاً وبصراً، قال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢] وقال سبحانه ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾ [القيامة: ٣٦-٣٩].

هنا يلفت الحس بسؤال إنكاري ويستجلب الفكر المخاطب هل يظن أن الإنسان خلق عبثاً لا حكمة في خلقه ولا هدف، وكان بداية خلقه من نطفة تمنى ثم تحول بقدرة الله إلى علقة ثم إلى خلق سوي فهو الذي خلق الإنسان وهداه وتكفل برزقه لا مُوجِدَ لكل الخلق ولا رازق ولا محيي ولا مميت إلا الله وحده لا شريك له، وقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ

نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١-١٠] هنا يبدو جليًا حين أقسم بالطارق، النجم الثاقب، وكأن جواب القسم أنه أوكل على كل نفس حافظاً ونبه الإنسان إلى الحقيقة الماثلة وهي خلق الإنسان، خلقه من ماء دافق يخرج من عظام ظهر الرجل الفقارية، وترائب المرأة وهي عظام الصدر إن قدر الخالق وقضاءه هو الذي. أوجد الإنسان وغير الإنسان وكل مخلوق عاجز لا حول له ولا قوة إلا بالله وحده، فسبحان الذي أبدع وخلق فسوى، وقال جل شأنه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٥].

وهنا التحدي وقول الفصل على إبطال دعوى من زعم أن مع الله آلهة أخرى، الله وحده هو الذي خلق الإنسان مع ما أودع الله فيه من الأجزاء، والأعضاء، والعظام، والمفاصل، والمخ، والأعصاب، والعروق، والشرايين، ومسالك المجاري، وما أوجد الله في الرأس وحده من المنافذ، والمصالح المختلفة والآيات المعجزة، التي يعجز التصور والتعبير عن حصر عجائبها، نعم خارقة عجيبة بل عجائب مذهلة في صنع الله لخلق الإنسان وعجائب في آياته الباهرة في كل ما خلق، إن هذه المعجزات الخارقة تمر ونشاهدها على ضخامتها وكأنها أمور عادية ليس فيها ما يلفت النظر دون أخذ العبرة، دون أن نفكر في روعة تلك الآيات وإعجازها، والسبب: لكوننا أَلِفنا مشاهدتها بدون واعظ ديني أو تعمق فكري يشد انتباهنا إليها، وهذا يُعد شللاً في تفكيرنا، وإلا فكل مخلوق خلقه الله معجزة يحار فيها الفكر، ويعجز عن تصورها العقل الإنساني ويذهل التعبير عن وصفها ويبقى

مشدوهاً باهتاً، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

دَواؤُكَ فيكَ وَما تُبصِرُ وَداؤُكَ مِنكَ وَما تَشعُرُ
أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر
فَأَنتَ الكِتابُ المُبينُ الَّذي بِأَحرُفِهِ يَظهَرُ المُضمَرُ
وَما حاجَةٌ لَكَ مِن خارِجٍ وَفِكرُكَ فيكَ وَما تُصدِرُ

الإنسان هو سر بديع من أسرار قدرة الله في الكون الفسيح، فبقدرة الله تعالى خلق الإنسان وكرمه، والتكريم هو تشريف الإنسان على غيره، إن بداية نشأة خلق آدم حين خلقه من تراب قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴾ [السجدة: ٧ – ٨] وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣] وهذه الأطوار من ماء مهين إلى قرار مكين وينتهي إلى أجل يعلمه الله، وخلق الله الإنسان وكرمه حيث خلقه بيده، ثم بنفخة من روحه ثم أسجد له ملائكته قال تعالى: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٩]، ولعل هذا أن يكون هو سر التكريم، والتكريم هو الجامع لأنواع الخير والفضائل، إن تطوير خلق الإنسان يدعو إلى عمق التفكير، فبداية خلق الإنسان من سلالة من طين، ثم نطفة وهي ماء مهين، قذفت في قرار مكين، ثم تحول من نطفة إلى علقة، وقد تقر في الرحم أو تقذف إلى خارجه مع البول، ثم من علقة إلى مضغة، وقد تكون مخلقة أو غير مخلقة، ومن مضغة إلى عظام، ثم كسيت العظام باللحم، ثم تطورت النشأة إلى خلق إنسان سوي في أحسن تقويم، ثم يخرج طفلاً وقد يتوفاه الله وهو في سن الطفولة، وقد يعيش إلى أرذل العمر، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن

يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [النحل: ٧٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥] وقال جل شأنه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٦].

وكما جاء في الصحيحين وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود ﵁ قال: حدثنا رسول الله ﷺ -وهو الصادق المصدوق- قال: « **إنَّ أحدَكم يُجمَعُ في بَطنِ أمِّهِ أربَعينَ يوماً، ثمَّ يكونُ عَلقَةً مثلَ ذلك، ثمَّ يكون مَضغةً مثل ذلك، ثمَّ يَبعثُ اللهُ إليهِ ملَكاً بأربعِ كلماتٍ: فيُكتَبُ عملُه، وأجَلُه، ورِزقُه، وشَقيٌّ أم سعيد. ثمَّ يُنفخُ فيهِ الرُّوحُ. فإنَّ الرَّجلَ ليَعملُ بعمل أهلِ النار حتّى ما يكونُ بَينَهُ وبينها إلا ذِراع، فيَسبقُ عليهِ الكتابُ فيَعمَلُ بعملِ أهلِ الجنَّة فيَدخلُ الجنة، وإنَّ الرَّجلَ ليَعملُ بعمل أهلِ الجنة حتى ما يكونُ بينَه وبينها إلاّ ذِراع، فيَسبِقُ عليهِ الكتابُ فيَعملُ بعملِ أهلِ النار فيَدخلُ النار** » هذا لفظ البخاري[1]، وفي رواية مسلم: «**ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ**

(١) البخاري (٣٢٦٢).

الرُّوحَ. وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ. فَوَالَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ. فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ. فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ. فَيَدْخُلُهَا. وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ. حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ. فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ. فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَيَدْخُلُهَا»(١).

بعد قوله: في كتابة رزقه وأجله وعمله، قال: «فَوَالَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ» الحديث، وفي الصحيحين أيضاً من حديث أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكاً. فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ نُطْفَةٌ. أَيْ رَبِّ عَلَقَةٌ. أَيْ رَبِّ مُضْغَةٌ. فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقاً قَالَ: قَالَ الْمَلَكُ: أَيْ رَبِّ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَىٰ؟ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ»(٢).

فتلك هي أطوار نشأة الإنسان وفق نظام رباني بديع محكم، فكما ورد في الآيات التي في سورتي «الحج» و«المؤمنين» أن بداية خلق الإنسان من طين، فالطين هو مصدر النشأة الأولى لخلق الإنسان وفي الطين نهايته، ومنه الطور الأخير لخروجه إلى البعث والحساب، وبين ذلك في هذه الحياة الدنيا قد يطرأ عليه شيء من الغرور، وكما خلق الله آدم من تراب وأودع في بنيه طبائع وعناصر مما خلقوا منه فالأرض فيها المنبسط السهل، وفيها المناطق الوعرة، ومنها التي لا يستقر بها الماء ولا يصلح فيها شيء من الزراعة، وفيها مناطق جعلها الله لحفظ المياه وما ينتفع به الناس والأنعام وغيرهم، وفيها قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت

---

(١) مسلم (٦٦٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٦) ومسلم (٦٦٨١).

الكلأ، كما ورد في الحديث عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الأَرْضِ جَاءَ مِنْهُمُ الأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ**». زَادَ فِي حَدِيثِ يَحْيَى: «**وَبَيْنَ ذَلِكَ**»[١].

وكما أن الناس قد جذب كل واحد منهم العنصر الذي خلق منه من عناصر الأرض، فكذلك خلقوا على طبقات وأشكال وحالات متباينة بحسب سبق علم الله سبحانه بهم، فمنهم الجميل في خلقه وخلقه وبين ذلك ومنهم الغني والفقير وبين ذلك وفيهم السعيد والشقي كما ورد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أَلاَ إِنَّ بَنِي آدَمَ خُلِقُوا عَلَى طَبَقَاتٍ شَتَّى، فَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ مُؤْمِناً وَيَحْيَى مُؤْمِناً وَيَمُوتُ مُؤْمِناً، وَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ كَافِراً وَيَحْيَى كَافِراً وَيَمُوتُ كَافِراً، وَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ مُؤْمِناً وَيَحْيَى مُؤْمِناً وَيَمُوتُ كَافِراً، وَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ كَافِراً وَيَحْيَى كَافِراً وَيَمُوتُ مُؤْمِناً، أَلا وَإِنَّ مِنْهُمُ البَطِيءَ الغَضَبِ سَرِيعَ الفَيْءِ، وَمِنْهُمْ سَرِيعُ الغَضَبِ سَرِيعُ الفَيْء، فَتِلْكَ بِتِلْكَ، أَلاَ وَإِنَّ مِنْهُمْ سَرِيعَ الغَضَبِ بَطِيءَ الفَيْء، أَلاَ وَخَيْرُهُمْ بَطِيءُ الغَضَبِ سَرِيعُ الفَيْءِ، وَشَرُّهُمْ سَرِيعُ الغَضَبِ بَطِيءُ الفَيْء**»[٢].

نعوذ بالله من سوء الخاتمة، ومع كون الإنسان خلق من تراب ثم من النطفة التي هي ماء مهين، فهو يرى أنه مؤهل للكبرياء والعظمة، وغره الغرور وتجاهل أنه يحمل في جوفه الخاوي النتن والقذارة، ونهايته جيفة ونتن وإلى التراب، فمن

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨٥) واللفظ له، والترمذي (٣٠٤٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٢٢١) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأحمد (١١١٥٩).

أين أتى العز المؤهِل للكبر إنه الخواء الروحي والجهل المركب، وإلا فإنه لا عز ولا فخر ولا كرامة لأحد إلا بالإيمان بالله دون سواه، والعمل بطاعته، قال سبحانه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال جل شأنه رداً على رأس المنافقين ابن سلول: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨]. والذي يقوي رسوخ العقيدة في قلوب المؤمنين هو التفكر في أطوار خلق الإنسان، ومما يرقق الشعور، ذلك التطور العجيب، تطور خلق الإنسان، من هذا التطور تكتسب العبرة ويتجدد اليقين، فبدايته من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، وإلى عظام، ثم كسا العظام لحماً، ثم يكون إنساناً سوياً كما قال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: ١٣-١٤] في الإنسان من إعجاز خلق الله عظات وعبر وإن من اليقين أخذ العبرة من أنفسنا قبل كل شيء، فمن نشأة الإنسان وأطوار حياته، قال تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر: ٦].

إن كل إنسان مهما بلغ من القوة والعلم والنبوغ وسعة المدارك، إلا أنه في بداية خلقه وتطور نشأته خرج من بطن أمه وهو لا يفهم ولا يعي ولا يدرك شيئاً ثم ترعرع في نموه ومداركه، ورزقه الله السمع حتى يدرك بعض أوكل ما يدور في فلكه، ورزقه الله البصر حتى يرى شيئاً فشيئاً، ورزقه العقل والفؤاد ليفهم تدريجياً

كيف ينظم حياته، وكلما نما في العمر نَمَت مداركه من سمع وبصر وعقل وفكر وعلوم، قال الله سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨] إن الفكر البليد والقلب الخاوي هما الحجاب، وهما سدان منيعان لعقول كثير من الناس أن يستفيدوا من وعظ القرآن الكريم والتفكر في عظمة الباري، إن آية إعجاز خلق الإنسان وما أودع فيه من العبر، هي معجزة بديعة ومذهلة حقًا وهي تتجسد في كل شيء من خلق الإنسان، سواء في تكوينه وتركيبه الروحي والجسماني، وفي كل شيء من وظائف التركيب. ومن أي شيء خلقه؟

عجيبة هي مراحل وتطور خلق الإنسان حيث إن بداية خلقه من تراب، ثم من نطفة تخرج بقدرة الله من بين الصلب والترائب، وهي نطفة قذرة وماء مهين منقادة بأمر الله وقدرته ومشيئته، حين جمع بين الذكر والأنثى وحبب إليهما غريزة الشهوة المحببة، وشد كل واحد منها الشوق والرغبة إلى صاحبه بقوة العشق في نفس الذكر والأنثى، ورغب بشوق التصاق بعضهما ببعض، وساق ماء الذكر وماء الأنثى من بين لحم ودم وعروق وعصب وعظام وجمع بين الماءين في جوف الرحم في قرار مكين، وبرج حصين لا يدخل إليه شمس ولا هواء ولا علة تعلق به أو تفسد خلقه، كل ذلك بما أودعه الله في ميول الذكر والأنثى تجذبه سلسلة الحب ورغبة الشهوة ليبدع الله به خلقاً جديداً ونسلاً مفيداً.

المبحث الثاني: تكريم الإنسان ومكانته

الله هو الذي كرم الإنسان، والكرم نقيض اللؤم والكريم هو الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

من تكريم الله للإنسان أن خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وخلقه في أحسن صورة وهو شكل فريد لا يشابهه فيه غيره، وأسجد له ملائكته وعلمه الأسماء كلها قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧١ - ٧٦] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٣].

ومن تكريم الله لبني آدم أن بعث منهم الأنبياء والرسل إلى أهل الأرض وأنزل عليهم الكتب فيها الوحي المنزل بكلام الله، وعُبِدَ اللهُ وحده لا شريك له، واختارهم لعبادته ورضي لهم الإسلام دينا وعقيدة وأخرج من شاء من عباده من

ظلمات الجهل والكفر إلى نور الحكمة والعدل، وعلمهم دين الإسلام الحنيف وهداهم لسعادة الدارين، وأخرجهم من عبادة المخلوق إلى توحيد الخالق، بعكس أقوام كتبت عليهم الشقاوة الأبدية حين استحبوا العمى على الهدى وجنحوا بضلالهم عن سلوك صراط الله المستقيم مع تمام وضوحه، ولم يستجيبوا لنداء الحق لسابق علم الله بهم، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، استجيبوا لله وللرسول لأن الحياة الحقيقية في طاعة الله ورسوله، وهناك فريق تمسكوا بالمبادئ الوثنية التي ورثوها عن آبائهم كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [لقمان: ٢١].

ومن نعم الله على الإنسان أن ميزه بجمال الخَلق و كمال الخُلق، وفضله بعلمه وقدرته وتدبيره، وجعل للإنسان ميزات وحواس راقية لا يشترك معه فيها غيره مثل آداب الأكل والشرب والأخذ والعطاء فهو يأكل ويشرب بيديه، ويلبس بهما ويخلع ملابسه ويغسل جسمه ويحك جلده، وبهما يأخذ ويعطي، ويدرأ بهما عن نفسه، ويثير بهما الأرض ويعمرها ويبني المساكن وبهما إحياء المزارع وغرس الأشجار، وشق الطرق وممارسة البيع والشراء، وتأسيس نظام الحياة وتنظيم المعاملات والعلاقات العامة، وتأسيس الدواوين، وميزه الله بشكل خصه به لكونه يمشي على رجلين وهو منتصب القامة في أحسن صورة وأجمل هيئة، كما رزقه العقل والتدبير والتمييز، ووهبه الخلق الحسن وألهمه بناء الصلات في المجتمع، وإقامة العلاقات

الاجتماعية، وفنون التعامل، لأن علاقة الإنسان بأخيه الإنسان تختلف عن علاقات بقية الأجناس فللإنسان عند أخيه الإنسان حرمة ومهابة وتقدير وحقوق وواجبات إلى غير ذلك من الصفات التي لا توجد إلا بين بني الإنسان، كما قال عنها نبينا ﷺ: «إِنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالحَ الأَخلاَق»[1].

وبالأخص إذا ربطت مميزات الإنسان برباط العقيدة ومزجت بطابع التقوى كما ورد في الصحيحين عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: (**الْمُؤْمِنُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ إِنْ اشْتَكَى رَأْسُهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ**)[2].

ومن تكريم الله للإنسان كما أسلفت أن خلقه وحسن شكله بجمال الخلقة، وقومه في أحسن تقويم، وأبهى منظر قال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[آل عمران: ٦]، وقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٤]، إنه خلق بديع وشكل فريد لا يشابهه أحد من بقية المخلوقات، أبدع خلقه وميز هيكله وجمل هيئته، وشكله الفارق ينعكس في جمال صورته وروعة تركيبه الجسماني الرائع، إنه الإبداع الرباني والعناية الإلهية السامية التي أبدعها وأوجدها موجد العدم، حيث كمله وزينه بجمال الصورة وما أعظمها من صورة! خصوصاً إذا كمَّل جمال الصورة بكمال العقل الراجح والإيمان الصادق والأدب

---

(١) رواه أحمد (٨٨٨٢) والبيهقي في الكبرى (٢٠٥٧١) بلفظ «مكارم الأخلاق». قال الهيثمي: (مجمع الزوائد ٩/ ١٥): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٧٤) ومسلم (٦٥٤٠) واللفظ له.

النبيل، إن مبدع الإنسان بشكله الجميل آية من آيات صانع الخلق ومبدعه، قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧]، وقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التغابن: ٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤].

ومن تكريم الله للإنسان أن حملهم في البر على الدواب المذللة من الإبل والخيل والبغال والحمير والسيارات والقطارات قال تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٥-٨] وقال تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الحج: ٣٦ – ٣٧].

ومن نعم الله ورحمته تسخير الأرض للإنسان وذللها له ووهبه خيراتها والسير في مناكبها واستغلال ما أودعه فيها قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه: ٥٣ – ٥٤]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥]، إنها رحمة من الله وقيام حجته حين قال امشوا على ظهر الأرض ونقبوا عن

أرزاقكم التي أودعها الله لكم في باطنها وسخر لكم ما أودع الله فيها من بحار وأشجار وأنهار وزرع ومن ألوان الثمار والفواكه المختلفة بجميع مسمياتها وأصنافها قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٠ – ١١].

ومن رحمته بالإنسان أن سخر له البحار والمحيطات والأرض والسماوات، فالبحر يحمل على ظهره الفلك وهي البواخر والقوارب السفن الضخمة تجوب البحار والمحيطات من شرق الكرة الأرضية إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها، وهي تمخر عباب البحار في أمواج كالجبال، تحمل على متنها الناس وما ينفع الناس، بقدرة من هو على كل شيء قدير، قال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٢]، وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٤].

ومن تكريم الله للإنسان أن أنعم عليه وأتاه من ألوان الثمار والفواكه المختلفة بجميع مسمياتها وأصنافها قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٠- ١٢].

وكما حملهم في البر والبحر، فقد سيَّرهم في الجو على الطائرات ومركبات الفضاء، والأقمار الصناعية، وسخر لهم الطير بجميع ألوانها وأحجامها ومسمياتها ما يؤكل منها وما يقتنص به، وغير ذلك مما لا يحصى له عد ولا يحويه كتاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ومن تكريم الله للإنسان أن سخر له الشمس بضيائها والقمر بنوره والنجوم علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقال جل شأنه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

ومن تكريم الله للإنسان أن سخر له جميع مخلوقاته حتى الملائكة جعل منهم على الإنسان حفظة مع تسخير الشمس والقمر والنجوم والدواب والطير وغيرها.
كما ورد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ

ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤]، وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣].

ومن تكريم الله للإنسان، أن ميزه عن غيره وخصه بزوجة من نفسه وشكله وفصيلته لا يشاركه فيها أحد، وجعل له الولد البار كما جعل بين الرجل وزوجه الود الدائم والحب المتبادل والعشرة الطيبة، وأمر بتقوية صلة الرحم والقرابة بخلاف بقية المخلوقات كلها، كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١] ثم جعل بين الزوجين من وشائج الود والرحمة ما يضفي على حياتهما السعادة والبر وأسكن أحدهما إلى الآخر بالأنس والشوق والألفة والمودة الدائمة، والعواطف الجياشة والحب والوفاء.

ومن نعم الله المتكررة على الإنسان أنه قد أنعم عليه بنعم ظاهرة و باطنه لا يحصيها عاد، ولا يحويها كتاب كما قال جل شأنه: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فكيف يجب على المسلم أمام هذا العطاء الرباني المحافظة على تلك النعم؟ وكيف نداوم على شكرها حتى نضمن بقاها وزيادتها، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾ [إبراهيم: ٧].

ومن منافع الدنيا التي سخرها الله للإنسان ما قصه في الآيات التالية ، قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ٨ وَجَعَلۡنَا

نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴾ [النبأ: ٦ – ١٧]، اللهم ارزقنا شكر نعمتك على الوجه الذي يرضيك عنا.

المبحث الثالث: التكريم مطلق أم مقيد؟

سبق أن أوردت بعض النصوص من الكتاب والسنة مما له دلالة على تكريم الإنسان كقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، وسخر للإنسان كل مخلوقاته في الكون، وأوضحت ميزة الإنسان عن بقية المخلوقات.

إلا أن هنا سؤالاً، هل التكريم الوارد في نصوص الكتاب والسنة مطلق أم مقيد؟ ومن هو الذي يستحق التكريم الحقيقي الأبدي؟.. الجواب تكريم مطلق، وتكريم مقيد.

أما التكريم الخاص الأبدي فهو لكل من آمن بالله من بني آدم ومات على إيمانه، من حين خلق آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فالتكريم العام لعموم بني الإنسان من حيث كونه من بني آدم، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ والله سبحانه قد ميز الإنسان على غيره من المخلوقات بالعقل، والحواس وغيرها كما أسلفت، واقتضت حكمة الله أن ينزل فريق من الناس عن مرتبة الشرف والكرامة التي منحها الله له، وأن يرفض تكريم الله ومنحته وينحدر من قمة التكريم إلى منحدر الهاوية والهبوط الأخلاقي، وأن يستبدل مرتبة السمو العالية بذلك المنحدر الوضيع واستحق بعد التكريم النزول إلى أدنى من مرتبة الحيوانات وبهيمة الأنعام كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:

١٧٩] سبحان الله كيف قنع ذلك الفريق الظالم بعد التكريم والتفضيل ومرتبة التفوق والكرامة، ثم استبدلها بلقب شر البرية! ورضوا بالبعد عن طريق الأنبياء والرسل، وفضلوا السير والمتابعة لعدو الله إبليس لعنه الله فعكسوا الفطرة وحادوا عن سبيل الله.

هذا بالنسبة لمن مات وهو كافر بالله وما أنزل على رسله، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، ونحن نؤمن بالكتاب كله لأنه تنزيل من حكيم حميد، ففي هذه الآية والتي بعدها تكررت كلمة شر الدواب وكلمة دواب تطلق عادة على البهائم من الأنعام، وتشمل الإنسان لأنه ممن يدب على الأرض، وقد يعود التفضيل حسب لفظ الآية هنا لبهيمة الأنعام من الحيوانات، لأنها لم تؤمر بتكليف من الله فرفضته، إذا فما عليها من حساب ولا عذاب.

أما من أراد الله تكريمه من بني آدم فرفض الكرامة وعصى الله في كل شيء رغم ما يراه من البراهين، فقد استحق أن يكون هو من شر الدواب، لأن الله كرمه فرفض التكريم فاستحق أن يكون هو من أحط المخلوقات كلها، وكل مخلوق غير عالم الإنس والجن فهم لا يعصون الله فيما أمر، لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٣-٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ [الحج: ١٨] ، من هنا نجد أن كل شيء

وكل مخلوق من شجر ومدر جامد ومتحرك يسبح بحمد الله بدون تردد، وفي آية سورة الحج أن كل من في السماوات والأرض يسجد لله طواعية وانقياداً، إلا في قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ ويلحق بعصاة بني آدم العصاة من الجن كذلك، فمن حاد وتمرد على الله فحاربه بالمعاصي وصم أذنيه عن سماع الحق ولجم لسانه عن النطق به، فهم لا يعقلون ما يقولون، ولا يعون ما يسمعون، وهذه الصفات هي صفات شرار خلق الله قاطبة، فالعقل المريض والتفكير المنحرف والسلوك الهابط منعهم من تقلد الأوسمة الربانية واستحبوا العمى على الهدى، وسلكوا الطريق المعوج، وتخلقوا بالصفات المعاكسة والمؤهلات التي رشحتهم وهوت بهم إلى الحضيض وانحدروا بها إلى درجة شر الدواب قاطبة، فهم لا يهتدون إلى سبل الرشاد قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]، ومن هنا فقد حكم الله بحكمه العادل الجازم، على جميع من كفر بالله من أهل الكتاب والمشركين وغيرهم ممن بلغتهم الرسالة السماوية وجاءتهم البينات من عند الله على ألسنة أنبيائهم وكفروا بها وماتوا على كفرهم، فاستحقوا أن يكون مصيرهم نار جهنم، ولأنهم شرار الخلق ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولسابق علم الله بأهل الشقاوة الأبدية، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] إن الله هو العليم بنيات ومقاصد وأحوال عباده، وأصحاب القلوب المقفلة، فلو سمعوا واعظ الحق ما استجابوا لندائه لأنهم سلبوا إرادة القبول ولم يحالفهم حظ الهداية لعلمه

المسبق بعدم صلاحهم واستعدادهم لقبول الحق المبين، فقلوبهم وأبصارهم وأسماعهم لا تفقه ولا تبصر ولا تسمع، والحمد لله على العافية ! ومن مفهوم آيتي الأنفال والبينة، أن الذين كفروا هم شر الدواب كلها وشر الخليقة جميعا، فلهم نار جهنم والسبب في كونهم شر البرية أنهم كفروا بالله وأشركوا معه غيره، في حين استثنا المنقادين لأمر الله فأحاطهم برحمته وعطفه فجعلهم خير البرية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧] وبعكس صفات شرار الخلق وما أعده الله للكفار من العذاب الأليم، فقد ميز من آمن بالله إيمان راسخ متصل بالله فقد حازوا على وسام من الله مكتوب عليه خير البرية لأنهم آمنوا بالله واستقاموا على إيمانهم فأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار أبدًا وبدون انقطاع واستحقوا رضوان الله كما وصفهم بأنهم خير البرية.

المبحث الرابع: إبداع الخالق في هيكل الإنسان

ومما يغذي ملكة الإيمان في القلوب التفكر في عجائب قدرة الله تعالى وبديع صنعه في تركيب هيكل العظم للإنسان، فحين خرجت تلك النطفة وهي بيضاء اللون تحولت من نطفة بيضاء إلى علقة حمراء، إلى مضغة لحم، ثم تحولت من شكلها الأول واختلفت في الكم والكيف إلى صورة ثم تحولت بقدرة مبدع الكائنات إلى هيكل عظمي متكامل، والهيكل العظمي هو: شبكة من العظام مترابطة، منها: الطويل والقصير والغليظ والدقيق والمستقيم والمنحني، ومنها: قوائم البدن وهي عبارة عن أعمدة وجسور، مثل: الذراعين والعضدين وعظمة الفخذين والساقين، وقفص الصدر وهي مجموعة الضلوع المرتبطة بسلسلة العامود الفقري المتصل هو الآخر بجمجمة الرأس، وفي أعلى الجسم المنكبان وبهما مجمع رأس الكتفين ورأس الكتف به عظمة العضد وحبل العاتق المتصل بالمنكب إلى عظمة العنق، وفي وسط الجسم الحوض الذي يربط الفخذين مع سلسلة العامود الفقري، والحوض يتكون من مما يسمى بعظمتي الوركين المرتبطة كل واحدة منها بالعامود الفقري، وكأنها عظمة واحدة لكونها ثابتة وغير متحركة تتوسط دائرة الجسم كله، وتربط أعلى هيكل الجسم بأسفله، وبها تتصل الموجات التي تحمل الرجلين كهمزة وصل بين عظام الحوض وعظمتي الفخذين التي يفصلها عن الساقين مفصل الركبة، والركبة هي العظمة الضخمة المرتبطة بالفخذ والساق والفاصلة بينهما، وساق الإنسان يقع بين الركبة ورسغ القدمين، وهو المفصل الذي يربط الساق بالقدم، وركبة الإنسان في رجليه بعكس ركب كل ذي أربع من الحيوان فإن ركبتيه في يديه، وكعب الإنسان هو العظم البارز من

جانبي الساق في أسفل العظم الملتصق بالرسغ عند ملتقى الساق والقدم، قلت: أما القدم فهو قاعدة الجسم الأساسية التي يرتكز عليها في قيامه وقعوده وسيره، إن هذا الهيكل العظمي المرتبط بالجهاز العصبي وقد كسا الله تلك العظام والأجهزة وهي شبكة الهيكل العصبي المكونة من الأربطة بحبال تربط عضلات الجسم بالعظام، ثم يشدها برباط من اللحم وقَوَّاه بالعصب والعروق والخلايا، بعد أنْ نفخ فيه الروح، وسربل سطح ذلك الجسم الخارجي بغطاء الجلد وهو غطاء غير قابل للاختراق بواسطة الماء والغازات، كما يمنع الجراثيم التي تعيش على سطحه من دخول إلى الجسم، وهو قادر بأمر الله على تحطيم تلك الجراثيم بمساعدة المواد التي تفرزها غدد الجلد، فالخلايا القابلة للمس المبعثرة على سطح الجلد تحس بالضغط والألم، والحرارة والبرودة، فسبحان موجد الخلق ومبدعه.

ومن دلائل إحكام الصانع في هيكل الإنسان مثل الجهاز العظمي والمفاصل، والجهاز العصبي وعضلاته التي تعتبر سقالة تربط الأعضاء ففي القفص الذي يتكون من سلسلة العمود الفقري والضلوع وعظمة الصدر يوجد القلب والرئتان، أما الكبد والطحال والكليتان والمعدة والأمعاء والبنكرياس والغدد الجنسية، فهي تعتمد على تجويف كبير يكون الحوض قاعدته وتكون عضلات البطن جوانبه وسقفه الحجاب الحاجز في أعلى الصدر.

أما أكثر الأعضاء التي تكون عرضة للإصابات وهما: العقل والنخاع، فقد غُلفا بصناديق عظمية صلبة، هي الجمجمة وسلسلة العامود الفقري، ويحميها نظام الأغشية ووسائد من السوائل من جدران الجمجمة وسلسلة العامود الفقرية، وخلق المولى القدير سبحانه لجسم الإنسان اتحادًا هائلا يجمع مختلف أنواع الخلايا

التي يتكون كل نوع منها من ملايين الأفراد ومن أحد جانبي الجسم إلى الجانب الآخر يحدث اتصال الخلايا بواسطة إفرازاتها، وعلاوة على ذلك فإنها متحدة بواسطة الجهاز العصبي.. وتكشف الفنون العملية عن اتحاد الخلايا، وقد أثبتت هذه الفنون أن تلك المجموعات الخلوية على أعظم جانب من التعقيد.هكذا قال الأطباء. فسبحان من أتقن وأبدع وخلق فسوى، وفيما يلي التفصيل وبالله التوفيق.

المبحث الخامس: الرأس وما وعى

وهناك الرأس وما وعى، وفيه النخاع وهو المخ المغلف بحائط الجمجمة الصلب، ليحفظ الله به المخ مما يحدث من إصابات أو تلوث أو شيء من ذلك، وكسا الجمجمة وجملها بنبات الشعر ليكون غطاء وموضة تجميل إلهية، وقد وضع الله الرأس في أعلى مكان من الإنسان وأعلى شأنه، وكأنه المشرف العام على كامل الجسد وميزه بميزات لا تتوفر في غيره من أقسام الجسم، فخصه الله بأن جعل فيه كل الحواس الخمس، من سمع وبصر وفؤاد ولمس وشم وذوق ولسان وشفتين، وهواجس التفكير والعقل المدبر والفكر النظيف والذاكرة الحية وألهمها كيف تكتنز معلومات ومعلومات؟ وكأنها مستودع إرشيف للمحفوظات التاريخية، وألهمها زمن إيداعها وماهيتها.

وما خلق الله من المجاري في الفم والأنف والعينين والأذنين، وكلها تلك المعامل والآلات الآلية التي هي من عجائب قدرة الله وهي ضرورية لصحة الإنسان وراحته.

ومن عجائب صنع الله، أن جعل في الرأس سبعة منافذ، ترتكز حياة الإنسان على وجودها وسلامتها، وخلق غضروف العامود الفقري الممتد من قمة الرأس إلى عجب الذنب في أسفل سلسة العامود الفقري وجعل من ضمنه الرقبة التي هي عبارة عن قاعدة وعمود صلب لحمل الرأس المزودة بغضروف آلي ركبها بمفاصل ملفوفة لتسهيل لي العنق ليسهل بواسطتها اكتشاف ما حول الإنسان من اليمين واليسار ورفع الرأس إلى أعلى والنظر إلى أسفل بدون تكلف ولا مشقة وبدون أن يدير الإنسان جسمه كاملاً.

وجعل الرقبة عبارة عن سلسلة من الفقرات المجوفة بها المخ المتصل بالدماغ من خلال عمود الظهر وهو ما يسمى بالعمود الفقري، وجعل الوجه في الأمام من الرأس وأعلى شيء من الوجه عظمة الجبينين تتوسطهما الجبهة، والجفنان والوجنتان وخطوط الملامح الجميلة وقسمه بالأنف، وخط فيه من المنافع والمنافذ ما يبهر العقول.

المبحث السادس: السـمع

ومما أودع الله في الرأس نعمة السمع، وكيف بحاسة السمع هذا الجهاز المركب ضمن تخطيط رباني محكم؟ كيف يلتقط ذلك الغضروف الحس من مكان بعيد، ويفصل بين نبرات الصوت وتقاطع الحروف والكلمة ومعرفة معناها؟ وقد جعل الله حاسة السمع هي الحارس الثاني للجسم بعد العين، فالسمع يكشف ما يرى وما لم ير بالنظر، وجعل الأذن بريد القلب لإدخال ما يحدث في خارج الجسم إلى القلب ملك الأعضاء، كما أن اللسان هو بريد القلب بما يصدر عن القلب إلى خارج الجسم.

وجعل شكل الأذن مجوف الشكل، ليكون مهيأ لتسهيل تأدية الواجب حيث تم صنعها بذلك التجويف المحكم، وأودع فيها منعطفات لتجميع الأصوات والنبرات وتنظيمها لتصل إلى الصماخ ويعيها المخ مروراً بذلك الغضروف المجوف، أما ذبذبات الهواء فتؤثر في ذلك الجهاز شديد التعقيد للأذن الداخلية بواسطة طبلة الأذن وعظام الأذن الوسطى، أما شبكة أعصاب الشم فتتأثر بالروائح.

ومن كمال حكمة الله في تعريج منفذ الأذن على هيئة حلزونية، ليكون ذلك التعريج عائقاً دون تسلل الحشرات إلى داخل الأذن حتى يحس الإنسان بدخول عدو من خارج الجسم فيتقيه، ومن تمام النعمة أن أمد الأذن بسائل صمغي مُر المذاق شديد المرارة، بحيث يمنع الداخل من الحشرات أن تخترق طبلة الأذن وتتوغل في أعماقها، عندها تضطر الحشرة الداخلة أن تعود من حيث أتت، وهذه هي فطرة الله وإبداعه في صنع الأذن أن جعلها بذاك الشكل الملفوف لتنظيم الصوت ومنع لفح الهواء ووقايتها من كل أذى محتمل.

المبحث السابع: نعمة البصر

ومن رحمة الله بمن خلق أن كساه بنعم لا تعد ولا تحصى، وجعل منها نعمة العينين وما تحويه من البصر، كما يتعرض جزء الجلد الذي يغطي الشبكية الصغيرة لتعديلات مدهشة إذ يصبح شفافاً وتكُونُ القُرنية والعدسات الشفافة، كما يوجد مع الأنسجة الأخرى لإنشاء الجهاز البصري المتكامل الذي نطلق عليه اسم (العين) قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴾ [البلد: ٨].

(ثم يتحول إلى قُرنة وعدسة العين ليكون مرتبطًا بجزء المخ للعين والحويصلة البصرية، وقيل: إن شكل العدسة يعدل نفسه آليا للرؤية القريبة والبعيدة)، وكيف بالبصر الذي هو الآخر آية من آيات الله الباهرة، وعجائب قدرة الله سبحانه، فهو آية نورانية لا تُرى بمجرد البصر ولا يدرك بحاسة اللمس، فحين يرسل النظر فيكشف البعيد ويشخص كنهه ولونه دون أن تكون له مادة محسوسة وجسم مشاهد، فالعين التي بها البصر قد وضعها الله في أجمل موضع من الوجه، حيث خطها في مقدمة الوجه وأعلاه من الأمام، وكأنها حارس للجسم كله تكشف للإنسان كل ما حوله وكل ما يليه، ويرى كل ما ينتهي إليه بصره من مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها، وما ارتفع منه في طبقات الجو الفسيح، ومنها: رؤية الشمس والقمر والكواكب وعموم أصناف المخلوقات التي يقع عليها بصره ويدركها، فتنبهه إلى المنافع وترشده إليها، وتحذره من الوقوع في المخاطر المحيطة به لئلا يقع فيها، ووضع العدسة بالنسبة للعين كرأس للجسد أو القلب لبقية الأعضاء، لأن النظر يكمن في العدسة الصغيرة التي هي جزء من أجزاء شبكة العين، وقد أودع الله فيها تلك الآية الباهرة وذلك الضوء الكاشف، إن

تلك العدسة وهي الصغيرة في حجمها الكبيرة في نفعها قد منحها الله للإنسان لكمال نعمه وتفضله على عباده.

كما أحاط الله تلك العين وحماها بسياج منيع من العظام الصلبة، وهي عظمة الجبهة والجبينين وعظمة الوجنتين، وزينها بالحاجبين وأحاطها بطبقات من الأجفان والأهداب، وأودع فيها خفة الحركة وهي حرس للعين وأداة تجلية للبصر وآلات تنظيف للعدسة من الأذى والقذى والغبار، وقد أسدل الله على العين من الحُسن والجمال والروعة ما جعل جمالها يكون متمماً لجمال الوجه وحسن الصورة، حتى إن أبلغ ما قيل من شعر الغزل في وصف جمال العين، كما وصفها جرير بأغزل بيت قالته العرب حيث قال:

إن العُيونَ التي في طرفِها حَورٌ ... قَتلْننَا ثُمَّ لم يُحيينَ قتلانَا

يَصْرعنَ ذَا الُّلب حتى لا حراكَ به ... وهُنَّ أضعفُ خلقِ الله أركانَا

وقال علي بن الجهم:

عيونُ المها بينَ الرَّصافَةِ والجسر

جلبنَ الهوَى من حيثُ أَدْري ولا أَدري

والبصر هو من أعظم النعم التي امتن به الله على مخلوقاته، فله الحمد والشكر على نعمه التي لا تعد.

المبحث الثامن: من أفضل السمع؟ أم البصر؟

جهازا السمع والبصر آيتان من آيات الله، إن آية صنع الله تمثل في هذين الجهازين المتوازيين والحيويين بالنسبة للإنسان وغير الإنسان، وهذه الشفافية، ورقائق صنع الله في تركيب العين وتقويتها بالأعصاب لتدرك المرئيات، وتركيب الأذن وما أودع الله فيها، وكيف تدرك نبرات القول وذبذبات الصوت، كل ذلك يزيد الإنسان قوة يقين وإيمان وثبات بعظمة من وهب هاتين الآيتين الدقيقتين والمعجزتين الخارقتين المحيرتين لتفكير الإنسان القاصر، وليس في الوجود لصنع الله معجزة ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] لا يعجزه شيء، إن صنع الله وتركيب كل جهاز من هذه الأجهزة الدقيقة في موضعه هي منحة وهبها الله للإنسان، ومعلوم أن نعمة السمع لسماع ما يدور في فلك الإنسان والبصر الذي يكشف محيط الإنسان من خير فيحتضنه ويتلقاه، ومن شر يبتعد عنه ويتوقاه، فسبحان الذي قدر فهدى، إن هذين الجهازين المتوازيين السمع والبصر قد نزل ذكرهما في عدد من سور القرآن متتابعين.

ويأتي ذكر السمع قبل ذكر البصر ففي سورة يونس قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، وقال: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠] وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:

٣٦] وقال جل شأنه: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٩] ، وقوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣]، وكم حاول كثير من أهل العلم معرفة ترجيح الأهم بالنسبة للإنسان هل هو السمع؟ أم البصر؟

قال ابن القيم في كتاب بدائع الفوائد: «أيهما أفضل السمع أم البصر؟

اختلف ابن قتيبة وابن الأنباري في السمع والبصر أيهما أفضل، ففضل ابن قتيبة السمع ووافقه طائفة، واحتج بقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يونس: ٤٢ – ٤٣]، قال: فلما قرن بذهاب السمع ذهاب العقل، ولم يقرن بذهاب النظر إلا ذهاب البصر كان دليلاً على أن السمع أفضل.

قال ابن الأنباري: هذا غلط، وكيف يكون السمع أفضل وبالبصر يكون الإقبال والإدبار والقرب إلى النجاة والبعد من الهلاك، وبه جمال الوجه وبذهابه شينه، وفي الحديث: «**مَنْ ذَهَبت كَرِيمَتَاه فَصَبرَ واحْتَسبَ لم أَرْضَ له ثَواباً دُونَ الجَنَّة**»[(١)].

وأجاب عما ذكره ابن قتيبة بأن الذي نفاه الله تعالى مع السمع بمنزلة الذي نفاه عن البصر، إذ كأنه أراد إبصار القلوب ولم يرد إبصار العيون، والذي يبصره القلب هو الذي يعقله لأنها نزلت في قوم من اليهود كانوا يستمعون كلام النبي ﷺ فيقفون على صحته ثم يكذبونه فأنزل الله فيهم: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ﴾ [يونس: ٤٢]، أي المعرضين، ولو كانوا لا يعقلون ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾[يونس: ٤٣]

(١) رواه أبو يعلى (٢٤٥٧) والطبراني في الكبير (١١٨١٦) وصححه ابن حبان (٢٩٣٠).

بعين نقص ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ أي المعرضين ولو كانوا لا يبصرون. قال: ولا حجة في تقديم السمع على البصر هنا، فقد أخبر في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤].

قلت: واحتج مفضلو السمع بأن به ينال غاية السعادة من سماع كلام الله وسماع كلام رسوله، قالوا: وبه حصلت العلوم النافعة. وقالوا: وبه يدرك الحاضر والغائب والمحسوس والمعقول، فلا نسبة لمدرك البصر إلى مدرك السمع.

قالوا: ولهذا يكون فاقده أقل علماً من فاقد البصر، بل قد يكون فاقد البصر أحد العلماء الكبار، بخلاف فاقد صفة السمع، فإنه لم يعهد من هذا الجنس عالم ألبتة.

قال مفضلو البصر: أفضل النعيم النظر إلى الرب تعالى وهو يكون بالبصر، والذي يراه البصر لا يقبل الغلط، بخلاف مايسمع، فإنه يقع فيه الغلط والكذب والوهم، فمدرك البصر أتم وأكمل. قالوا: وأيضاً فمحله أحسن وأكمل وأعظم عجائب من محل السمع، وذلك لشرفه وفضله.

قال شيخنا: والتحقيق أن السمع له مزية والبصر له مزية، فمزية السمع العموم والشمول، ومزية البصر كمال الإدراك وتمامه، فالسمع أعم وأشمل والبصر أتم وأكمل. فهذا أفضل من جهة شمول إدراكه وعمومه، وهذا أفضل من جهة كمال إدراكه وتمامه»[1].

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٦٨٥.

المبحث التاسع: الأنف، والفم

(الأنف) ومن الأجهزة النافعة الجمالية الأنف حيث رسمه الله في مقدمة الرأس، وقسم به الوجه الذي هو أجمل منظر في الإنسان، وهو علامة التعريف المميزة فانظر كيف رسمه وكمل به جمال الحسن بالوجه؟ وكيف صوره بأبهى منظر من الجسم، ثم قسمه بحاجز غضروفي، وجعله مجريين للتنفس واستنشاق الهواء الطلق النافع، ليتصل عبر القصبة الهوائية إلى الرئة، ثم إلى القلب فيتروح به ويتغذى، وجعله مصباً منحدراً مستقيماً بدون اعوجاج حتى يسهل منه خروج فضلات الدماغ، ثم هو كذلك يضخ عبر التنفس ما دخل من الهواء ثم يعيده إلى خارج الجسم بنظام صحي آلي ليقذفها خارج الجسم لئلا يتأثر الدماغ، وكذلك مد الأنف بمادة نخامية، وجعله منفذاً لخروج المكروب من الدماغ، يرسله بواسطة العطاس بدفع قوي حتى ينظف المجرى من التلوث، خصوصاً في حال الزكام وغيره، وأودع الله في الأنف حاسة الشم التي يميز بها أصناف الروائح المختلفة الطيبة منها والخبيثة إلى غير ذلك، كما ميزه بالضيق في أعلاه مما يلي الجبهة وبسعة منفذه من أسفله لئلا يكون سببًا في نشوب الفضلات النازلة من الدماغ، فلله الحمد على فضائله التي تفضل بها ومنحها، وله الشكر على ما أسداه من عظيم النعم.

وفي الفم وما ضم من المنافع، والفم شق في وسط الوجه مما يلي أدناه وضعه الله في أجمل مكان بالوجه ليتمم به كمال الصورة بتقدير وإبداع بديع السماوات والأرض، فتبارك الله أحسن الخالقين، والفم هو البوابة الرئيسية للبطن، ومنه دخول الطعام والشراب والتنفس، ومن خلال ذلك المجرى ينفذ إلى جهازي الهضم والتنفس

للغذاء والهوى، وهذا المجرى ينتهي العبور منه إلى خارج الجسم بواسطة الشرج، وفي الفم من المنافع الرئيسية اللسان الذي به حاسة الذوق وتمييز مذاق المأكول من الطعام والمشروب وتقليبه في الفم وترديده تحت الأضراس لطحنه وهذه العملية تتم بواسطة اللسان قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٨-٩] واللسان الذي هو قطعة من اللحم ليس به عظم ولا عصب، وقد كساه الله بسائل من اللعاب السائل حلو الطعم، وليقيه من التجفف ليؤدي وظيفته، لكونه إذا نشف من الرطوبة يعجز عن تأدية عمله وتضعف حركته عند الكلام والمضغ وغير ذلك.

ومن فوائد اللسان مع بعض أجزاء الفم مخارج الحروف وتفصيل الكلام ومقاطعه، وكم للسان والحنجرة وجهازهما العصبي المرتبط بهما من الفضل في قدرة الإنسان على التعبير عن أفكاره، وكم في هذا الجهاز من المميزات والفضائل على جميع المخلوقات، كيف لا وهو المعبر عن كل ما يجول في فكر الإنسان، وهو الترجمان الذي يعرب بالكلام حين ينبعث الصوت بتفصيل القول المعبر عن مدى ثقافة الإنسان وحضارته، يرتل القول ويبسطه ليفهم السامع قصد المتكلم، لأن الكلام إذا لم يصدر تقاطعه من اللسان مع بقية المخارج فإنه لا يعرف مضمونه إلا صوتاً مسموعاً بلا معنى، وقد حفظه الله حين وضعه داخل الفم ليكون محفوظاً من العوامل الخطيرة الداخلة عليه، لكونه لحمًا صرفًا لا يقوى على المقاومة، وقد أحاط الله اللسان بأربعة أسوار وهما: الفكان الأعلى والأسفل، بما أودع الله فيهما من الأسنان والأضراس والنواجذ، وأحاط الجميع بالشفتين وهما: البوابتان الرئيسيتان للفم، وتلك الأسوار جعلها الله لحراسة اللسان الذي هو ترجمان القلب والمبلغ عنه، وهو مصدر المعلومات الصادرة من القلب، الفكان الفك

الأعلى وهو ثابت بالرأس وهب الله فيه نعمة الأضراس والنواجذ والأسنان، أما الفك الأسفل فهو الآخر تزينه الأضراس والنواجذ والأسنان، وهذا الفك الأسفل اقتضت حكمة الله أن جعل فيه اللحيين ويسميان بالعارضين، وصنع في نهايتها مفصلاً آلياً يتحرك عند الكلام ومضغ الطعام والتثاؤب بحركة طبيعية ليس فيها تردد ولا مشقة ولا كلفة، ووظيفة الأضراس مضغ الطعام وطحنه ليسهل على المعدة هضمه وحصول الفائدة للجسم من الغذاء، والأسنان والنواجذ وظيفتها القطع، وهي زينة براقة جمالية للفم تشبه في دقتها وجمالها بياض اللؤلؤ ولمعانه، وكثيراً ما يتغنى الشعراء بجمال الأسنان ولمعانها، كقول الشاعر كعب بن زهير في قصيدته الشهيرة بـ (بانت سعاد) يصف ما تتصف به محبوبته الخيالية، وكأنه يشبه الدنيا والركون إليها بالمحبوبة الوهمية التي لا تدوم على حال من الود والصفاء، وهي لا تعرف الوفاء وقد أنشد هذه القصيدة في حضرة النبي ﷺ يذكر محبوبته وما وهبها الله من الجمال، ومن أبرز مفاتنها جمال أسنانها حين يعلوها الريق الخفيف الذي يظهر نصاعة بياضها ليكسوها رونقاً من الحسن وروعة المنظر، فسبحان من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

ومنها قوله:

تجلُو عوارضَ ذِي ظَلْمٍ إذا ابتَسَمت
كَأَنَّه منهلٌ بالرَّاحِ معلولُ

وقال جرير: يتغزل هو الآخر:

أتذكُّرُ يومَ تَصقُلُ عارضِيها بفَرعِ بشامةٍ سُقِيَ البُشامُ

ففي بيت جرير يصف جمال الأسنان بعد تنظيفها وصقلها بسواك البشام ويدعو الله بأن يسقي تلك الشجرة لما فيها من المنافع، والبشام شجر معروف ينبت في جبال تهامة وشعابها وفي ديار أخرى يؤخذ منه السواك، ولا ينبت البشام في جبال السروات، فقد ورد ذكر البشام في عدة مواضع من ديوان جرير منها.

وقوله: أي جرير

سَقَى اللهُ البَشَامَ وكُلَّ أرضٍ ... من الغورين أنبتت البشَاما

وقوله:

أتنسَى إذ تُودعنا سُليمى ... بفرعٍ بشَامةٍ سُقِيَ البشامُ

وقوله:

فَما عَصماءُ لا تخنُو لإلف ... ترعّى في ذَرى الهضب البشَاما

المبحث العاشر: آية الله في جمال الصوت

ومن المنافع الموهوبة للإنسان الصوت الذي ينبعث من طريق الفم، فالصوت المنبعث من جوف الإنسان عبر الحنجرة مروراً باللسان فيصك الأسماع بوضوح تام، ومن كمال آيات الله أن الحنجرة وهي أقصى الحلق قد زودها الله بآلة آلية تفرز الحس وتميزه بحيث يميز صوت فلان هذا من غيره والتمييز بين صوت الرجل وصوت المرأة، وصوت الكبير وصوت الصغير، ويميز صوت كل إنسان من غيره، والصوت هو الآخر مادة شفافة مخفية لا يُدرك هيكله حتى من يصدر عنه، وهو صاحبه الذي يطلقه ولا يشاهد بالنظر، وليس له جسم أو لون من الألوان، والصوت يوجد بينه وبين الرياح تجانس بسيط إلا أن الريح لها صوت يسمع ويرى أثرها حين ترتطم بجسم حائط أو شجرة أو تثير غباراً، وفي غير ذلك لا يرى كنهها، أما الصوت فإنه يسمع ولا يرى أثره: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١].

إن بين السمع والنظر والصوت تجانس بديع، وهذه الآيات وهي الحواس الخمس وهي مجتمعة كلها بالرأس، إلا أن هذه الحواس الثلاث المعجزة تضم إلى آيات الله الدالة على عظمته وإبداعه وقدرته الحكيمة فسبحان الله الخالق المبدع، وذلك: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٨].

المبحث الحادي عشر: عجائب قدرة الله في منافع اليدين

اليدان هما الدرع الواقي لكل الجسم وهما السلاح القوي القاطع للإنسان، وما وضع الله في اليدين من خلق وتصريف يعتبر آية، ومن كمال القوة أنها ترتبط بعضلات على طول العظام تتصل بنهاية الذراع، فتنحدر تلك العضلات المركبة لتحرك اليد والأصابع وهي قوة ودعامة لسلطان اليد بكاملها، ومن عظمة صنع الله أن أودع بها خلايا عصبية حساسة تنبئ بحركات لا شعورية وانعكاسات على حركة اليدين.

وكذلك العينان، فحينما يحوم حول العين أو اليد من خارج الجسم إشارة، فإن ذلك يولد شعوراً يجعل العين ترمش لتدرأ ما تشعر أن هناك طارئاً قد حام حولها، وكذلك الانعكاس الآلي لليدين حين يحوم حول الجسم ما تشك أو تخشاه، فعندها يختلج انعكاس لاشعوري أن هناك ما يشبه الخطر يحوم حول اليد أو الجسم، عندها تتحرك اليد بسرعة وكأنها تدفع خطراً داهماً عليها، لأن الخلايا العصبية مسؤولة عن تلك الانعكاسات.

ومن جمال صنع الله في اليد أن ميزها بميزة تختلف عن بقية الأعضاء الأخرى، فلو نظرنا إلى شكل جلد اليد لوجدناه فريداً ويختلف عن بقية جلد الإنسان، وكيف جعله الله خشنًا ليقوى على اللمس ومزاولة الأعمال التي لا تتم إلا بصنع اليد.

والإنسان بدون اليدين مثله مثل آلة صماء، فكل حركات الإنسان وأعماله تتوقف على حركة اليدين وصلاحهما، وقد وضع الله اليدين بأعلى الجسم بعد الرقبة والمنكب الذي هو مجتمع رأس الكتف وبه عظم العاتق، وهو العظم المتصل

بين المنكب وعظمة العنق فاليدان تبدآن من الكتفين، والكتف عظمة عريضة يحمل اليد بكاملها ثم يلي الكتفين الساعدان، والساعدان عظمتان ملفوفتان شبه اسطوانة بهما تجويف صغير به المخ، والساعد مرتبط من أعلاه بالكتف ومن أسفله بالمرفق ذلك المفصل الدوار كأنه كما يسمى في عصرنا الحاضر «رمان بِلِّي».

ثم يلي المرفقين عظمة الذراعين، وعظمة الذراع الواحد عبارة عن عظمتين متقاربتين تعرف بالقبيلين، ويلي الذراعين الرسغان وهما المفصلان بين الذراعين والكفين، والكف الواحد هو المشط يسمى الزند، وهو مجموعة من العظام دقيقة ومتقاربة، إذا لم تكن ملتحمة يجدها من جهة الإبهام الكوع، ومن جهة الخنصر الكر سوع وما بينهما الزند كما أسلفت.

ثم ركَّب الله على الزند الأصابع الأربعة، السبابة والوسطى والبنصر والخنصر وجعل لكل أصبع ثلاثة مفاصل، ليكمل الانتفاع بها حين الأخذ والعطاء والقبض والبسط، وتوج كل واحد منها بالأظافر والأنامل، وجعل لكل أصبع حجمًا وشكلاً يميزه عن غيره، ليكمل بوضعها كمال الخلقة وجمال اللون، ولتمام المنفعة يقابل الأصابع الأربعة، الإبهام الذي قاعدته ترتكز على الكوع، وجعل حجمه أغلظ من حجم بقية الأصابع، وجعله منفرداً ومستقلاً مقابلاً للأربعة لمصلحة الأخذ والعطاء والقبض على المقبوض عليه، وجعل له مفصلين بخلاف بقية الأصابع، وكساه ببصمة عريضة وظفر عريض، وجمله بأبهى منظر وجعل فيه القوة لمساواته ببقية أصابع اليد، فسبحان من وضع كل شيء في موضعه بنظام وإتقان.

(ومنافع اليدين) لا حصر لها، وجل إذا لم يكن كل أعمال الإنسان تتوقف على حركة اليدين، وهي قمة المنافع الضرورية للإنسان، فقد يصبر الإنسان على

فقد العينين ولا تعوضه العينان عن اليدين، وكذلك قد يعيش الإنسان إذا فقد رجليه، ولكنها تصعب عليه الحياة بغير اليدين لأن كل شيء في حياة الإنسان يتوقف على منافع اليد، وهي قادرة على صنع كل مصنوع توصل إليه علم البشر في القديم والحديث، وليس بوسع إنسان أن يصنع أو يخترع أو يعمل أي عمل أو يسير أي مادة علمية كبيرة كانت أو صغيرة إلا بواسطة اليد. فبها يعطي، وبها يأخذ، وبها يأكل، وبها يشرب ويمسح بها الوجه وسائر الجسد ويميط بها الأذى وبها يتطهر ويلبس الملابس ويخلعها، وبها يصول ويجول ويدفع بها العدو الصائل، ويبطش بها، ويمسك بها القلم ليكتب ويمحو ويسبح بأنامل اليدين ويبسط الكفين ليستدر بها لطف الله ورحمته ورضوانه، وباليدين يكتب بالآلات الطابعة وبالحاسب الآلي.

وباليدين يصنع الطعام وينسج ويصنع المتاع، ويمسك العتل والمعاول ليحطم بها الصخور ويقطع الشجر ويبذر الحبوب ويحصد الزرع، ويشيد بها البناء ويهدم ويستعين بها في القيام والقعود وكذلك يستعين على ركوب الدابة والترجل عنها، وباليد يعالج المريض، ويرفع وينزل بها كل الأغراض.

إن تلك الآلة الآلية وهي اليد تتوج في نهايتها بتلك العظام النحيلة المختلفة الأحجام والتي تضم الزند وهو الكف وما يتصل به من الأصابع التي تباشر كل الأعمال دقيقها وجليلها، وهي مع نحفها ودقتها عبارة عن مقارص وعتل تعتل بها وتصنع بها الآلات الثقيلة والخفيفة، تلك الأنامل مع الأظفار المتوجة لأصابع اليد سخرت للتحكم في لقط كل ساقط دقيق مثل الحبة الصغيرة المطمورة بالأرض والخيط الرفيع والإبرة والشعرة وما دون ذلك، واليد كذلك تمسك العتلة الضخمة

والمعاول وتحطم بها الصخور الصلبة، وبها تصنع السكين والخنجر والسيف والرمح والدروع، وباليدين مع تلك الأصابع النحيلة المختلفة الأحجام بها يصنع السلاح بجميع أنواعه المختلفة، بما فيها القنابل والصواريخ وصنع الطائرات والسيارات والدبابات والمدرعات وقيادتها، وإصلاح أي عطب طارئ بها، وباليد تستعمل تلك المصنوعات جميعًا، فهي السبب المباشر في صنعها واستعمالها، وما اخترعت آلات المصانع إلا بواسطة تلك الأنامل الدقيقة، ومنها مسك القلم واستعماله وريشة الرسام وما يبدعه من رسم اللوحات الفنية، ومن آية الله في اليدين آية البصمات أي البنان وهي أطراف الأصابع، فالمعجزة فيها أن بصمة كل إنسان لها ميزة عن بصمة غيره وعلامة تميزها عن غيرها، ولا يمكن أن تطابق بصمة إنسان بصمة غيره وقد أثبته علم البصمات، وهذه تضم إلى آيات الله في خلق الإنسان، فسبحان من خلق كل شيء ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠] ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]. قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ في وصف الأصابع الدقيقة وهيكل جمالها: لو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق أفكارهم وضعاً آخر للأصابع سوى ما وضعت عليه، لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً» انتهى[1].

وبالجملة فإنه لا يتم أي عمل للإنسان مهما كان نوعه وحجمه إلا باليد وعن طريقها فسبحان من منحها للإنسان وقواه بها وزينه بزينتها، فتبارك الله أحسن الخالقين.

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ١٩٢.

المبحث الثاني عشر: البطن وما حوى

وكذلك ما أودع الله في البطن من الأسرار الباهرة، من مجاري الأكل والشرب، ونظام التنفس والهضم وامتصاص الأمعاء لفضلات الطعام، وعجائب صنع الله في الدورة الدموية ومجاريها من الأوردة التي تصب في القلب الذي هو ملك الأعضاء، لأنها بصلاحه تصلح جميع الأعضاء وبفساده تفسد، وانظر الحديث، عَنْ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**الحَلالُ بَيِّنٌ وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إِنَّ حِمَى الله فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[١].

وظيفة الشرايين: تقوم الشرايين الغنية بالأكسجين يدفعه من القلب إلى أجزاء الجسم، ويعود دم الوريد من العضلات والأعصاب بعد أن يكون مملوءًا ببعض الحوامض وفضلات التغذية، فتدفعه نبضات القلب إلى شبكة الرئة الهائلة فتتصل كل كرة حمراء بأكسجين الهواء الجوي، وهكذا دواليك.

وفي كتاب الإنسان ذلك المجهول يذكر: إن سرعة الدورة الدموية كبيرة بدرجة تكفي للحيلولة دون تمكين دهنات الأنسجة من إحداث أي تعديل في تركيب الدم، إلى أن قال: ويحتفظ الدم بثبات تركيبه بمروره المستمر خلال الأجهزة حيث يُنَقى ويسترد المواد المغذية التي تزيلها الأنسجة.. وعند ما يعود الدم الوريدي من العضلات والأعضاء يكون مملوءًا بحامض الكربونيك وفضلات التغذية،

---

(١) رواه البخاري (٥٢) واللفظ له، ومسلم (٤٠٤٨).

وعندها تدفعه نبضات القلب داخل شبكة شعيرات الرئة الهائلة، وهناك تتصل كل كرة حمراء باكسجين الهواء الجوي. وهذا الغاز بالتطبيق لقوانين طبيعية – ينفذ من الدم ويستولي عليه هيموجلوبين الكرة الحمراء. وفي الحال يهرب ثاني أكسيد الكربون بداخل الشعب، ومن هناك يُطرَدُ إلى الجو الخارجي بواسطة حركات التنفس. وكلما زادت سرعة التنفس ازداد نشاط المبادلات الكيمائية بين الهواء والدم إلا أن الدم يتخلص أثناء مروره في الرئتين، من حامض الكربونيك فقط، ولكنه لا يزال يحتوي على أحماض غير سريعة التبخر، وجميع الفضلات تجدد الخلايا، أي بأمر الله تعالى، فتتم تنقيته أثناء مروره في الكليتين، إذ أن الكليتين تفصلان مواد معينة عن الدم، وهذه المواد تُطردُ خارج الجسم في البول. كما أنهما تنظمان أيضاً كمية الأملاح اللازمة للبلازما حتى يظل توترها الاسموزي مستمراً، وعمل الكليتين والرئتين على أعظم درجة من الكفاية، ونشاط هذه الأعضاء المفرط هو الذي يسمح (بأمر الله) ببقاء الوسيط السائل اللازم للأنسجة الحية بالبقاء محدداً على هذا النحو، كما يسمح للجسم الإنساني بالاتصاف بهذا التماسك والنشاط، انتهى، فسبحان من أبدع !.

وما يخص بقية الشرايين من الدورة الدموية وفق شبكة من المجاري والخلايا الدقيقة الربانية، لتصل بقدرة الله دورة الدم إلى كل جزء من الجسم، وهذا المصنع الرباني يتم تشغيل الدورة الدموية به من حين نفخ الروح في الجنين وهو في الشهر الرابع ببطن أمه، فتبقى في دورتها المستمرة لا تتوقف تلك الشبكة وذلك الضخ المتواصل مروراً عبر ملايين الخلايا من أول دورة دموية هناك، إلى أن تسلم الروح لخالقها وباريها وترتفع إلى من أوجدها في البداية. ومن إتقان الله لخلق الإنسان ولطفه أن خلق له مجاري نافذة لمرور الغذاء من أكل وشرب، عبر البوابة الرئيسية بدايتها من الفم وهذان المجريان للدخول إلى داخل الجسم فقط إلا إذا حدث

تفاعل في المعدة غير طبيعي فعندها يذرع الإنسان القيء لخروج ما سبب التفاعل وهذا يعد حالة طارئة، وهناك مجرى للتنفس فهو يستنشق الهواء الطلق المفيد من خارج الجسم ويدفعه إلى داخل جوف الإنسان، وكذلك يسحب النفس غير المفيد لمجاري التنفس ويقذفه خارج الجسم.

ودخول الطعام والشراب يبدأ بآلة عجيبة وهي اليد، فتقذف اللقمة من الطعام في فتحة الفم فيتلقاها اللسان ذلك العضو الهام ثم تطبق عليها الفكان والشفتان، فيديرها اللسان لآلات تقطيعها وطحنها، وهي الأسنان والنواجذ والأضراس، وبعد طحنها جيداً يتم بلعها عن طريق البلعوم وبقية الحوايا لتستقر بالمعدة، وللطعام والشراب مجرى وطريق إلى جانب طريق النفس فينزل الطعام والشراب، ويصعد النفس فلا يلتقيان ولا يتأثر أحدهما بالأخر مع كونهما متلاصقين، وليس بين مجرى الطعام والشراب والنفس أي صعوبة أو مشقة، لأن حكمة الله في صنع الخلايا العصبية جعلها مسؤولة عن انعكاسات النفس والبلع وكل من مجرى الطعَام والشراب، والنفس له مجرى مستقل، والخالق سبحانه قد جهز الجسم بخلايا غددية تنظم علاقاتها بالعامود الفقري والعقل ونشاط الأمعاء مع نشاط العضلات، فتتصل بواسطتها بالعقد المحيطة بالأوعية البطنية وتعمل لتقسيم الغذاء على جميع أنحاء الجسم، فلا يبقى إلا الفضلات التي لو بقيت لأضرت بالجسم، فتخرج من المخرج الرئيسي وهو الشرج الذي خلقه الله رحمة منه لخروج فضلات غير نافع بقاؤها، فسبحان من خلق وقدر!

المبحث الثالث عشر: الرجلان

الرجلان هما الدعامة والقاعدة الأساسية لحمل جسم الإنسان وهما وسيلة للنقل والحركة والجري والسباحة والسياحة والقفز والسباق، ومن ميزة الرجلين ضخامة العظام فهي قوية وغليظة لكونها تحمل ثقل الإنسان وما يحمل، وهي عبارة عن قوائم أعمدة تقل الجسم وتنقله، ومن البديهي أن الإنسان لا يستطيع أن يبرح مكانه إلا بواسطة مشيه على الأرجل، مسرعاً في سيره أو يمشي بهدوء على الأرض المنبسطة، وبالرجلين مع اليدين يرتفع الإنسان ويتسلق بتلك القوائم الممنوحة له ممن خلقه ورزقه وقدره إلى أعلى قمم الجبال الشاهقة ويهبط بها إلى أدنى المنحدرات السحيقة وتستعمل في مباريات السباق والألعاب الرياضية والسباحة وركوب الدواب والسيارات والقطارات، والرجلان من أهم عناصر القوة الضرورية للإنسان، وهما قوائم عبارة عن عامودين يتصلان بحوض الوسط الذي يحمل العامود الفقري، ويعتمد هو على الرجلين، وميز ت الرجلان بثلاثة مفاصل أحدها موجة الحوض المتصلة بالعامود الفقري فبواسطتها تنثني الرجلان عن بقية الجسم حين يحاول أخذ شيء من الأرض وهو قائم والثاني مفصلا الركبتين حين يحتاج إلى الجلوس فيلتصق عظم الفخذ بعظم الساق والمفصل الثالث هو رسغا القدمين، ليتحرك القدم عن الساق، وهذه المفاصل مواهب ومنح ورحمة من الذي خلق فسوى، فهي وغيرها ما هي إلا تفضل وعطاء ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ [طه: ٤]، وما فيهن وما بث فيهن من دابة فهو الذي خلق تلك المفاصل وأودع بها خفة الحركة بسهولة فائقة، من أجل مصلحة الإنسان وراحته، فسبحان المنعم المتفضل وله الحمد والشكر حتى يرضى.

المبحث الرابع عشر: خصيم مبين

عوداً إلى بدء خلق الإنسان الذي خلقه من نطفة كما هو الحال في كل مخلوق حي، فخلق كل إنسان من نطفة باستثناء آدم خلقه من تراب وحواء من آدم وعيسى بن مريم خلقه بنفخة من روحه، وبعد أن ذكر خلق السماوات والأرض، أعاد ذكر خلق الإنسان فقال تبارك وتعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ٤] وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يس: ٧٧ – ٨٠] تلك هي بداية خلق الإنسان، خُلق من ماء مهين من نطفة قذرة ويحمل بين جنبيه العذرة ونهايته جيفة نتنة، فما الذي قاده إلى العظمة والكبرياء والخصام مع من خلقه وهو في قبضته وتحت سلطانه وقهره، يالها من انتكاسة في العقل وحرب على الفطرة، لم يعرف نفسه فحارب وخاصم من أوجده وهو في قبضته وتحت قهره، يالها من موعظة بليغة فكيف يتكبر إنسان ويفتعل الخصومة مع من خلقه وأوجده، كيف يتصدى للخصومة مع ضعفه وأهل نفسه بدون مؤهلات ولا مقدمات تؤهله لمخاصمة ومناظرة وجدل مع خالق الأرض والسماوات وكل من في الكون، وأنت أيها المخاصم لخالقك ومولاك من أنت؟ ألا تعرف أن بداية خلقك من ماء مهين ثم خرجت طفلاً لا تعلم شيئاً وليس لك ملك ولا سلطان؟.

يا له من ضعف وَضِيع في إنسان إذا أصيب بشوكة فإنه يتألم وتتوقف حركته، وفجأة يلتبس برداء الكبر والخصام مع من خلقه وأبدعه متجاهلاً أصل خلقه

ونشأته وبدايته من ذلك الماء المهين فبدل أن يتواضع ويخضع لمن أوجده ورزقه، فإذا به يلحد ويجحد، نسي أنه من نطفة وأن الذي خلقه في البداية قادر على إعادة خلقه مرة ثانية وهو على إعادته أهون من بداية خلقه ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] عجباً للإنسان كيف تحول بسرعة مذهلة إلى الجدل والخصام ونسي نشأته وبداية خلقه ومن الغريب المحزن أن يحدث الخصام مع خالقه ورازقه، يحدث جدل الجاهل مع علام الغيوب، في مناظرة جاحد مغرور مع من خلقه من العدم ثم من نطفة وأصله من تراب ثم ينكر أصله ومادة وجوده، يتقلب في سفاهته وجحوده، فتارة ينكر ألوهية من خلقه وأوجده فيشرك معه غيره من مخلوقاته بدون برهان، وتارة ينكر فضل الله ونعمه التي لا حصر لها.

وقد يشط به الجموح وينكر ما تكرم به الله عليه من أصناف النعم ويكرر فرية قارون حين قال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨] وتارة تجده مخاصماً لعباد الله يظلم هذا ويسرق مال هذا ويبطش بذاك ويستحل قتل هذا ويتعدى حدود الله وينتهك محارمه بغير حق، ويعمل كل ذلك ولا يردعه علمه ببداية خلقه ونهايته المحتومة حين يقدم على خالقه ومولاه وهو مكبل في الأصفاد ويحمل جرائمه ومخازيه في عنقه قال سبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]، وكيف يكون حاله إذا سيق إلى الحساب محملاً بأوزاره على ظهره؟ قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١] وفي من تجاهل نشأته وبداية وجوده قال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾

قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ
ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن
يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٧٨ – ٨٢].

المبحث الخامس عشر: مودة ورحمة

ومن آيات الله أن قدر موهبة المودة و عواطف الرحمة بين الزوجين، وهي ليست وليدة مصادفة عابرة وإنما هي آية باهرة أوجدها وزرعها خالق الإنسان وخالق الكون الذي خلق الأرض والسماء بفضله هبة ومودة، وزرع الرحمة بين الزوجين لحكمة يعلمها من وهبها ومن أهمها عمارة الحياة المشتركة بين الرجل والمرأة، المتوارثة عبر الأجيال المتعاقبة يتوارثها الأبناء والأحفاد جيلا بعد جيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

سبحانك يا الله! كيف يدرك التفكير الإنساني ويستطيع أن يعبر عن شيء من تصور عظمة الله ولطفه بعباده، وكيف يتصور حكمة آياته في كل شيء من خلقه وتقديره، فكل شيء في الوجود آية من آيات الله وكلها تبهر العقل، وكل شيء في الوجود من صنع الله وتدبيره ومن بديع آياته أن خلق للإنسان زوجاً من نفسه وكذلك جميع المخلوقات، لحفظ الأنساب والأشكال والألوان والأحجام والمسميات فهو جل شأنه الذي أوجد من كل شيء زوجين: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦] وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ [الزخرف: ١٢] فخلق الأزواج لم يكن من مادة غريبة يصعب الألفة بينها، فكل زوج جعل له زوجا من فصيلته وجنسه وشكله، ليدوم الوفاق وتدوم المودة وذكر الحكمة من خلق الأزواج في قوله: ﴿ لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ والسكنى مشتقة من السكينة أي

لتحل بين الزوجين السكينة والألفة التامة الهادية والشعور بالسعادة والهدوء وراحة الفؤاد والخلود إلى سكن تحفه السعادة والخير والأمان والطمأنينة في النفس، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩] فخلق كل بني الإنسان من نفس واحدة وهي نفس آدم وآدم خلقه من التراب، وخلق لآدم زوجاً من نفسه، وبث منهما بقية بني آدم، فحين خلق منها زوجها ليسكن إليها أنزل الله بينهما الألفة والمودة والرحمة قال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ومما يطابق معنى هذه الآية قوله جل جلاله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢] فالأزواج والبنون والحفدة أي: أولاد الأولاد وأولاد البنات، هؤلاء قد امتن الله بهم على عباده تفضلاً منه عليهم، ورزقهم وجعل لهم أزواجاً وأبناء وأبناء أبناء يقومون بخدمتهم ويعينونهم على متاعب الحياة ويحيون ذكرهم بعد موتهم، إذا تفضل الله على عبده بذرية صالحة، لتذكره بالذكر الحسن وتتصدق عنه وتدعو له بعد موته بالرحمة والمغفرة فهذه سعادة مزدوجة متكررة وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] سبحان اللطيف الخبير الرؤوف الرحيم.

كيف تتم الألفة والرحمة والمودة بين رجل أجنبي وكذلك الزوجة؟ قد يكون الرجل من أرض بعيدة عن الأرض التي نشأت فيها الزوجة وترعرعت، فهي

لا تعرف الأرض ولم تألفها من قبل، ولا تعرف الزوج ولا يعرفها من قبل، وهي خلقت مدللة في بيت أبيها وأمها ومع إخوانها وأسرتها؟ فتنتقل إلى أسرة غريبة عنها بعيدة عن أسرتها ومجتمع غير مجتمعها وبيت لم تألفه، وفجأة تحول ذلك المنزل الغريب والمجتمع البعيد إلى أحسن ما ترتاح إليه وتهدئ نفسها وتشعر بالسعادة الكاملة فيه، وفجأة دخلت الألفة بدل الوحشة، ودخل الحب بدلاً من البغضاء التي تكنها الصدور، ودخلت الرحمة بدل القسوة والجفوة ودخلت المودة، فسبحان من جعل بينهما مودة ورحمة، بقدرة القدير الحليم الرحيم!.

المبحث السادس عشر: موقع الرجل من زوجه

ومن دلائل المودة أن الزوجة تشفق على زوجها أكثر مما تشفق على أخيها وأبيها وإخوانها وأخواتها وحتى أبنائها، أورد ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق بعد أن ساق السند بشأن دفن الشهداء في يوم أحد، قال ابن إسحاق: «ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة، فلقيته حمنة بنت جحش رضي الله عنها كما ذكر ابن هشام، فلما لقيت الناس نعي إليها أخوها عبدالله بن جحش رضي الله عنه فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعي إليها خالها حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعي إليها زوجها مصعب بن عمير رضي الله عنه، فصاحت وولولت! فقال رسول الله ﷺ: «**إن زوج المرأة منها لبمكان**» لما رأى من تثبتها عند خبر أخيها وخالها، وصياحها على زوجها[1].

لفت أنظار الناس إلى مكان الرجل من زوجته، فهي تحب زوجها وتوده وتشفق عليه أكثر من أي إنسان في أسرتها، وهي لا تستريح في بيت أبيها وأمها الذي نشأت وترعرعت وربت فيه، وهي لا تشعر بالطمأنينة الكاملة إلا بعد أن تعود إلى بيت زوجها فنفسها وفؤادها تهفو إلى منزل الزوج، فلم تعد تنسب بيت أبيها إلى نفسها، وإنها إذا خاطبت أحد أفراد أهلها قالت: بيتكم وبيتنا شأنكم وشأننا، وإذا ذهبت لزيارة أهلها فإنها تشعر أنها غريبة عن منزلها وتكره إطالة المكث في منزل والدها الذي رَبَت ونشأت فيه ويأخذها الملل وهي تهوى العودة بشوق إلى منزل زوجها، كذلك الزوج لا يستريح مع أمه وأخواته إذا كانت الزوجة خارج المنزل لزيارة أهلها أو أحد أقاربها، وهو يحب أن يسكن إليها ويؤثر

(١) السيرة النبوية ٤/ ٤٨-٤٩.

جلوسه معها، دون أمه وأبيه وإخوانه وأخواته وأسرته، فلا يحس بالأنس والراحة والود إلا في معاشرتها فسبحان من قدر المقادير فأبدع وأتقن قال جل في علاه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٦ – ٧] ففي هاتين الآيتين بعد أن ذكر تطور خلق الإنسان وإبداع خلقه في كل مراحل نموه ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ﴾ [الزمر: ٦] وأنه صاحب الملك والعظمة، أخبر عن نفسه أنه كامل الغنى عما سواه، وهو الغني ومع غناه التام المطلق فإنه رحيم ودود لا يرضى لعباده الكفر، وإنما يرضى للشاكرين شكرهم يثيبهم عليه، ويزيد الشاكرين من جزيل فضله، وقال تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] سبحانه ولا مثيل له ولا ند، ومن ذا الذي يماثل فاطر السماوات والأرض الذي جعل للإنسان من نفسه زوجاً وكذلك جعل لكل دابة من أصلها وفصيلتها أزواجًا، فتلك من منن الله ونعمه العظيمة، وهي لا تختص بالإنسان لكونه مكرماً وله ميزة في هذه الحياة الدنيا، بل يشاركه في هذا الخصوص كل دابة من إنس وجن وكل أقسام الأنعام وأحجامها والطيور وكل مخلوق ذي روح وكذلك جعل من النباتات والزرع أزواجًا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن

يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور: ٤٥] وهنا يكشف الميزة التي قدر فيها الأزواج والهدف من ذلك قال جل شأنه: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر: ١١] وقال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٧].

خلق الله الإنسان وهو عليم بأحواله، فكما خلقهم أزواجاً فإنها لا تتم السعادة إلا وفق مشيئته، فلا يتم حمل كل أنثى أو وضع حملها إلا بعلمه سبحانه، والله الذي كرم الإنسان على بقية خلقه واستخلفه في الأرض وأمره بعبادة الله وحده، وإقامة العدل في الأرض وكتب للمحسن الأجر والتمكين في الأرض، وفي الآخرة الثواب وحسن المنقلب، وعاقب من حاد وخرج وتنكر لنعم الله ولم يشكره على ما تفضل به، وكان مأواه نار جهنم خالداً مخلداً، فسبحان خالق كل شيء: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦].

المبحث السابع عشر: ميزة خلق الذكر من الأنثى

ومما تجدر الإشارة إليه أن الفارق والتمييز بن الرجل والمرأة واضح جلي، وذلك بأن ميز الرجل بميزة شعر الذقن واللحية، فمنح الرجل خلقاً، وخلقاً يلائم شكله وخشونته، فأنبت الشعر على ذقن الرجل وعارضيه وشاربه ليتميز عن المرأة ويتلاءم مع مبادئ الرجولة، وجعل الفارق بين الرجل والمرأة أن جعلها في منتهى الليونة فلم ينبت لها الشعر على وجهها، وخلق الله وجه المرأة أملس ناعماً لما يتلاءم مع أنوثتها ورقتها وليونة جسمها، وليست هذه الميزة بين الرجل والمرأة تنحصر في شعرٍ مِنْ عَدَمِه، بل إن الفوارق متعددة فمنها: أن جسم المرأة يختلف عن جسم الرجل والفرق بائن بوضوح، وكذلك صوت الرجل يختلف عن صوت المرأة والفرق كبير وبائن، ومن الفوارق التي لا يختلف فيها أحد الفرق بين قوة الرجل وقوة المرأة وليست هناك نسبة، ومن الفوارق عزم الرجل وعزم المرأة، فهو يسير الليل ويقطع مجرى السيل والمرأة لا تستطيع أن تمشي في الليل بالأرض الخالية من الأنس بمفردها، وهذه وغيرها من الفوارق البينة.

وإليك تقريرًا عن الفوارق بين الرجل والمرأة من كتاب الدكتور الفرنسي/ الكسيس كاريل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) حيث قال: ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليماً واحداً، وأن يمنحا قوى واحدة ومسؤوليات متشابهة، ثم قال: والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل، فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها. والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي، فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين مثل قوانين العالم

الكوكبي، فليس بالإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها. ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هي. فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعا لطبيعتهن دون أن يحاولن تقليد الذكور إلى آخر البحث[1].

ثم هناك قرينة أخرى، حيث تجد الرجل الخصي ينقلب بمجرد ما تستأصل خصيتاه، يسقط شعر لحيته ويتغير صوته فيصبح مثل صوت المرأة تماماً، وما ذاك إلا حين فقد الرجولة، ومعلوم أن الخصي تنعدم منه مميزات الرجولة، قال علماء النفس وعلماء الطب: (ليس هناك خصي أصبح فيلسوفاً عظيماً أو عالماً خطير الشأن أو حتى مجرماً عاتياً لأن للخصيتين والمبائض وظائف على أعظم جانب من الأهمية، لأن الخصية تولد الجرأة والقوة والوحشية) وحينما تستأصل من الرجل تنسلخ منه الشجاعة والإقدام وما كان ذلك ليكون إلا حينما فقد العنصر الرئيسي من مميزات الرجولة، ويلحق بذلك الخنثى فهو مثل الخصي تماما في صوته وصفاته.

---

(١) انظره (ب ص – ١٠٩).

الفصل الخامس

إبداع الله في خلق الدواب والطير والأنعام

(١) المبحث الأول: تسخير الأنعام.

(٢) المبحث الثاني: «سائغًا للشاربين».

(٣) المبحث الثالث: والطير صافات.

(٤) المبحث الرابع: سباع الطير.

(٥) المبحث الخامس: آية الله في النحل.

(٦) المبحث السادس: وما بث من دابة.

المبحث الأول: تسخير الأنعام

ثم يتحول السياق من خلق الإنسان إلى عالم الأنعام التي خلقها الله للإنسان وسخرها في خدمته، قال سبحانه تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٥ – ٨]، كنا في قُطْر الحجاز منطقة غامد وزهران نعيش وليس لنا دخل إلا من محاصيل أراضينا الزراعية، وكان أجمل وأحسن ما يملكه أبناء المنطقة الأ راضي الزراعية التي هي المصدر الأساسي لأرزاقهم، تليها مباشرة بهيمة الأنعام من الإبل، والبقر، والغنم من الضأن، والماعز، وسبحان العليم بميول النفوس حين عدد ما يجنيه الإنسان من الجمال ومنافع تلك الأنعام فذكر الدفء من أصواف الضأن، وأوبار الإبل، وأشعار الماعز يستفاد منها لصنع الملابس الشتوية في فصل الشتاء قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [غافر: ٧٩].

وأجملت الآيات بعض المنافع الأخرى على وجه العموم، ثم ذكر ما يستفاد من مأكولات وغذاء من لحوم الأنعام وألبانها، وسبحان الله حين كان الناس وأغلبهم من قبل خمسين سنة مضت وهم أميون لا يعلمون القراءة والكتابة وإذا سمع أحد هم قارئًا يقرأ بهذه الآيات حين يذكر المنافع ثم قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٦ – ٧] حين يسمع

آيات القرآن هذه أي إنسان ولو لم يكن متديناً فإنه يطرب لسماع هذه الآيات ويسر وينشرح عند ما يستعرض ماشيته لأن لفظ القرآن يوافق ما في نفوسهم من ميول، خصوصاً حين رواحها في المساء تكون قد ازدادت جمالاً ورونقاً، لأنها تروح وهي بطانٌ من الشبع ومملوءة ضروعها باللبن، وفي نفس مالكها شُعور بالفرح وجمال الاستمتاع بالنظر، وكانوا وإلى هذا التاريخ يسمون كل الأنعام إذا أجملوا ذكرها بالحلال، ويفرح مالك الأنعام عند رؤيتها خصوصاً كما ذكر الله حالهم: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦]، وجمالها في نفوس أصحابها يكون عند رؤيتها وحين تستعمل في كل ما خصصت من أجله، والذي لا يملك شيئاً منها تكون حياته في منتهى التعاسة، وفي كل شيء من الأنعام منافع ومصالح فمنها لحومها وألبانها وجلودها وكل شيء يستفيد منه صاحبها حتى دِمن المواشي وهو ما يخرج منها من فضلات المرعى والأعلاف يستعمل لتسميد المزارع.

ومما حبب إلى النفوس جمال رؤية ما رزقهم من بهيمة الأنعام حين يشاهدونها وما قَصَّه القرآن في خبر قوم موسى إذ أمرهم الله بذبح بقرة، وسألوا موسى عن ماهيتها، وما لونها، قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩]، وقوله ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ أي: تجلب السرور والرضا والمتعة بجمال رؤيتها، ولما كان لونها فاقعاً بالجمال المحبب إلى النفوس، فإنه يزيد في المتعة المحببة والرؤية إلى جمال لونها.

ومن بلاغة القرآن وإعجازه لأنه كلام العليم بطبائع البشر فإنه يشوق الإنسان إلى عناصر الجمال الشعورية، حينما يشعر أنه قد حقق الرغبات الجمالية وإحساسه

بالفرح والغبطة والرضى حين يجد المتعة بها وهبه الله من هذه الأنعام التي يحس أنها ثروته الثمينة ويرى فيها جمالاً يتحلى بها وقد يباهي بها غيره، وهي يد المزارع العاملة معه في كل ما يحتاج أن يعمله بواسطتها، وحين يستمتع بشكلها الجذاب ومنظرها المحبب إلى نفسه يشعر بالسعادة والغبطة.

والقرآن نزل في بيئة كانت أغلب ثروتها التي تتجمل بها والمحببة إليها هي بهيمة الأنعام، وكانت بيئتنا وعاداتنا التي عاصرناها تقترب كل الاقتراب من بيئة العرب الذين نزل فيهم القرآن، وكان أحب مقتنياتهم من بهيمة الأنعام، خصوصاً من البقر والغنم والإبل والخيل والحمير، وهي تستخدم لضروريات العمل في ذلك الزمن، لتأمين وسائل النقل سواء كانت من التجارة أو ما يحصلون عليه من إنتاج مزارعهم وغيرها، وكل تلك الأنعام موجودة عند من عاصرناهم، إلا الخيل فإنها كانت نادرة الوجود في مجتمعنا، ومن أحسن مقتنياتهم التي يستعملونها باستمرار للنقل وهي الجمال والبغال والحمير، أما البغال فهي الأخرى ليس وجودها بالكثرة كما هو الحال بالنسبة للجمال والحمير، أما الحمير فكان لا يستغني عن اقتنائها أحد لأنها رخيصة الثمن، وبإمكان أي إنسان أن يمتلكها لكونها تستعمل لكل شيء ولأنها سهلة الاستعمال.

والذي يمتلك الجمل كان شخصية يشار إليه بالبنان، لأنه كان في ذلك الوقت يماثل صاحب حافلة النقل الضخمة في هذا الوقت، وكما قال الله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧] أي: تحمل الأثقال من بلد إلى غيره وهي عون للمسلمين في نقل الحجيج ووسائل الجهاد في سبيل الله وغيره، وكان السكان هنا وقد يكون على

وجه العموم في جزيرة العرب يستعملون الجمال والحمير والبغال لحمل الأثقال كما أسلفت، وكانوا يستعملون الثيران لحرث المزارع ودمسها وسقيا الزراعة بنزع الماء من الآبار بواسطة السواني ودوس المحاصيل الزراعية وغيرها وهذه من رحمة الله بعباده.

المبحث الثاني: سائغاً للشاربين

آية أخرى في منتهى الروعة وعبارة تدل على إتقان صنع الخالق وتدل على جلال قدرته وجمال صنعه يجسدها قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، غذاء طاهر نافع مستخلص من بين فرث ودم، إنها آية تضم إلى عطف الله ورحمته بالإنسان، وهي آية مدهشة ومحيرة وإن كانت ليست بغريبة على قدرة الله ألا وهي آية الله في الأنعام تضم إلى آيات الله المعجزة الباهرة في بقية مخلوقاته، والسؤال كيف يتم خروج الحليب الصافي المنقى؟ والغذاء الشهي الطيب في مذاقه ولونه يخرج بذلك اللون الممتع والخالص النقي، والطعم السائغ من خلال تلك المواد المستقذرة؟

الجواب: محير بالنسبة للإنسان، أما بالنسبة للذي له الأمر سبحانه فإنه إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، إن اللبن الجميل في شكله الحلو المميز في مذاقه الغذاء للجسم، فيه عبرة محيرة كما وصفه الله بقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

سبحان الله! الشراب لذيذ الطعم، سائغ شرابه، خالص من الكدر، جميل اللون، حلو المذاق، يخرج فيه غذاء للجسم والروح تحمله إناث الأنعام في ضروعها مستخلص بقدرة من خلق الكائنات: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦] إنها قدرة الله تتجسد في روعة مذاق حلو حلال زلال طيب خالص نقي، يخرج من بين الفرث المعفن المنتن الرائحة، والدم المستقذر

الملوث، والفرث هو بقية فضلات الأعلاف والمراعي وكل ما جانسهما، مما تمتصه الأمعاء بقدرة الله، ثم يتحول إلى الدم الجاري فيضخ بقدرة الله من القلب والرئة إلى عموم الخلايا الدقيقة والغليظة، ويتوزع عبر الشرايين والأوردة إلى عموم الجسم والأعضاء، ومنه ما يستخلص في ضروع الماشية من الحليب المزود بكامل الدسم، وهو كما ذكرت أن الفرث هو ما يستقر في كرش الدواب ويتوزع بقدرة العليم الحكيم.

ومن آيات الله أن غذاء الدواب مستخلص مما يخرج من فضلات أعلافها، فهي تتم في دورة على الجسم مستمرة نحو عملية إلهية تمر بكل خلايا الجسم فسبحان الخلاق العليم القادر المدبر الحكيم!، وكما ذكر سبحانه العبرة في آية سورة النحل أعاد معنى ذكرها في سورة «المؤمنون»، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١ – ٢٢] ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٨٠].

نعم إنها عبرة بل وعبر وآيات، فكما ذكر العبرة الباهرة في سورة النحل أورد ذكرها هنا، والعبرة فيما يشربه الإنسان مما يخرج من بطون ضروع الأنعام، وكذلك ورد ذكر المنافع في سورة «المؤمنون»، وهي منافع كثيرة، حقاً إنها منافع جمة الفوائد من أهم تلك الفوائد: ما يخرج من بطونها من ألبان وشراب وسمن وأقط، أو استخدام تلك الأنعام في عمل الفلاحة والنقل والركوب أو الأكل من لحومها وما يستفاد من جلودها، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ

فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۖ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣] ألم ينظروا إلى أصناف نعم الله التي يمتن بها جل شأنه على بني الإنسان أن خلق الأنعام لهم تَفضُّلاً منه عليهم، وملكها إياهم وذللها لهم في كل ما يريدون منها، فمنها: الركوب والأكل والشرب والمنافع الجمة التي لا يحصيها إلا من تفضل بها، ومع تفضله على الإنسان بهذه النعم الجمة فإنه سبحانه يريد منهم شكره على ما تفضل به عليهم ومنحهم بغير حساب، قال جل جلاله: ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧] وقال سبحانه: ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٧] فسبحان المنعم المتفضل الرؤوف الرحيم.

عبرة أخرى من آيات الله في الأنعام، ومن عجائب رأفته ورحمته وقيام حجته أن أسدى نعمه التي يعجز اللب والفهم وتعجز الذاكرة أن تحيط بشيء منها أسدى نعماً كثيرة رحمة منه بالإنسان وفي نفس الوقت ابتلاء، قال جل شأنه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتًا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

ومن سلسلة النعم المتكررة، منن الله على عباده أن جعل لهم الليل سكناً وستراً، جعل لهم من بيوتهم سكناً وستراً يستترون فيه عن الحر والقرِّ وهو شدة البرد، ويواريهم عن أعين الناس حيث يستر كل أحوالهم وعوراتهم ومحارمهم، وتحفظ فيه النفوس والأموال والمتاع، وحاجز عن الأعداء، والسكن ما تسكن إليه النفس وترتاح وتأمن وتطمئن فيه بضمان الأمن والأمان والسلامة، فللمساكن حرمة

مغلظة، فلا يجوز الدخول فيها إلا بإذنٍ من صاحبها مع وجوب ملازمة الأدب حين يؤذن بالدخول بحيث لا يمد الناظر نظره لا يميناً ولا شمالاً محاولاً كشف سر من أسرار المنزل، ولا يصغي السمع ليفهم ما يدور في منزل العائلة، ولا يتجسس فينقل أسرار رب البيت وأهله، فلكل مسكن حرمته، وحرام إرسال النظر من ثقب أومن شُرفة تشرف على منازل الآخرين ليكشف سرهم، ومن نظر إلى داخل منزل من ثقب أو غيره وفقئت عينه فلا دِيَةَ للعين ولا غرامة، لكونها تعدت حدود الله فلا حرمة لها حين تعدت حدود الله، وهذه النعم التي ذكرها الله في منافع السكن يضاف إليها، تلك النعم نعمة جلود الأنعام التي تصنع منها القباب كبيوت متنقلة يستخفونها للتنقل في ظعنهم في البوادي ومنتجعاتهم وأسفارهم أوفي إقامتهم لتوسع في المسكن وحول مزارعهم للنزهة والتجمل.

وبيوت الشعر تصنع وتستعمل من الأوبار، والأوبار هي ما يغطي جلود الإبل، ومن شعر الماعز، والشعر هو شعر الماعز، وتصنع من جلود المعز القرب لجلب الماء وسقيا المنازل لأن جلود المعز متينة وقوية تتحمل أكثر من جلود الضأن ويصنع من جلود المعز ما يسمى بالغرب وهو عادة يصنع من جلود الماعز.

والخيام الجلدية التي تقي من قوة البرد وسقوط الأمطار، تصنع من جلود الأبقار والإبل، وما يستفاد من الجلود أيضاً في صنع الأرشية والأثاث،.، والرشاء والمقاط تصنع من جلود البقر وتستعمل لنزع الماء من البئر بواسطة السواني في قبة كبيرة تعرف بالغرب، وقوله سبحانه: ﴿وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى حين تبلى تلك الفرش أو تنقضي حياة مالكها بالموت فينتقل إلى الدار الآخرة فيتركها مع كل ما ملك في هذه الحياة الدنيا.

وامتن الله جل شأنه بأن أنعم عليهم بنعمة الأصواف وهو شعر الضأن، ويؤخذ من صوف الضأن ملابس للشتاء وهي لحف مما يعرف بالعباءة والجبة والحبال وغيرها، ومن الآثاث تستخدم لحفظ اللبن والسمن والعسل ويتخذ منها فرش ناعمة ويسمى أحدها الجاعد ويكون الجلد الواحد فراشاً مُستقلاً لشخص واحد يشق من جهة بطن الخروف، ولا زال هذا النوع من فراش الجاعد يستعمل في السيارات وغيرها وهي موجودة في هذا العصر للبيع في متاجر أدوات السيارات، وبعض جلود الضأن يستعمل لخض اللبن.

ومن سلسلة النعم التي لا تحصى نعمة الظلِّ: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا ﴾ [النحل: ٨١] والظلال جمع ظل، فظل الشجرة أو ظل الجبل أو ظل الحائط أو ظل الكهوف أو ظل السقف وغيرها من الظلال، فهي تقيهم حرارة الشمس ويستظلون بها ويظلون أنعامهم ومواشيهم، لأن الإنسان حين يستظل من حرارة الشمس فتستتر نفسه فيشعر بالمتعة: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾ [النحل: ٨١] قيل الحصون والقلاع ومعاقل يتحصنون بها من سطوة الأعداء أو اللصوص وغيرهم: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ [النحل: ٨١] مثل الثياب وما يتقى به لفح الشمس: ﴿ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل: ٨١] قيل هي: الدروع في ميادين الحروب، مع نعمة الله أن هيأ لهم مساكن يتحصنون فيها من كل ذلك فسبحن من وسعت رحمته كل شيء.

المبحث الثالث: والطير صافات

آية صنع البارئ جل جلاله، كذلك في الطير ذلك المخلوق العجيب بل تلك الأمم من مختلف أنواع الطيور وأحجامها التي لا تحصى، وحين ذكر المولى جل شأن الدواب في قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥] لم يذكر الطير وإن كانت تمشي في الأرض على رجلين، ولعلها أجملت كذلك مع من يمشي على رجلين.

ويبدو أن الله جل شأنه استثنى الطير من الدواب في قوله جل شأنه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩] فسبحان من سخرها وعلمها لتجوب الجو ببراعة وبأمن وطمأنينة، وسبحان من سخر الجو لها ليكون ميداناً فسيحاً مستقراً لتستقر هي على متنه.

ومن الروعة المذهلة في خلق الله كيف تستقر تلك الطيور على متن الهواء بدون دعامة مادية ترتكز عليها إلا عناية الله، ومن نظر إلى الإتقان في صنع الله وتدبيره حين يشاهد طيران الطير وهو يسبح في طبقات الجو الفسيح بين السماء والأرض، وكأنه في نزهة شيقة ومتعة طبيعية، وهو يجوب الأجواء يمنة ويسرة تارة يميل على شقه الأيمن وتارة على شقه الأيسر، وتارة يسبح في الفضاء على اتجاه مستقيم، وحينًا آخر تراه وكأنه يمارس لعبة رياضية بهلوانية مع عدد من فصائله وأشباهه من الطيور في صفوف متعددة، وجمهور كثيف يطير إلى أي جهة يريد

دون أن تعترضه مشقة في جولته ولا سآمة ولا ملل ولا ضجر، وتارة تجري الطير في طيرانها ببطء وكأنها في عملية استطلاع، تريد أن تكتشف ضالتها المنشودة وهي لم تر إلا شيئاً غامضاً عليها فتريد أن تحقق الهدف، وتارة تشاهدها وهي تسبح في سرعة مذهلة وهي تقبض أجنحتها وترسلها وكأنها تجتذب الجو وتنهب الفضاء، تذكرنا بذراعي المتباري الماهر في السباحة حين يحرك ذراعيه بسرعة وقوة ليساعداه على الاندفاع السريع من أجل أن يفوز بجائزة السبق.

فسبحان: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ إن هذه المشاهد العجيبة تتكرر رؤياها في كل ساعات النهار بحيث يراها الناظر بكرة من بعد صلاة الفجر سارحة سابحة في الفضاء، خماصاً تبحث عن رزقها المقسوم لها، وهي تجوب الأجواء طول ساعات النهار وتعود من رحلتها قبل أو عند غروب الشمس ولا يرى الناظر حين دنو الظلام أي طائر يطير ما خلا ألبوم وطائر يعرف بالخفاش فإنها معاكسة لكل الطيور، وهي من سواهر الليل مثلها مثل الكلب ينام في النهار ويستيقظ بالليل، ثم إن الطير تروح قبل غروب الشمس وهي بطان إلى مساكنها وأوكارها وغاباتها من أجل السكون والراحة يقول المصطفى ﷺ: «**لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً**»[1] إن القلب الواعي حين يشاهد إبداع قدرة الله في مخلوقاته، ومنه الطير إذ تحلق في الهواء الطلق ليس لها وسيلة مادية مشاهدة تقلها إلا فطرة من فطرها وصنع من خلقها ووهبها تلك الميزة الطيبة، التي هي من أعظم البراهين الساطعة على الإتقان

---

(١) رواه أحمد (٢٠٥) والترمذي (٢٣٨٢) وابن ماجه (٤١٦٤) وأبو يعلى (٢٤٧) وصححه ابن حبان (٧٣٠) والحاكم (٧٨٩٤).

الرباني المعجز، والوحدانية الربانية، الله أكبر ما أسخف وأضيع وأضل عقل من يدعو غير الله ممن لا يدفع عن نفسه الضر ولا يجلب لها النفع، ويعمي بصره بعد أن عمي قلبه أن يهتدي إلى فطرة الله في كل ما يشاهد من آياته الباهرة وصنعه في مخلوقاته، ومنها تلك الطيور التي هي معجزة خارقة بحد ذاتها.

إن روعة إبداع الله في خلقه وتسخيره لذلك الجو الذي يحمل الطير السابحة، وبطيران الطير كأن المولى القدير جل جلاله فتح الباب إلى فكرة طيران الإنسان بين السماء والأرض وتم ذلك، بواسطة عقول فكرت في ذلك الحدث الهائل ولم تفكر في عظمة من ألهمهم اختراع الطيران بين السماء والأرض فبتلك الوسائل الضخمة، وكأن هذا توبيخ لعقول المخترعين كيف توصلوا إلى معرفة التحليق في الجو ولم تهدهم تلك العقول وذلك التفكير إلى خلق أنفسهم وخالقهم وخالق الجو وخالق ما صنعوا!! وإذا كان هناك من أشباه الببغاوات يرون أن هذه الاختراعات كانت بواسطة عقل الإنسان لا بتقدير رب الإنسان، فإننا نذكرهم والذكرى لا ينتفع بها إلا المؤمن بالله، ونقول لهم: إن هذه الاختراعات قد أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨] ثم هو الإنسان قد طار بين السماء والأرض بواسطة تلك الآلات الضخمة وهي تحمل آلاف الأطنان من المتاع والحديد والبشر وكل أنواع المحمولات من البضائع وغيرها، فالله هو وحده المسخر لكل الكائنات، والملهم لمن اخترع تلك المخترعات، وصمم صنع تلك الآلات، قال جل شأنه: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦] إن مشاعر الإنسان المؤمن وعواطفه الحساسة الإيمانية لتستغرق في التفكير تجاه تلك الآية الربانية، وإن الإيمان المشع

الوضاء في قلب المؤمن لينظر إلى هذه المعجزة الإلهية، الطير يسبح بحمد الله ومع كونه حيواناً أعجم إلا أنه خاضع لنظام الفطرة الربانية التي فطره عليها وفطر جميع المخلوقات في الأرض والسماء وما بينهما، فهو كغيره من بقية المخلوقات يُسبِّحُ لله ويصلي كما أودع في فطرته وألهمه خالقه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

نعم إن كل شيء في الوجود خاضع لسلطان الله، وكل مخلوق في السماوات والأرض مستسلم مطمئن يردد التسبيح والتحميد والتمجيد والتهليل لعظمته سبحانه، إن كل إنسان وجان ونعام وطير ومن كل الدواب الزاحفة في البر والبحر والجو والسماء والأرض والشمس والقمر والنجوم كل تلك المخلوقات وتلك العوالم بجميع أصنافها من جماد ومتحرك تسبح بحمد الله وتثني عليه بما هو أهله وبما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وقوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١].

إن كل فرد من خلق الله في سماواته وأرضه من ملائكة وإنس وجان وغيرهم قد علم الله صلاته وتسبيحه، وإن الكل يسبح بعظمة الله تسبيحاً يعلمه الله، لأنه هو الذي ألهمه ذلك التسبيح وتلك الصلاة، إن المولى القدير لم يذكر لنا هذا المشهد من آيات التسبيح لمجرد العلم بها، وإنما العلم والاعتقاد وأخذ العبرة وأن يعلم الإنسان أن كل ما حوله وكل ما يحيط به من الأمم الناطقة والجمادات التي نراها والتي لا نراها، التي نعرفها والتي لا نعرفها، كلها تردد في خشوع وخضوع وأدب واستسلام تردد التسبيح والتحميد والتهليل لعظمة الله جل جلاله.

وقد سخر الله الجبال والطير أن تردد التسبيح والتهليل والتعظيم لله كما سخر الحديد في لينه وذوبانه لداود عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

إنه جدير بالإنسان الذي ميزه الله بالإدراك والعلم والعقل والتفكير والسيادة أن يكون أقوى إيماناً من كل مخلوق غيره، لكونه قد فضل على غيره وعلم ما لم يعلم غيره، وسخر الله له مقاليد الأمور ليؤدي شكر نعمة الله المتفضل عليه، ويحمده حمد شكر على أن ميزه على غيره، ومن الأجدر به أن لا يمر شيء من وقته إلا في صلاة وتسبيح وعبادة وعمل يرضي الله المنعم عليه المولى القدير جل في علاه، لأنه سبحانه دائماً يلفت الأنظار إلى آيات الله في الكون، وفي الأنفس، فتارة يلفت النظر إلى السماوات، وتارة إلى الأرض والجبال والإبل، وتارة يلفت النظر إلى عموم آياته كما قال: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] وهنا كأنه يقول ما الذي رأيتم في الكون المحيط بكم؟ وما الذي شاهدتم من صنع الله في الطير وهي تمر من فوق رؤوسكم ومنازلكم وأنتم تشاهدونها في طيرانها ومرورها صباح مساء وفي كل أوقات النهار.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩] هنا يسترعي القرآن أنظار الخلق من الناس إلى آية الله في الطير حين طيرانه وما هي تلك الآية؟ إنها لاشك آيات بارزة ظاهرة للعيان ولكن مع كثرة تكرارها تبلدت أغلب الأفكار من أخذ العبرة من الطير حين تخترق الأجواء في أشكال مختلفة. إن من عجائب قدرة الله في الطير وكثرة أنواعها واختلاف ألوانها وأحجامها، وكم هو الفرق بين أكبر حجم وهو النسر وحجم

البعوض إذا عدت من الطير، تلك البعوضة التي هي مع صغر حجمها وما أودع الله فيها من الأعضاء والعظام والمفاصل وخلايا الدم والجوارح وغيرها كما خلق لغيرها، فإذا كانت البعوضة على دقة جسمها تحمل كل تلك المميزات مع ذلك الحجم الصغير الكامل والضئيل في نفس الوقت، فكيف يكون حجم العضو الدقيق منها، مع أن لكل عضو دورًا يؤديه مع بقية أعضاء الجسم، ولذلك فقد أورد الزمخشري أبياتاً في وصف جسم البعوض:

يا مَنْ يَرى مَدَّ البعُوضِ جَناحها ... في ظُلمةِ الليلِ البَهيمِ الأَلْيَلِ
سمعَ خريرَ الدَّمِ فِي أوداجِها ... متنقلاً مِن مفصَلٍ في مفصَلِ
ويَرى مناطَ عُروقِها في نَحرِها ... والمخَّ في تلكَ العِظَامِ النُّحلِ
ويَرى وصُولَ غِذا الجنينِ ببطنِها ... في ظُلمَةِ الأحشَاءِ بغيرِ تمقُّلِ
ويَرى مكانَ الوطْءِ مِن أقدَامِها ... في سيْرِها وحَثيثِها المتعَجِّلِ
ويَرى ويسمعَ فوقَها أو دُونها ... في قَعْرِ بحرٍ مظلمٍ مُتهَوِّلِ
امْنُن عليَّ بتوبةٍ تجلُو بِها ... ما كانَ مِنِّي في الزَّمَانِ الأوَّلِ

فانظر يا رعاك الله، إلى ذلك الوصف البليغ لتلك الحشرة التائهة التافهة في نظر من يراها صغيرة في حجمها كبيرة في معناها، وآية خلق الله فيها وكيف وصف الشاعر عظمة المولى سبحانه في رؤيته وعلمه بكل صغيرة وأصغر من الصغيرة وأنه يرى ولا يخفى عليه سبحانه الدورة الدموية في أوردة وشرايين البعوض الدقيقة، وما هو أصغر من شرايين البعوض، فسبحان الله إنه لا يُستغرب ذلك على الله؛ لأنه هو الذي خلقها بتلك الدقة المتناهية، وفيها إعجاز رباني وآية عظمى في ذلك المخلوق الصغير.

وكذلك يرى مناط العروق منها ودورة الدم فيها، والمخ المتصل في عظا مها الدقيقة ولا يخفى عليه رؤية غذاء جنين البعوض في بطن أمها بحجمها الضئيل، فأمها التي تحمل الجنين في جسمها الكامل والجنين في بطنها، لا يراها إلا حديد النظر فكيف بطعام جنين البعوضة في بطنها فسبحان الذي لا تخفى عليه خافية.

المبحث الرابع: سباع الطير

وكما ذكرت أصناف الطيور ومنها الكبار والصغار، كذلك منها الجوارح المفترسة وتسمى سباع الطير، ومع أشكالها، فمنها البغاث طائر كبير الحجم لكنه ضعيف ليس بالقوي وهو كل ما عظم من الطير، مثل النسر فهو من أقوى سباع الطير وله منقار قوي، وبغاث الطير لا تطير بسرعة خصوصاً إذا بطنت من أكل الجيف، وباستطاعة الإنسان ملاحقتها جرياً بالقدم قبل طيرانها، ومن المشاهد أنه قد يقفز الطائر منـها عدة قفزات حتى يستقل عن الأرض، أو يكون على شفى جرف هارٍ فيسبح في الهواء دون ارتفاع، فإذا انطلق في الجو كان طيرانه عادياً.

أما الجوارح فهي، العقاب ويعرف بأنه ملك الجوارح، كما أن التمساح ملك الماء، والأسد ملك البر، فالعقاب تخافه جميع أصناف الطيور، وهو أبصر مخلوقات الله، وفي المثل: «أبصر من عقاب»، والعقاب سريع في طيرانه، قيل: بأنه يتغدى بالعراق ويتعشى باليمن، والعقبان منها ما هو أبيض اللون ومنها الأسود والأصفر والأربد، والبزاة وأحدها بازٍ، والشاهين، والصقور، والزُرَّاق، والباشق وهو نوع من البزاة وهو طائر من الطيور الجوارح، واليؤيؤ وهو يشبه البواشق، والفهد، وقيل الكركي وهو صاحب منقار قوي، فهذه الأجناس من الطيور هي الجوارح، وهي سباع الطير، أما النسور والرخم، والحدياء، والغربان فإن سلاحها في مناقيرها ويتبع ذلك طائر يعرف باسم الفيان وهو ضخم الجثة قد يوازي في حجمه النسر والحبارى، فسبحان الخلاق العليم!

المبحث الخامس: آية الله في النحل

ذباب طائر إلا أنه في عمله متقنٌ ماهر، ومع صغر جسمه وتفاهة منظره إلا أنه آية كبرى تكمن في مخلوق صغير وطائر حقير، ومع صغر حجمه فهو دُرَّة ثمينة، وإذا ظهر السبب بطل العجب، إنه ذلك الذباب الطائر المعروف بالنحل الذي هو آية من آيات الله، قال جل شأنه: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨ – ٦٩].

من آيات الله الكبرى إلهام النحل المذلل المسخر بقدرة الله المهدي بلطف الله الملهم بفطرة الله، فهو يسكن في الجبال والشجر فيتخذ من الجبال بيوتاً يأوي إليها ويسكن بها، يأوي إلى كهوف الجبال لتبني النحلة نسيجها وتأوي إلى الكهوف والغابات الكثيفة فتسكن بها وتنتج، وتستقربها، وفي ما يعرش الإنسان لها من الخلايا المصنعة، والنحلة هي المذللة لذلك الإنسان سخرها الله بحكمته وذللها بأمره، وهو الذي خلقها وخلقه إنه الله خالق كل شيء، إن تلك النحلة المخلوقة الصغيرة في حجمها الكبيرة في مضمونها الغريبة في إنتاجها الكثير الطيب المبارك قد ألهمها المولى القدير أن تتخذ من الفضاء السحيق سبلاً إلى حيث ترتاد الغذاء والمرعى، وفي ذلك المسلك الجوي لا تخطئ هدفها ولا تضل طريقها ولا تختلط بغير فصيلتها ولا تدخل بيتاً وخلية غير خليتها، وإذا نقلت من مكان إلى مكان بعيد يبعد عن مكانها الأول بمئات الأميال، ثم وضعت خليتها فإنها تسرح منها في ذلك الفضاء البعيد عن مسكنها السابق والذي لم تألفه من قبل وتعود إلى

خليتها الأصليه لا تتوه في ذهابها وعودتها ولا تضل طريقها الذي يوصلها إلى فصيلتها، ومن العجب أنها قد تنقل الخلية من مكانها، وقد يكون هناك شيء من النحل لازال في مراعيه فحين يعود يفتش عن خليته الأصليه حتى يجدها ويسكنها وذلك إلهام من الله جل شأنه.

والنحل لها ملك ويسمى أمير النحل ورئيس النحل وهو اليعسوب، ويقال إن كل قائد فهو يعسوب، وكلمة يعسوب مستعارة من فحل النحل أو أمير العسالات، وعمل النحل قيل: إنها تقسم الأعمال بينها فبعضها يجلب مادة الشمع ويقوم بصناعته، وبعضها يعمل العسل وبعضها يبني البيوت، وبعضها يستقي الماء ويصبه في ثقوب شنائق أقراص العسل ويخلطه بخالص العسل، ومنه ما يبكر إلى العمل، ومنه ما يشبه الجند المنظم لتطير كل نحلة في زمنها المحدد لها، فإذا طارت الأولى تتابع طيرانه وخروجه من الخلية بانتظام، وإذا خرج اليعسوب يتبعه بقية النحل.

قلت: والمعروف المشاهد، أن اليعسوب هو الذي يبقى في الخلية، فإذا وجد من يساميه كيعسوب آخر، فإنه يخرج الأخير بقسطه من النحل، ويعرف هذا بالفروق في النحل، وتعريف الشنائق بهذا الاسم وهو قرص العسل الذي يبنيه النحل من الشمع ثم يضع فيه العسل، وكلمة شنائق أو الشنيق مشتقة من كلمة شنق من القاموس، حيث ورد فيه، وشنق الخلية يشنقها شنقاً وشنقها، وذلك أن يعمد إلى عود فيبريه ثم يأخذ قرصاً من العسل فيثبت ذلك العود في أسفل القرص فيقيمه في عرض الخلية، واسم ذلك الشيء الشنيقُ. اهـ من لسان العرب[1].

---

(١) لسان العرب، مادة شنق ١٠/ ١٨٧.

ثم هي تسرح إلى مراعيها وتأكل من كل الثمرات، وتسلك الطريق الذي رسمه الله لها مذللة مسخرة وتجوب كل البراري البعيدة والأراضي الواسعة والجبال الشاهقة والشعاب الهابطة، تذهب خماصاً وتروح بطاناً ومحملة بأرزاق الله من كل ثمرة تنقلها إلى بيتها وخليتها أو كهفها متجهة إلى مساكنها التي لا تضل الطريق عنها، فتدخل منزلها عند فراخها ومتاعها وعند عودتها من مشاق الرحلة وما تحمله معها من منطقة المراعي تتجه إلى عمل البيت، وتعمل كعادتها فتبني الشنائق بالشمع الذي تستخلصه من الشجر وغيره، وتحمله في أرجلها وأجنحتها وتبني تلك الشنائق العجيبة في صورة فنية وعمل هندسي رائع تعجز المصانع التي تخترع الآلات الضخمة والتي تصنع وتدار بالطاقة النووية، تعجز تلك المصانع أن تعمل مثل عمل النحلة في هندستها شنائق العسل وشكلها الهندسي، ولا يستطيع مخلوق غيرها أن يعمل مثل عملها وبعد عودتها من رحلتها بما جلبت تلقي في ذلك المصنع كل ما حملته وجلبته معها من رحلتها، وتخرج من ذلك المعمل شنائق العسل بذلك الشكل الهندسي البديع وما فيه من حلاوة الذوق وما أودع الله فيه من الشفاء مع جمال المنظر.

ثم هي تكرر العودة إلى مسارحها ومراعيها لتحصل على رزق جديد في كل يوم جديد، وليس لديها وقت ضائع للعبث وتقطيع الوقت بل تعمل بدون انقطاع، وتمشي في طريقها المرسوم لها كما قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗا ﴾، كلي من كل الثمرات من ثمرات النخيل والأعناب والأعشاب والأشجار المختلفة الألوان والأشكال، واسلكي السبيل الواضح بلا ضياع ولا متاهة، فهي تمشي مطيعة مدللة مذللة تمشي وفق نظام إلهام المولى القدير

في غاية الروعة والدقة نظام اكتسبته من إلهام الفطرة الربانية، وفي النهاية تكون الحصيلة خروج الشراب المركب فيه شفاء من كل داء بإذن خالق الأرض والسماء إنه العسل المتناهي في جمال اللون وحلاوة الطعم، فيه الدواء الشافي، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾.

ورد في صحيح البخاري وغيره من عبدالله بن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**الشِّفاءُ في ثلاثة: في شَرطةِ محجم، أو شَربةِ عَسَل، أو كيَّةٍ بنار. وأنهى أُمَّتي عن الكيّ**»[1]. وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ﷺ جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ فَقَالَ: إِنَّ أَخِي اسْتَطْلَقَ بَطْنُهُ. فَقَالَ رَسُولُ الله: «**اسْقِهِ عَسَلاً**» فَسَقَاهُ. ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ: إِنِّي سَقَيْتُهُ عَسَلاً فَلَمْ يَزِدْهُ إِلاَّ اسْتِطْلاَقاً. فَقَالَ لَهُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. ثُمَّ جَاءَ الرَّابِعَةَ فَقَالَ: «**اسْقِهِ عَسَلاً**» فَقَالَ: لَقَدْ سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلاَّ اسْتِطْلاَقاً. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**صَدَقَ الله وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ**» فَسَقَاهُ فَبَرَأَ[2].

قال ابن كثير رحمه الله: «قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلاً وهو حار تحللت، فأسرعت في الاندفاع فزاده إسهالاً، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسده المضرة بالبدن، استمسك بطنه، وصلح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام»[3] وشفي بأمر الله، وفي الصحيحين عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «كان النبيُّ ﷺ يحبُّ الحلْواءَ

(١) البخاري (٥٥٥٣).

(٢) رواه البخاري (٥٥٥٦) ومسلم (٥٧٢٢) واللفظ له.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٧٦.

والعَسل»[١]. وعند ابن ماجه بسند جيد ذكره ابن كثير، عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِالشِّفَاءَيْنِ: الْعَسَلِ وَالْقُرْآنِ**»[٢]. وقد ورد في التداوي بالعسل عن علي بن أبي طالب، وجابر بن عبدالله، وعقبة بن عامر الجهني، وغيرهم، وكتاب الله هو أقوى دليل حيث أوضح أن العسل فيه شفاء للناس كما نصت عليه الآية أعلاه ولله الحمد والشكر والمنة على نعمه.

---

(١) البخاري (٥٢٧٧) ومسلم (١٤٧٤).

(٢) سنن ابن ماجه (٣٥٣١) وصححه الحاكم (٧٤٣٥).

المبحث السادس: وما بث من دابة

ومن دواعي زيادة الإيمان بالله وما يدخل الطمأنينة في قلوب خلقه ويلهب الحماس في نفوسهم ويثبت سلطان العقيدة في قلب المؤمن حين يمعن الحس ويسبح به الخيال مع الفكر النظيف في قول الله تعالى: ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٤] ليس في الوجود للإنسان سعادة توازي سعادة الإيمان واليقين بالله فإذا منح الله عباده منحة الإيمان قادهم إلى خيري الدنيا والآخرة، الإيمان هو الذي يؤهل العبد للتفكر في عظمة الله وينظر بعين اليقين إلى الإبداع في صنع الله وآياته المبثوثة في كل مخلوق خلقه الله، كما قال أبو العتاهية:

ألا إنَّنا كُلّنا بائِدُ ... وَأيُّ بَني آدَم خالِدُ
وَبَدؤُهُمُ كانَ مِن رَبِّهم ... وَكُلٌّ إِلى رَبِّهِ عائِدُ
فَيا عَجَبا كَيفَ يُعصى الإِلَـ ... ـهُ أَم كَيفَ يَجحَدُهُ الجاحِدُ
ولله في كُلِّ تَحريكَةٍ ... عَلَينا وَتَسكينَةٍ شاهِدُ
وَفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ واحِدُ

فحين يتحرك الإيمان في النفوس فإنه يفتح العين والسمع والفؤاد إلى تعظيم عظمة الله في مخلوقاته: ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾ من كل مجموعات الدواب الطائرة منها والزاحفة في البر والبحر والجو، وبما أودعه الله في كل شكل من أشكالها من خصائص، وألوان وأحجام، وضخامة ودقة، ومميزات، كل ذلك: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ليس من الناس من لا يدرك عظمة الله حين يشاهد آياته الباهرة وصنعه البديع، وبالأخص العظمة والإتقان في خلق السماوات والأرض نعم ليس من يعظم تلك العظمة إلا أهل الإيمان واليقين: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أما من فقد اليقين فإنه لا

ينظر ولا يفكر إلا بنظر الأبله المسلوب منه اليقين والتفكير السليم، أما من منحه الله حصانة إيمانية فإنه ينظر إلى مخلوقات الله المختلفة التي لا يحصيها غيره وما بث من أرواح مما قد فني ومما هو باقٍ وما يبث في المستقبل إلى قيام الساعة كل ذلك من صنع الإبداع الرباني، إن جميع المخلوقات بكل أصنافها وأجناسها، ما هي إلا أمم كما قال جل جلاله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الدابة تطلق على كل ما خلق الله على وجه الأرض يستثنى الطير، وهي من آيات الله الدالة على عظمة ذاته الموجودة في عموم مخلوقاته، وفي قول: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ فالطير أمة من الأمم ولا تطلق عليه عبارة دابة بنص هذه الآية فالمولى القدير حلق كل دابة من الدواب وكل أمة من الأمم، خلقهم من العدم إلى الوجد، وتكفل بأرزاقهم جميعاً، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

والدواب تختلف أحجامها وأشكالها ومسمياتها بأشكال مختلفة مثل: الجمل والفيل والدواب الفخمة التي تسكن البحار والمحيطات، وفيها أي الدواب، صغير الحجم والبعض قدلا يرى بمجرد النظر، كما ذكر الله قصة سليمان عليه السلام بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]، وتلك الدابة هي الأرضة التي تأكل الملابس، خصوصاً الأصواف وأعواد الشجر، وتعرف عند عامة الناس [بالعُثَّة][1] وهي قد لا ترى بمجرد النظر،

(١) العثة بالضم سوسة أو الأرضة التي تلحس الصوف، جمع عُثّ (تاج العروس ٥/ ٢٩٧).

ولذلك سماها الله دابة الأرض كقوله تعالى:﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾.

إن كل تلك الأمم من جميع الأجناس من الملائكة والجن والإنس والوحوش بجميع أجناسها ومسمياتها وأنواعها والدواب الزاحفة وغير الزاحفة في البر والبحر والطيور بكل أحجامها وألوانها وأسمائها، وكل أنواع الحشرات بكل أنواعها المختلفة كلها مواعظ وعبر وهي مرصودة في كتاب عند ربي لا يضل ربي ولا ينسى، وفي أثر ساقه أبو يعلى بسنده إلى جابر بن عبدالله أنه قال: قلَّ الجراد في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ فسأل عنه فلم يُخبر بشيء عنه فاغتم لذلك فأرسل مراسيل إلى كل بلد يسألون هل رؤي من الجراد شيء أم لا؟ فأتاه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة من جراد فألقاها بين يديه، فلما رآها عمر كبر ثلاثاً ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خلق الله عز وجل ألف أمة، منها ستمائة في البحر، وأربعمائة أمة في البر، وأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد فإذا هلكت تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه**»(١).

قلت: وكذلك تعاقب الأيام والليالي والشهور والأعوام كل تلك المخلوقات فيها عظات لمن وهبهم الله قلوباً يفقهون بها، إن آيات الله المبثوثة في الكون بجميع أصنافها كفيلة برد الشارد الجاحد إلى الله، بل إن آية واحدة من آيات الله كفيلة بأن تكفي موعظة بليغة تدل على المعجزة الربانية، ثم قال الله تعالى بعد ذكر تلك الآيات في السماوات والأرض وفي خلق الإنس والجن والحيوان وكل المخلوقات،

---

(١) رواه أبو يعلى (المطالب ٢٣٧٥) وأبو الشيخ في العظمة (١٢٨٥) وابن عدي في الكامل (٥/ ١٩٩٠) والبيهقي في الشعب (١٠١٣٢) وغيرهم. وسنده ضعيف. قال الهيثمي (مجمع الزوائد ٧/ ٣٢٢): وفيه عبيد بن واقد القيسي وهو ضعيف.

وإنزال المطر من السماء وأحياء به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح أعقبها بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦] فهذه الآيات التي نشاهدها لا يشك فيها كافر بالله أو منافق، فضلاً عمن يؤمن بالله، وتلك المخلوقات المبثوثة في طول الأرض وعرضها، ألا تجذب الفؤاد إلى التفكير بجدية إلى عظمة الخالق؟ وتولد اليقين أن جودة الصناعة دليل على مهارة الصانع؟ وكذلك عظمة آيات القرآن الكريم المنزلة وإعجازها هي دليل على عظمة من أنزلها، وهو كلامه المعجز أنزله بالحق الذي لا ينكره إلا مسلوب العقل مطموس البصيرة مصروف عن طريق الرشاد والفلاح، قد أصيب بالصمم وعمى البصر والبصيرة، كما قال تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٧].

وآيات الله في كل مخلوقاته هي القوة في الدليل والحجج والبراهين الثابتة التي لا يشوبها شك ولا يعتريها نقص ولا ريب: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

الفصل السادس

أهمية الخلافة في الأرض

(١) المبحث الأول: جاعل في الأرض خليفة.

(٢) المبحث الثاني: وجوب الحكم بما أنزل الله.

(٣) المبحث الثالث: النبوة، عز الإسلام.

(٤) المبحث الرابع: الخلافة الراشدة.

(٥) المبحث الخامس: العهد الأموي.

(٦) المبحث السادس: العهد العباسي.

(٧) المبحث السابع: نهاية العهد العباسي في العراق.

(٨) المبحث الثامن : بطانة الشر وعاقبة السوء.

(٩) المبحث التاسع: دويلات بعد دولة.

(١٠) المبحث العاشر: من عجائب التاريخ.

(١١) المبحث الحادي عشر: إنها السنن

(١٢) المبحث الثاني عشر: العهد العثماني.

(١٣) المبحث الثالث عشر: سقوط دولة الخلافة.

(١٤) المبحث الرابع عشر: آثار الغابرين ومصارع الظالمين.

المبحث الأول: جاعل في الأرض خليفة

لعلم الله في الأزل ولتفضيل الله لآدم وبنيه من بعده، ولأمر الله بالخلافة في تنظيم شؤون المجتمع الإسلامي، فقد منح الله ذلك المجتمع أن يكون فيه خلافة في الأرض ونظام، ولا غنى لبني آدم عن ولي أمر ينظم لهم حياتهم ويدبر شؤونهم ويعمل على صيانة المجتمع من التفكك والعبث، فقد يسمى من يقع عليه الاختيار إماماً، أو ولي أمر، أو خليفة، أو أمير المؤمنين، أو سلطاناً، إلى غير ذلك، والخليفة هو الذي يخلف غيره في المنصب بعد موته أو عزله كما قيل لأبي بكر رضي الله عنه خليفة رسول الله ﷺ قال الله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٣].

ومعنى هذا أن الله قد استخلف آدم وذريته في الأرض وميزهم بالخلافة عن غيرهم من الملائكة والجن وسواهم، وأمر الخليفة بتسلم زمام الأمر، وكلفه وذريته من بعده بعمارة الأرض، والسعي في مناكبها، واستصلاح خيراتها ومواردها، وأمر بإقامة الحق والعدل وإقامة الحدود فيها، وهذا مما يمتاز به الإنسان عن غيره، فما عرف عن شيء أو كل المخلوقات أن كلفت بتنصيب من يحكمها وينظم لها شؤون حياتها غير بني آدم، فالذي خلق آدم واستخلفه في الأرض، هو الذي خلق

الأرض ومهدها للإنسان وأمره أن يقيم العدل المنزل من عند الله، في أرجائها، ومن فضل الله على نبي الله داود أن اختاره نبياً وخليفة في الأرض وأمره بإقامة العدل والإنصاف بين الناس قال تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: «هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عند الله تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله، وقد توعد الله تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد»، انتهى(١)، وهذه الآية دليل قاطع على فرض الحكم بما أنزل الله ووجوبه، وفيه وعيد وتهديد وترهيب لمن لم يحكم بما أنزل الله بالعذاب الشديد، وإن من شروط الخلافة في الأرض العدل بين الرعية، والحكم بينهم بالسَّوية، ومتى ما حُكِمَ بالعدل وأُلزم الكبير والصغير بتحكيم الشرع المنزَّل من عند الله وإزالة الفوارق بين أصناف الناس، من هنا تحصل القناعة، ويختفي عامل الغبن ويقضى على نوازع الهوى، وتنتهي هيمنة الواسطة الوضيعة، ويأمن الكل على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، لأن العدل والإنصاف هو بغية كل فرد وكل مجتمع في كل زمان ومكان، ولن يتحقق التكريم للإنسان أي إنسان إلا إذا عمل وفق مراد الله، لأن مراد الله يكمن في تحقيق العدل والإنصاف وتحكيم شرعه الذي أنزله على رسله وارتضاه لعباده، والله هو القوي

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٣.

العزيز الذي لا يُسأل عما يفعل قد حرم الظلم على نفسه وجعله بين الناس محرماً، كما جاء في الحديث الصحيح.[(١)]

ومن نعم الله على عباده أن سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، وأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه، ثم ألزمهم بالحكم بين خلقه بما أنز ل لهم خالقهم وموجد هم، فرفض الكثير حكم الله؟ أفلا يعاقب من رفض حكم الله وظن أن غير حكمه أصلح منه وأعدل؟!! ومن المعلوم أن أي خليفة أو ملك أو أمير من الناس بعد الأنبياء مهما بلغ قدره لا يبلغ من الفضل ما بلغه نبي الله وخليفته داود ـ عليه السلام ـ حيث جمع الله له بين الخلافة والنبوة ولذلك أنزل عليه ذلك الوعيد الشديد إن هو ترك الحق المنزل من عند الله ومال مع داعي الهوى.

❊ ❊ ❊

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر.

المبحث الثاني: وجوب الحكم بما أنزل الله

الإيمان بالله هو الإقرار واليقين بأن الله هو الذي أوجد الكون كله بما فيه من المخلوقات الضخمة الدائرة في هذا الجو الواسع الثابت؛ مما نشاهد، وما لا نشاهد، وما بث في هذه الأرض التي نعيش على ظهرها من أصناف المخلوقات، هو وحده العليم بما يصلحها، وما ينظم حياتها، لأنه هو الذي أبدعها، وأوجدها من العدم إلى الوجود، وهو الذي أنزل لها نظامًا شاملاً كاملاً، لا يجوز لأحد من عباده أن يشاركه في إدخال إصلاحات على نظامه ومن ظن ذلك كأنه يستدرك على الله ما نسي، أو أخطأ في تقنينه وهذا هو عين الغباء بل هو الضلال الكامل، فسبحان ذي الكمال والجلال المنزه عن الخطأ والنسيان، فإذا كان في البشر من يقر بوجود الخالق رباً وإلهاً، ويقر بمحمد رسولاً إلى الناس ومفسراً لكتاب الله، إلا أنه إذا تولى مالت به الشهوات وعاد محاولاً أن يسير نهج الله على مراد نفسه وما يجلبه عليه هواه ويزينه رفاق السوء، فَتَلْقَاه يمشي مع الإسلام إذا احتاج أن يكون معه ويتمسك به ظاهراً إذا أوصدت الأبواب ولم يبق له باب مفتوح، وانسدت الطرق إلا طريق الإسلام، عاد إليه يشيد به ويحث على التمسك به ما دام أنه يأخذ بيده وينتشله من وحله ويخرجه من مأزقه الحرج، فحين يصل إلى شاطئ الأمان ويحس أنه قد نجا وزال عنه الخطر المحدق به وزال عنه الخوف عاد إلى أقرانه وقرنائه من أهل مشورته، ممن ترعرعوا وتربوا في ميادين التربية الغربية المعادية للإسلام، الدائمة المجاهرة الظاهرة في عدائها الدائم، والتي لا تزال تصوب سهامها إلى مقاتل ديننا الحنيف، وتلك السهام تصوب ممن تغذوا بسموم أسيادهم، فإذا ألجمهم الدعاة بلجام الحق قاموا يتصنعون المعاذير ويزينون الحلول المستوردة من

أعداء ملتهم بما يناقض نهج الإسلام ويهدم كيانه، ومن هنا يتمكن جماعة اللصوص من محترفي سمسرة العمالة ضد القرآن وهدي القرآن وتجار الشعارات التي قد جلبوها على شرقنا المنكوب بهم، وعرضوا شعار العلمنة على قطيع الببغاوات من جهلة المجتمع.. فحسنوا لهم ذلك العرض الرخيص وزينوه بزخرف من القول الأجوف فأوقعوهم في الشباك.

إن تحكيم الشريعة الإسلامية ليس نافلة ولا هو من فضائل الأعمال إن حكم بها الحاكم أُجر وإن تركها لا إثم عليه، بل إن حكم الشرع فرض عين على كل مسلم وله، والحكم بما أنزل الله من مقتضيات عقيدة توحيد الله الخالص، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] إن الذي فرض توحيد الله في الاعتقاد، هو الذي فرض الحكم بما أنزل الله بين الناس في معاملاتهم وخصوماتهم وعهودهم ومواثيقهم التي جعلوا الله عليهم كفيلاً، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤ – ٤٥] وقال: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة:

٤٧] لذلك فإنه معلوم من الدين بالضرورة أن الحكم بما أنزل الله فرض عين لازم، ولا يجوز العدول عنه إلى غيره ومن فعل ذلك فقد اعتقد أن حكم غير الله أعدل من حكم الله واتخذ من قلده إلهاً من دون الله، لأنه اختار حكم الجاهلية وترك ما أنزل الله، كيف وقد حذر الله نبيه ﷺ من دسائس أهل الكتاب، ومراوغة المنافقين، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨ – ٥٠] ومن فرض نظاماً من عند نفسه، وزعم أن فيه تسهيلاً على الناس، وقدمه على ما أنزله الله فقد زعم أنه أرحم من الله بعباده وأحكم، بل فرض نفسه إلهاً لله ورباً لخالق الكائنات، واستحل بتقنينه حراماً حرمه الله فقد وضع نفسه في موضع فرعون حين أعلن مبادئه المضللة قائلاً لقومه: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [القصص: ٣٨].

إن المسألة مسألة إيمان بالله أو كفر به وليست مصطلحات الأجيال المتعاقبة، أو المصطلحات القبلية التي تتحاكم إلى مبادئ الجاهلية، وما تعارف عليه الناس

لا يغير من الحقيقة شيئاً، لأن الخالق الذي أبدع الكون وأوجد العباد هو الذي يعلم بما يصلح شأنهم، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤] إن الصانع هو الخبير المطلق بسر مهنته ويعلم مواد العناصر المركب منها ذلك المصنوع، ويعلم بما يصلحه وما يفسده، فهو الذي أبدع وصنع الخلق، وهو الذي يعلم بالنظام الصالح لشؤون من خلق، لأن الفرق بين النظام المنزل من عند الله والنظام الوضعي الذي اخترعه الإنسان، كالفرق بين ذات الله القوي العزيز، الحكيم الحي الدائم، وبين ذات الإنسان الضعيف قاصر الفهم الذي يفنى وتفنى معه صنعته وتقنينه، ومن ذا الذي يريد أن يسامي خالق الكون كله وكل ما أودع فيه من أسرار العجائب والإبداع في نظام من خلق: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٦].

فلو أن حاكماً أصدر قانوناً ثم أتى من أتباعه من خالف ذلك الأمر والقانون لوجب على ذلك المخالف لولي الأمر العقاب الصارم، ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ فكيف يعاقب إنسان على مخالفة إنسان مثله بلا هوادة، ولا يعاقب من خالف أمر الله الذي خلق المَلِكَ والصعلوك وأمره منزه عن الخطأ والزلل؟، وقد يكون ذلك الأمر أو القانون الذي من عند غير الله يحوي في طياته العديد من الأخطاء لأنه من صنع البشر وكل بني آدم خطآء!.

يا سبحان الله، إن الله هو الذي خلق الخلق من العدم إلى الوجود، وهو العليم بما يصلح حالهم وينظم لهم حياتهم، إلا أن الإنسان سريع الانقياد لوساوس الشيطان الرجيم، فبقيادته ألقى في أفكار اليهود أن إبراهيم وأبناءه كانوا يهوداً، وقالت النصارى كذبت يهود إنما هم نصارى، فكذَّبَ الله قولهم جميعاً، قال تعالى: ﴿ أَمْ

نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٠] وأكد سبحانه وهو أصدق القائلين أن إبراهيم وبنيه والأسباط كانوا قد وجدوا قبل بدعة اليهودية والنصرانية وكانوا مسلمين كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وعوداً إلى ذكر داود ـ عليه السلام ـ قد توعده وهو نبيه وخليفته في الأرض بذلك الوعيد الشديد إن ترك الحكم بما أنزل الله واتبع الهوى! قال تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦]، فكيف لا وقد صرح القرآن صراحة واضحة بكفر من حكم بغير ما أنزل الله، كما رأينا في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ ومن الغريب أن بعض من يدعي العلم ينفي هذا المعتقد، وكأنه نصب نفسه ندًا لله ليرد على الله، فهو لم يختلف مع عالم مثله وإنما اختلف مع الله.

ومن المُسَلَّم به أنها ما ضلت أغلب أمم الأرض إلا حين هيمنت موجة الباطل، واستحكم الهوى، واستمدت الأحكام من تقنين البشر القاصر والظالم، وسادت المحسوبية وعمل سلطان الواسطة البغيضة وهي أكبر نكبة أصيب بها المجتمع الإسلامي، لأنها تحرف الحقوق إلى غير أصحابها، وتقرب القرابة وتقصي أو تقضي على الحق والعدل، فعندها يهيمن الفساد الإداري محل الاستقامة النزيهة،

وتحل الفوضى محل العدل والنظام.

إن تكريم الله للإنسان لن يتحقق بدون تحكيم شرع من خلق الإنسان والكون وكل كائن، فالله هو الذي استخلف الخليفة وأهله للخلافة في الأرض، وهو القادر على نزع الخلافة منه، قال جل شأنه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦]. والله أنزل نظاماً سماوياً مهيمناً على كل النظم لينظم حياة أهل الأرض وهو عليم بما يصلح شؤونهم، فإذا عصى الإنسان من خلقه واستخلفه، ولم يحكم نظامه الذي رضيه لعباده فقد زعم أنه شريك لله ومنازع له في أمره، وكرر فرية فرعون إذ قال: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩] ولذلك قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

المبحث الثالث: النبوة، وعز الإسلام

النبوة هي بداية الرحمة والنور إلى الناس جميعاً، تحمل في طياتها الإشعاع الذي غطى مشارق الأرض ومغاربها، لقوله جل جلاله في وصف رسوله الكريم ﷺ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧-١٥٨].

فسمى القرآن الذي أنزل عليه نوراً، وذلك النور أراد به صنع معجزة لتنوير النفوس المظلمة، وكان أثر الإيمان تقوى القلوب وهدايتها، قال تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٦]، والنور الرباني يهبه منحة منه لمن أراد الله له التوفيق وكان فكره يدور حول الطاعة والإيمان برسوله والنور الذي أنزل معه، قال سبحانه: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [التغابن: ٨]، وذلك النور هو الذي وهبه الله لرسوله ﷺ ليصلح به ذلك الوجود المتعثر في مستنقع الجاهلية العمياء، أرسله الله بنور القرآن ومبادئ الإسلام ليقيم ما تهدم من مكارم الأخلاق، ويهذب المجتمع الذي

بعث فيه بعد هبوط الأخلاق السامية ليرفع ذلك المجتمع الذي كتب له الفلاح، يرفعه من وحل الجاهلية إلى سماحة الإسلام وعدله وإحسانه، أرسل الله رسوله بمادة النور ليقذفها إلى قلوب كانت خاوية من الهدى ولتثبت الحياة السعيدة بعد موتها بنور الوحي الذي يجلو كل خيال فاسد، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

كيف وقد بدأ عز الإسلام ببعثة نبينا محمد ﷺ بنزول النور الذي جاء به، وانتشر الإسلام واستقام عوج الحياة، وتوارت الجاهلية البغيضة واختفت معالمها الوثنية وتحطمت الأصنام، وأظهر الله دين الإسلام بعد أن محا آثار الجاهلية وعبد الله وحده لا شريك له وزالت فوارق الجاهلية الظالمة، وأصبح المسلمون أسرة واحدة لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، فاطمأنت النفوس إلى عدل الإسلام وتمكن اليقين من القلوب وانشرحت ببعثة النبي ﷺ الصدور وابتهجت الخواطر لمحاسن هديه القرآن وعدل الإسلام، فعاد كل شيء في المجتمع المسلم يسير وفق ما يحبه الله ويرضاه، فالحب في الله والبغض في الله والعطاء لله والمنع لله، فحين كان الأمر كذلك وأن كل شيء يسير وفق ما يريده الله وقف كل مسلم في الموقف الذي يليق به ويعتقد أن فيه طاعة لله وطاعة رسوله ﷺ، وتمكن حب الله من القلوب ونزع كل ما علق بها من رواسب الجاهلية، التي كانت تضع كل شيء في غير موضعه، وتعبد الحجر والمدر والشجر وغيره من دون الله، إذ كانت الفطر معكوسة وملتوية، والمواهب البشرية تذهب هباء في خدمة الشيطان وعبادة كل ما خلقه الله من مسميات صنعها البشر، وألقاها الشيطان في روع أذهان أوليائه،

وزين لهم عبادتها من دون عبادة الله تعالى، ثم ظهر نور الإسلام الساطع المستمد سلطانه من الوحي المنزل الذي: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

وهيمنت عناية الله ورحمته المسداة لعباده ورأفته بهم أن أرسل إليهم رسولاً منهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور، قال جل شأنه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]، لقد أرسل الله محمداً ﷺ رحمة للناس كافة ومنحه خُلُقاً قد انفرد بحسنها ولم يباره فيها أحد من خلقه، كما وصف سعة خلقه ورأفته وحرصه على هداية الناس بقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣]. وقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٣ – ٧٤]، وهو الصراط الذي أرشد الله عباده الصالحين أن يدعوه وحده لا شريك له أن يهديهم لسلوكه

بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦ – ٧].

وقال عن سماحته وخلقه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، ومن خلقه أن رسم لأمته نظام حياة يعيش في ظلها القاصي والداني، وعلم كل فرد في المجتمع الإسلامي ما له وما عليه نحو أسرته وإخوانه وجيرانه وأمته، وقدمه هدياً وسنة كنظام حياة للسالكين، فعن عَبْدِ الله بن عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ الله فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» متفق عليه(١).

وقال الزُّهْرِي: حَدَّثَنِي أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لا تَبَاغَضُوا وَلا تَحَاسَدُوا وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا، وَلا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ**»(٢)، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلا تَحَسَّسُوا وَلا تَجَسَّسُوا وَلا تَنَاجَشُوا وَلا تَحَاسَدُوا وَلا تَبَاغَضُوا وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا**» متفق عليه(٣).

وَعَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» متفق عليه(٤).

---

(١) رواه البخاري (٢٣١٠) ومسلم (٢٥٨٠).
(٢) رواه البخاري (٥٧٢٦) ومسلم (٢٥٥٩).
(٣) رواه البخاري (٥٧١٧) ومسلم (٢٥٦٣).
(٤) رواه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أيضاً قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ الله عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالله فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ الله لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمْ المَلائِكَةُ وَذَكَرَهُمْ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»[1].

الله أكبر ما أكمل وأحسن هدي محمد ﷺ وما أعظم تعاليم هذا الدين الحنيف الذي كله عدل وكله رحمة وشفقة ووقار وسماحة، ففي هذه الأحاديث الثلاثة جميع مكارم الأخلاق كلها، وسد جميع منافذ الشيطان، فلو أن المسلمين تمسكوا بتعاليمه السامية لسادوا العالم، كما ساده سلف الأمة في صدر الإسلام، كيف لا وهو يدعو للم الشمل ونبذ الفرقة والقطيعة والبعد عن الحسد وما يسبب غيظ المسلم من أخيه «**فالْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ**» ولا يتسبب في ظلمه وخذلانه وحسده ومضايقته، بل يجب أن يجله ويحترمه ويتمنى له الخير، كما حرم على المسلم قطيعة المسلم وهجره، وعلى المسلم أن يحرص على قضاء حاجة أخيه المسلم، وتفريج كربته، وستره إن حدثت منه هفوة، فالكمال لله، «**وَالله فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**».

بعد تلك الأخلاق التي غرسها النبي ﷺ في نفوس أصحابه وأبلغها الأصحاب إلى التابعين وتناقلتها الأجيال المتعاقبة، انطلق المسلمون تحت راية لا إله إلا الله

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩) وأصحاب السنن.

متحدين متحابين في عز ومنعة كأن أقدامهم على صواريخ تعبر بهم القارات والمحيطات لفتح البلدان النائية وتوحيدها بعد أن توحدت قلوبهم على الإيمان والتقوى.

وكانوا قبل ذلك ضائقة بهم الدنيا في جزيرة العرب أعراباً جفاة أضيع من الأيتام على مائدة اللئام يقتل بعضهم بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً، يأكل القوي فيهم الضعيف، أقرب شَبهاً بهم قطعان الماشية الضالة بلا راعٍ، يتعاونون على الظلم والباطل في عصبيات جاهلية لا تعرف الرحمة، وليست لهم حضارة يعرفون بها، ولا مكرمة يتميزون بها إلا سطوة القوي منهم على الضعيف بظلم وقسوة لا رحمة في قلوبهم، بل كانت حضارتهم التي يتميزون بها هي العصبية البغيضة والسلب والنهب وقطع الطريق ونهب الأموال بغير حق، مثلهم مثل الوحوش في الغابة.

فحين ظهر الإسلام هبطت الجاهلية وتوارت وتحول شعارها الظالم: انصر أخاك ظالماً وأيده على ظلمه وبغيه وجوره، أو مظلوماً من باب مبدأ العصبية على أي حال، أما شعار الإسلام، انصر أخاك إن كان ظالماً فخذ على يده واردعه عن ظلمه فذلك نصر له، ومن حيث الحكم والإدارة والعدل والرحمة بين الناس كان خلقهم ومنهجهم هو القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] وقد ورد عنه ﷺ قوله: «**وأيمُ الله لو أنَّ فاطمةَ بنت محمدٍ سَرقَت لقَطعتُ يدَها**»(١)، فنهض المسلمون بقيادة خاتم الأنبياء والرسل يدعون إلى الله على نور من هدي كتاب الله ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠

(١) رواه البخاري (٣٤٠٠) ومسلم (٤٣٦٤) من حديث عائشة.

وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨] فأدبهم رسول الله ﷺ وأحسن تأديبهم وأَهَّلَهُم لقيادة العالم، فأحسنوا القيادة وسعد بهم كل من وصل إليه الفتح الإسلامي من العالم.

المبحث الرابع: الخلافة الراشدة

ثم أتى عصر الخلافة الراشدة التي اكتسبت مناهج حياتها من هدي كتاب الله، وسارت في مشوار ها وأسست أحكامها وما يتعلق بمصير أمتها من هدي صاحب الخلق العظيم ﷺ، ونشروا التوحيد والعدل في كل شبر من الأرض وطئته أقدامهم، حتى قال أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ: «أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم»، وقال: «إن الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه ممن ظلمه وإن القوي فيكم ضعيف عندي حتى أعطي الحق منه إلى من ظلمه»(١). فتشبعت نفوسهم بالخوف من الله وبمكارم الأخلاق راقبوا الله في السر والعلن فتزينوا بجمال الإيمان وتخلقوا بتربية كريمة وخلق عالٍ وتزكية رفيعة، استقلوا بها فوق الغمام لأن مؤهلهم الشهادة العالية الغالية، وهي الشهادة العالمية الرفيعة منحت لهم من مدرسة النبوة الطاهرة، تلقوا دروسهم من نبيهم المصطفى ﷺ وتحت إشرافه الدقيق وتوجيهاته السامية فانتشر الإسلام.

فعاشوا على سنته متمسكين بهديه وتعاليمه، فمشت جحافل الإسلام وارتفعت رايات المجاهدين الفاتحين على كل قطر من أقطار الأرض، فأسلمت بإسلامهم بلاد فارس وشمال أفريقيا مع بقية البلدان المجاورة لجزيرة العرب، فحل الأمن وخيم الأمان وسعدت كل الطوائف بحكمهم وتحت قيادتهم العادلة، لأن القيادة الراشدة كانت تدفعهم إلى التسامح والتمسك بمكارم الأمور حتى حلت في قلوبهم الروح الإيمانية الصادقة يدعون الناس إلى الإسلام ويزرعون في قلوب من عرفوا ومن لم يعرفوا المحبة، ويطبقون خواطر التسامح بالأفعال قبل الأقوال،

---

(١) رواه عبدالرزاق في مصنفه (٢٠٧٠٢).

فكانوا بذلك مؤهلين لقيادة العالم بحكمة وصبر وإخلاص ويقين، حتى برهنت تلك القيادة عملياً أنها قيادة حكيمة عادلة خالصة يحبون الخير لكل البشر، وفي قلوبهم الرحمة لكل أجناس الناس، الكل عندهم سواء، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بتقوى الله.

ومما تجدر الإشارة إليه ما اشتمل عليه دين الإسلام من عدل وأخلاق كريمة، وعز ومنعة، ورد في البداية والنهاية قال ابن كثير[1]: أرسل سعد بن أبي وقاص ﷺ المغيرة بن شعبة إلى رستم قائد الروم قال سيف: عن شيوخه: ولما تواجه الجيشان بعث رستم إلى سعد أن يبعث إليه برجل عاقل عالم بما أسأله عنه. فبعث إليه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. فلما قدم عليه جعل رستم يقول له: إنكم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونكف الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا. فقال له المغيرة: إنا ليس طلبنا الدنيا، وإنما همنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله إلينا رسولاً قال له: إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدنْ بديني فأنا منتقم بهم، منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذل، ولا يعتصم به إلا عز. فقال له رستم: فما هو؟ فقال أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله، فقال ما أحسن هذا؟ وأي شيء أيضاً؟ قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله. قال: وحسن أيضاً وأي شيء أيضاً؟ قال: والناس بنو آدم، فهم إخوة لأب وأم. قال: وحسن أيضاً. ثم قال رستم: أرأيت إن دخلنا في دينكم أترجعون عن بلادنا؟ قال: إي والله ثم لا

(١) البداية والنهاية ٧/ ٣٩.

نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة. قال: وحسن أيضاً. قال: ولما خرج المغيرة من عنده ذاكر رستم رؤساء قومه في الإسلام فأنفوا ذلك وأبوا أن يدخلوا فيه قبحهم الله وأخزاهم وقد فعل.

ثم أرسل سعد ربعي بن عامر، وقال ابن كثير وردفي البداية:قالوا: ثم بعث إليه سعد رضي الله عنه رسولاً آخر بطلبه وهو ربعي بن عامر، فدخل عليه وقد زيَّنوا مجلسه بالنَّمارق المذهَّبة، والزَّرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللآلىء الثمينة والزينة العظيمة، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبَها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحُه ودرعه وبيضتُه على رأسه. فقالوا له: ضع سلاحك فقال: إني لم آتِكم وإنّما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعتُ. فقال رستم: ائذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النَّمارق فخرَّق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيق الدنيا إلى سعَتَها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه؛ فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضيَ إلى موعود الله، قالوا: وما موعودُ الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. فقال رستم: لقد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم، كم أحبُّ إليكم؟ يوماً أو يومين، قال: لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. فقال: ما سنَّ لنا رسول الله ﷺ أن نؤخِّر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر

واحدة من ثلاث بعد الأجل. فقال: أسيِّدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يُجير أدناهم على أعلاهم. فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قط أعزَّ وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك إلى هذا الكلب أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العرب يستخفُّون بالثياب والمأكل ويصونون الأحساب.

المبحث الخامس: العهد الأموي

ثم أتى العهد الأموي فواصل المسيرة وانتشر الإسلام انتشار ضوء الشمس وقت شروقها وامتدادها في الأفق الرحب، وعُبد الله وحده لا شريك له، وكُسرت الأصنام وهوى كل معبود غير الله، وأخرجوا العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد وحده لا شريك له، وأصبحت كلمة التوحيد الخالصة هي شعار كل مسلم في كل اتجاه، وتواصلت الفتوحات الإسلامية في شرق الأرض وغربها.

ثم قامت حضارة المسلمين بفتح بلاد المغرب وفتح جزيرة الأندلس بالقارة الأوربية بقيادة الأمير موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد رحمهما الله، وارتفعت راية التوحيد في تلك البلاد وكُسر الصليب، وعاد كل إنسان في تلك البلاد لا يحني ظهره ولا يركع ولا يسجد إلا لمن خلقه وصوره، وظهرت طلائع الحضارة الإسلامية بالأندلس ودام ملك المسلين لها ثمانمائة وخمس سنوات.

وما كان الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس شهوة للسيطرة وسفك الدماء وقتل الأبرياء، وما كان الهدف منه إلا لينتشر الإسلام ويعبد الله وحده لا شريك له، وترتفع راية الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، لئلا يكون في الأرض معبود إلا الله، وألا يحني الإنسان جسمه إلا لله لأنه هو الذي خلقه وكرمه وأحسن شكله وعقله ومنظره وكرمه على كثير من مخلوقاته.

وما كان فتح بلاد الأسبان وغيرها إلا لتثبيت الإنسان في منطقة الكرامة التي منحه إياها خالقه ومولاه، فدخلت تلك البلدان بعد الفتح الإسلامي في حضارة مزدهرة بهرت العقول بعد أن شيدت آثارًا لم تعرفها أوربا من قبل، وما كانت نهضة بلاد الغرب قاطبة في قوتها الحضارية المادية المعاصرة إلا امتداد لحضارة

المسلمين في بلاد الأندلس وبلدان شرق آسيا وغيرها، وبقيت تلك الحضارة ولا زالت معالمها شامخة إلى عصرنا الحاضر، شاهدة على صلاح الإسلام في كل عصر وزمان ومكان.

المبحث السادس: العهد العباسي

واستمرت الفتوحات في العهد العباسي ونُشر التوحيد في طول الأرض وعرضها، واستنارت كل أقطار العالم في صدر الخلافة العباسية بعدل الإسلام واستمر حكمهم ما يقرب من سبعمائة وواحد وسبعين سنة، فتوسعت الفتوحات الإسلامية في كل ناحية من نواحي المعمورة، وساد عز المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ومكثت الخلافة العباسيَة من عام ١٣٢هـ وانتهت بنهاية خلافة آخر خليفة من الخلفاء العباسيين وهو الخليفة المستمسك بالله يعقوب بن عبدالعزيز بن يعقوب في عام ٩٠٣هـ ومدة خلافة العباسيين ٧٧١ سنة، فسبحان من له البقاء المطلق.

وإذا نظرنا إلى حادثة واحدة في خلافة بني العباس اتضح لنا كيف كانت عزة الإسلام ومنعة المسلمين أيام حكمه وهيمنته؟ وكيف كانت كلمة خليفة المسلمين هي النافذة؟ وكانت حضارة الإسلام هي الحضارة الأولى في العالم كله قبل أن تدخل عليه المبادئ الهدامة، وقبل أن يمتحن بأذيال من أبنائه (وما حادثة وامعتصماه عنا بغريبة)، ذكر ابن الجوزي في كتاب «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»[1]، قال: بلغنا أن امرأة مسلمة ببلاد الروم أُسِرت في حربٍ جرت بينهم وبين المسلمين فجعلت المرأة تنادي وتستغيث قائلة: وامعتصماه! فبلغه ذلك فقال على الفور: لبيك لبيك، فجهز جيشه وتقدم حتى دخل أرض الروم وأنقذ المرأة ونكل بالروم ثم كر راجعاً بعد النصر.

---

(١) المنتظم ١١/ ٢٩.

وفي رواية غير ابن الجوزي، أن امرأة مسلمة قد أسرها الروم فضربوها، فاستغاثت بقولها: وامعتصماه! فضحكوا من استغاثتها وقالوا في تهكم: سوف يأتيك المعتصم بالخيول البلق، فبلغ المعتصم الخبر فغضب ثم كتب كتاباً إلى ملك الروم قال فيه: من أمير المؤمنين محمد بن هارون الرشيد المعتصم بالله، إلى «كلب الروم» أما بعد: فقد بلغني أن امرأة مسلمة تُعذَّب في بلادكم، فإذا وصلك كتابي هذا فابعثها معززة مكرمة، وإلا فوالذي بعث محمداً بالحق لأجرِّدن لك جيشاً أوله عندك وآخره عندي وليس من سمع كمن رأى.

إلا أن ذلك العلج ظن أنه من غير الممكن أن يجهز جيش لغزو بلاد بعيدة من أجل امرأة واحدة، فلم يرسلها فحين تيقن المعتصم أن المرأة لم ترسل ولم يتلق جوابًا جهز قوة ضاربة من الجيوش بقيادته هو وكان معه القواد وفي المقدمة جل الخيول البلق، فأحاط عاصمتهم عمورية من كل نواحيها بالجيش وهدم أسوارها المنيعة فدافع الروم عن عاصمتهم واستماتوا في الدفاع فلم تجد استماتتهم، وحين دخلت الخيول البلق صاحت المرأة قائلة: انظر يا عدو الله هذا هو المعتصم وتلك هي الخيول البلق دخلت بلدك وعما قليل تدك قصرك وتحطم عرش ملكك! ثم احتل المدينة وحطم قصور الطغاة واستولى على كل الخزائن والأموال فاستنقذ المرأة، وكرَّ راجعاً وسُحُب النصر المجيد تظلله وعناية الله تحوطه، وبتلك المناسبة نظم شاعر البلاط حبيب بن أوس الطائي المعروف بأبي تمام قصيدته التاريخية التي كان مطلعها:

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ ... في حَدِّه الحدُّ بين الجدِ واللعبِ
بِيضُ الصفائحِ لا سودُ ... في مُتونهن جلاءُ الشكِ والرِّيبِ

والعلمُ في شُهبِ الأرماحِ لامعةً … بينَ الخَميسينِ لا في السبعةِ

فَتْح الفتوحِ تعالى أن يُحيطَ به … نظمٌ مِن الشعرِ أو نثرٌ من الخُطب

فتحٌ تفتحُ أبوابُ السماءِ له … وتبرزُ الأرضُ في أثوابها القُشُبِ

أبقيتَ جدَّ بني الإسلام في صَعَدٍ … والمشركينَ ودارَ الشركِ في صَبَب

لقد تركتَ أميرَ المؤمنينَ بها … للنار يوماً ذَليلَ الصخرِ والخشبِ

غَادرْتَ فيها بهيمَ الليلِ وهو ضحىً … يشله وسطَها صبحٌ من اللهبِ

وحسنُ منقلبٍ تَبقى عواقبُه … جَاءَت بشاشَتهُ من سوءِ منقلبِ

لو يعلمُ الكفرُ كم من أعصُر كَمنت … له العواقبُ بين السمر والقضب

تدبيرُ مُعتصمٍ بالله مُنتقم … لله مُرتَقِبٍ في الله مُرْتَغِبِ

رمَى بِكَ اللهُ بُرْجَيْها فَهدَّمَها … ولو رمَى بكَ غيرُ الله لم يُصِبِ

هيهاتَ زُعْزِعَتِ الأرضُ الوقورُ به … مِنْ غزوِ مُحتَسِبٍ لا غزوِ مُكتسبِ

خليفةُ الله جازى الله سعيكَ عن … جرثُومةِ الدينِ والإسلامِ والحسبِ

فبينَ أيامِكَ التي نُصِرْت بها … وبينَ أيام بدرٍ أقربُ النسبِ

أَبْقَت بني الأصفر الممراض كاسمهم … صُفرَ الوُجوهِ وجلت أَوْجَه العَربِ

انظر يا رعاك الله من أجل امرأة مسلمة واحدة عذبت، فاستغاثت بالخليفة المعتصم عليه من الله شآبيب الرحمة والغفران، فنظمت الجيوش وانقض خليفة الإسلام بجيشه الظافر، فأغار على عاصمة الروم في عقر دارهم، وهدم أسوارها الحصينة وهدم قصور الطغاة من حكام بني الأصفر واستنقذ امرأة واحدة وعاد معززاً مكرماً منتصراً ظافراً نعم من أجل امرأة واحدة في عز الإسلام! فكيف حصل هذا الهبوط السياسي والعسكري، وكيف يا من تحملون الشهادات العالمية

العالية، فكيف حال المسلمين اليوم في ظل نهضتكم المستوردة وثروتكم الهائلة التي لا تغرب عنها الشمس؟!!

إنه لم يحصل ذلك الهبوط في عصر حكام المسلمين الأوائل من أمثال الخليفة العباسي المعتصم بالله، ومن غزو لبلاد الروم إذ جهز جيش الإسلام بقيادته هو، وسخر موارد الدولة الإسلامية كلها من أجل إنقاذ امرأة واحدة، فكيف الموازنة بين اليوم وذلك اليوم؟! وما هو سبب قوة ذ لك الواحد وعجز هؤلاء الذين لا يحصى لهم عدد ؟! الله أكبر إن الموت والله كان أجدر و تحت أطباق الثرى الستر أولى من حياة الذل والمهانة والاستعباد الرخيص!.

المبحث السابع: نهاية العهد العباسي بالعراق

التاريخ يحمل في طياته العجائب ومنها عند ما استولى أبو العباس عبدالله بن محمد بن علي السفاح أول أمراء بني العباس على الخلافة بعد بني أمية في عام ١٣٢هـ ثم دخل التتار بقيادة هولاكو حفيد جنكز خان بغداد في عام ٦٥٦هـ وأزالوا الخلافة العباسية من العراق، وقتلوا أكثر أهلها بما فيهم الخليفة المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله بن المنتصر بالله، فكثر القتل في أهل العراق حتى سالت الأرض بالدماء، وقد احتل دار الخلافة ببغداد حين ركن القادة إلى الدنيا وضيعوا ما حملوا من الأمانة الغالية الثمينة، الأمانة الثقيلة التي تخلت عن حملها السماوات والأرض والجبال على ضخامتها، فحملها الإنسان الضعيف الهزيل فضيعها وما رعاها حق رعايتها قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] إن الله جل جلاله لا يظلم العباد إلا أن الفساد هو الموصل إلى حتمية الهلاك والدمار.

ومن الدواهي أن يصاب الإنسان بمصيبة الغفلة والغرور بالله جل شأنه وهو الخالق الرزاق المحيي المميت، ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب، ولا علاقة للإنسان بخالقه ومولاه إلا من طريق طاعته وتقواه، فإذا ضيع الإنسان أمر الله وهو محتاج إليه، وركن إلى سواه فعند ذلك يتخلى الله عنه ويكله إلى من ركن إليه لأنه نسي الله فأنساه نفسه واتبع هواه، وقد حذر الله عباده بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩] إنه لا نجاح ولا فلاح ولا نصر لأحد إلا بالإيمان به والتمسك بحبله قال جل شأنه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر:

٥١] وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧] تلك هي سنة الله في خلقه حين يركن الناس إلى الدنيا ويهيمن الغرور على مشاعرهم وأفكارهم، ويتنافسون في الحطام وكثرة المال الزائل، أو يهيمن الغرور، وتحل الغطرسة بعظمة الملك والسلطان، أو الفخر بالنسب وكثرة الأعوان، فيضيعون أمر الله ويشتغلون بجمع الحطام الفاني أو بالملذات وتسيطر عليهم الشهوات، عندها يوسد الأمر إلى غير أهله، ويسلط الله شرار خلقه على بعضهم من العصاة، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، وكما جاء في الأثر القدسي: «**إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني**»(١).

فإذا أراد الله إنفاذ قضائه أذهب من ذوي العقول عقولهم حتى ينفذ أمره، قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠] وقال جل شأنه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٥٣] وقال سبحانه: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد: ١١] إنها إذا انصبت الكوارث على من استحل معاصي الله فلا تقل كيف حصل هذا ومن أين أتى البلاء؟ إنه حصاد المعاصي ولكل زارع مثل ما زرع، إن مصدر المعاصي هو مصدر العقاب وقد عاقب الله وعاتب أحسن عباد الله وأكرم خلق الله على الله قال تعالى: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ

(١) حلية الأولياء ٨/ ٩١.

أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

إن الكارثة المؤلمة كانت نهايتها مقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله في يوم الأربعاء الرابع عشر من شهر صفر عام٦٥٦ هـ على يد شرار خلق الله، وبتلك المناسبة نظم الإمام ابن كثير رحمه الله قصيدة ذكر فيها مقتل الخليفة العباسي وما حل بالبلاد من قتل وهدم وتخريب حين دخول التتار إلى بغداد، وذكر فيها سلسلة خلفاء بني العباس قال في مطلعها يذكر المستعصم:

ثــم ابــتلاه الله بالتتــار … أتبــاع جنكــز خــائن الجبــار
فمزقــوا جنــوده وشــمله … وقتلــوه نفــسه وأهلــه
ودمــروا بغــداد والــبلاد … وقتلــوا الأحفــاد والأجــداد
وانتهبــوا المــال مــع الحــريم … ولم يخــافوا ســطوة العظــيم
وغــرهم إنظــاره وحلمــه … ومــا اقتــضاه عدلــه وحكمــه
وشــغرت مــن بعــده الخلافــة … ولم يــؤرخ مثلهــا مــن آفــة[1]

وفي حديث أم المؤمنين زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ «أنَّ النبيَّ ﷺ دَخلَ عليها فَزِعاً يقول: **لا إلهَ إلاّ الله، ويلٌ للعَرب من شرٍّ قدِ اقترَب، فُتح اليومَ من رَدْمِ يأجوجَ ومأجوج مثلُ هٰذهِ** ـ وحَلَّقَ بإصبَعهِ الإبهامَ والتَّي تَليها ـ فقالت زينبُ بنتُ جَحشٍ: فقلتُ يا رسولَ الله أَنهلِك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كَثُرَ الخَبَث**» متفق عليه[2].

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٩.

(٢) رواه البخاري (٣٢٨١) ومسلم (٧١٨٤).

المبحث الثامن: بطانة الشر وعاقبة السوء

قال السيوطي في تاريخ الخلفاء[1]: المستعصم بالله أبو أحمد عبدالله بن المنتصر بالله، آخر الخلفاء العراقيين من بني العباس بويع له بالخلافة بعد موت أبيه وأجاز له ابن النجار والمؤيد الطوسي أبو روح الهروي وجماعة، وروى عنه الإجازة جماعة، وأخرج له الدمياطي أربعين حديثاً رأيتها بخطه، وكان كريماً حليماً سليم الباطن حسن الديانة.

وقال قطب الدين: كان متديناً متمسكاً بالسنة كأبيه وجده، ولكن لم يكن مثلهما في التيقظ والحزم وعلو الهمة، بحيث ركن إلى وزيره مؤيد الدين العلقمي الرافضي فأهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف أراد، وهو الذي باطن التتار وناصحهم وأطمعهم في المجيء إلى العراق، فكان هو وسيلتهم ودليلهم لدخول جيش العدو إلى العراق للإطاحة بالخليفة والاستيلاء على بغداد وإزالة حكم الدولة العباسية، ليقيم على أنقاضهم خليفة من الشيعة العلوية، وكان إذا جاء خبر من التتار كتمه عن الخليفة، وينشر أخبار الخليفة إلى التتار فحصل ما حصل.

قال ابن كثير رحمه الله: إن المستعصم هذا كان آخر خلفاء بني العباس على بغداد، ومن أسباب سقوطه أنه استبد بالثروة ووكل الأمر إلى أعوان ظلمة فصرف الجيوش ومنع عنهم الأرزاق، حتى كان الجند يتسولون على أبواب المساجد وفي الأسواق والطرقات، فشح عليهم بالأموال حتى في وقت حاجته إليهم، فاستبد بالأموال خدمه من الظلمة، وكانوا جهلة أراذل فاحتكروا الثروة وصهروها في

(١) تاريخ الخلفاء ١/ ٤٦٤.

سبائك من الذهب، وحفروا لها الأخاديد في باطن الأرض ودفنوها فيها، والعلماء وأفراد الجيش وأشراف الخلق يموتون جوعاً، فكانت النتيجة المرة المؤلمة أن سلط الله عليهم شرار خلقه هولاكو وجنده المارقين.

ذكر الهمداني: أن كل ما كان قد جمعه الخلفاء العباسيون خلال خمسة قرون من الزمن تسلط عليه المغول ووضعوا بعضه على بعض فكان كجبل على جبل، فاستولى هولاكو على تلك الخزائن وصهرها في سبائك وساقها إلى أذربيجان، وأمن لها قلعة عظيمة فأودعها بتلك القلعة.

وأورد الهمداني في تاريخه أيضاً حيث قال: إن الله سلط شرار خلقه وهم التتار على المسلمين حين أضاعوا أمر الله وتنافسوا على الدنيا، وضيعوا الأمانة التي تقلدوها، وذكر رسالة من الطاغوت هولاكو إلى حاكم دمشق قال فيها: قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى وقتلنا فرسانها وهدمنا بنيانها وأسرنا سكانها.

وكتب إلى سلطان مصر المظفر قطز ـ رحمه الله ـ رسالة جاء فيها: إنا نحن جند الله في أرضه خلقنا من سخطه وسلطنا على كل من حل به غضبه، فقد ضيعتم الأمانة وتقلدتم الخيانة وأكلتم الحرام وخنتم العهود والأيمان والمواثيق، وتعممتم ظاهراً بالدين وفشا فيكم العقوق والعصيان، وقد ثبت عندكم أنا نحن الكفرة، وثبت عندنا أنكم أنتم الفجرة.

وتعجب هولاكو من ضخامة أموال الخليفة المسلم وكيف كنز تلك الخزائن التي تعجز عن نقل مفاتيحها العصبة أولو القوة من أموال طائلة ثم يبخل على الجنود بأرزاقهم وكيف حبسها عن أهلها ومستحقيها؟ في الوقت الذي كان فيه الجيش وأشراف الخلق يموت أحدهم جوعاً لا يجد ما يسد رمقه، وحثالة البشر

من الوزراء الخونة والخدم والموالي يعيشون في بذخ وترف وإسراف وتبذير، فكيف كانت النهاية؟ سلط الله عليهم شرار خلقه فقتلوا الخليفة وأهل بيته وأبادوا الأمة رجالهم ونساءهم وأطفالهم وقتلوهم شر قتلة قيل إنه قد بلغ عدد من قتل بالعراق أكثر من مليوني نسمة!!!

وصدق الله القائل في كتابه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧] قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

المبحث التاسع: دويلات بعد دولة

انتشر الإسلام في بلاد الأندلس بفضل الله وحده، ثم بعزيمة المجاهدين الفاتحين الأبطال الشرفاء، وعاشت تلك البلاد التي كانت توصف بالجنة الخضراء تحت حكم الإسلام ثمانية قرون، حين كان الإسلام هو المسيطر وشرع الله المنزل هو النظام وهو الدستور، وحين لم يتغلغل حب التسلط والهيمنة الرخيصة على مشاعر الحكام وأفكارهم بعد، ولم يكن رائدهم إلا أن يسود الإسلام وتعلو رايته وينعم الناس في ظله وتشملهم عدالته السامية ورحمته الكاملة .

أما حين خلف من بعدهم خلفٌ أضاعوا الصلاة، وهيمنت عليهم الشهوات واستحلوا الموبقات وجعلوا من أنفسهم أسود غاب على شعوبهم، وتنمروا على أبناء أمتهم، ثم هانوا وضعفوا وارْتَدوا لباس الذل والمهانة لعدوهم، وتحلوا بريش القطا في مواجهة أسيادهم من أعداء أمتهم المحارب لملتهم، وقسموا دولة الإسلام إلى دويلات، وكل طائفة صارت دولة تحارب أختها، وعاد كل عامل على مدينة أو قرية يلقب بملك أو خليفة أو أمير المؤمنين لتلك الدولة الهزيلة، وصار الكل يعرفون بملوك الطوائف، وساد مجتمعهم المغلوب على أمره الظلم والتعسف وتفككت الجبهة الداخلية وانحلت الوحدة الوطنية، وتهدمت قواعد بنيانها وخر عليهم السقف من فوقهم، وتحقق فيهم وفي أمثالهم قول الله تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٦-٢٧].

وحين ضعف سلطان الدين وخيم الفساد الإداري في أجهزة دويلاتهم المبعثرة، وحالت بطانة الشر بين الراعي والرعية، فلم يصل إلى ولي الأمر من المظالم إلا ما سمحت بطانة السوء بإيصاله، واستحكم الظلم حين ترك لهم الحبل على الغارب، وحين تركوا الخليفة العام جسماً بلا روح ليس له منِ الأمر شيء، وشاع ما يعرف بملوك الطوائف المتناحرة فانتحلت كل دولة من تلك الطوائف اسماً لدولتها، ثم تصارعت وجعل الله بأسهم بينهم، فتسلط الأعداء عليهم وتهاوت دويلاتهم كنظامٍ بالٍ انقطع سلكه فتتابع، وخرجوا منها أذلاء مطرودين وحل بدلاً منهم حكام النصارى، وأصبحت المساجد والجوامع والمآذن التي شيدها المسلمون ليرفع من على شرفاتها التكبير والتهليل وذكر الله في كل يوم خمس مرات، فرفع عليها الصليب الوثني وشعارات من قالوا إن الله ثالث ثلاثة، وكانت دويلات الطوائف في خبر كان: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

الله أكبر! كيف يسلط الله الذل والصغار على الجبابرة العتاة، وكيف كتب وفرض إهانة من عصاه؟ الله أكبر! وكيف تم ذلك؟ فما تحقق ذلك الخزي والعار والدمار إلا حين سد كل مسؤول أذنيه عن قبول النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين، وحل محلها النفاق المبطن والبطش والتعسف، ولم يحل ذلك الهوان إلا حين هيمنت عوامل الانحطاط والهبوط الأخلاقي على القلوب والعقول والمفاهيم، فضاعت الممالك وسقطت الدولة في أيدي عباد الصليب من النصارى، واستولوا عليها ورحل أحفاد الفاتحين بعد أن سلموها لقمة سائغة للعدو الدائم المتربص بالإسلام وأهله!.

والله أكبر! إن مثل ذلك التفكك والانهيار لم يكن له وجود في المجتمع المسلم النظيف، وما كان ليحدث إلا حين لم يبق إلا نفاية من سقط الرجال وبقايا من فضلات الخونة، فأذلهم الله حين جعلوا من الإسلام جنةً يستترون فيه بدون عقيدة ويحاربون جل أحكامه العادلة، فكانت النتيجة أن خرجوا منها أذلاء صاغرين بعد أن كان لهم الملك والعز والمنعة، وهربوا منها مطرودين ضائعين تائهين كما تخرج البهائم الضالة بلا راعٍ!.

ومما حل بدولة المسلمين في الأندلس حين فسدت الإدارة وضاعت المكتسبات التي حققها المسلمون الأوائل، في تلك الجزيرة التي طورتها حضارة الإسلام، فتحولت بعد أن ترك العمل بلب الإسلام إلى دويلات توزعها الأمراء فأقام أمير كل طائفة ولاية وسماها دولة، وساد التنافس الرخيص واستحكم العداء الجاهلي وعاد كل أمير يحارب من يليه من إخوانه وبني جلدته وأهل ملته في معارك هبطت بهم إلى الدرك الأسفل من الفضيحة والدمار؛ معارك لا يكسب منها إلا العدو المتربص، وكانت خلاصتها الخزي والعار، ليس فيها فخر ولا أجر ولا شرف، فماتوا بعد الشتات موت الأنذال الأذلاء.

ولربما اقتتل الأخوان فيستنجد أحدهما على أخيه بالملك النصراني فينصر هذا على ذاك، وبعد هزيمة المستنجد يعود النصارى للإطاحة بمن استنجد بهم من الأمراء العرب!!! فيتغدى ذلك العدو المستعان به سعداً ويتعشى سعيداً، فتكون النتيجة المرة هي تساقط التيجان وتحطيم العروش وتداول الدويلات وانقلاب الأفراح إلى أتراح، وتحول السعادة إلى شقاوةً، وذهاب الفردوس الغالية والجنة الخضراء بالأندلس من أيدي المسلمين، فاندثرت تلك الحضارة التي أسسها

الإسلام حين فتحت باسمه، فقدوها حين اتبعوا الشهوات وتخلوا عن الإسلام!! ولهذا المنحدر تصور الشاعر الإسلامي صالح بن يزيد الشهير بأبي البقاء الرندي حين صور الكارثة ونظم قصدته التي كان مطلعها (لكل شيءٍ إذا ما تم نقصان) وعدد أبياتها، ثلاثة وأربعون بيتاً، أو تزيد صور فيها هول النكبة وما حل بالمسلمين وملوك الطوائف من الذل والهوان أورد منها هذه الأبيات ، حيث قال:

لكُلِّ شَيءٍ إِذا ما تَمّ نُقصانُ ... فَلا يُغَرَّ بِطيبِ العَيشِ إِنسانُ
هِيَ الأُمُورُ كَما شاهَدتُها دُوَلٌ ... مَن سَرَّهُ زَمَن ساءَتهُ أَزمانُ
وَهَذِهِ الدارُ لا تُبقي عَلى أَحَدٍ ... وَلا يَدُومُ عَلى حالٍ لَها شانُ
تَبكِي الحَنيفِيَّةُ البَيضاءُ مِن أَسَفٍ ... كَما بَكى لِفِراقِ الإِلفِ هَيمَانُ
حَيثُ المَساجِدُ قَد صارَت كَنائِس ... ما فيهِنَّ إِلا نَواقِيسٌ وصلبانُ
حَتّى المَحاريبُ تَبكي وَهيَ جامِدَةٌ ... حَتّى المَنابِرُ تَبكي وَهيَ عيدَانُ
يا أَيُّها المَلكُ البَيضاءُ رايَتُهُ ... أَدرِك بِسَيفِكَ أَهلَ الكُفرِ لا كانوا
أَعِندكُم نَبَأ مِن أَهلِ أَندَلُسٍ ... فَقَد سَرى بِحَدِيثِ القَومِ رُكبَانُ
كَم يَستَغيثُ بِنا المُستَضعَفُونَ وَهُم ... قَتلى وَأَسرى فَما يَهتَزَّ إِنسانُ
بالأَمسِ كانُوا مُلُوكاً فِي مَنازِلِهِم ... وَاليَوم هُم في بِلادِ الكُفرِ عُبدانُ
فَلَو تَراهُم حَيارى لا دَلِيلَ لَهُم ... عَلَيهِم مِن ثيابِ الذُلِّ أَلوانُ
يا رُبَّ أُم وَطِفلٍ حيلَ بينهُما ... كَما تُفَرَّقُ أَرواحٌ وَأَبدانُ
وَطفلَة مِثلَ حُسنِ الشَمسِ إِذ ... برزت كَأَنَّما هيَ ياقُوتٌ وَمُرجانُ
يَقُودُها العِلجُ لِلمَكروهِ مُكرَهَةً ... وَالعَينُ باكِيَةٌ وَالقَلبُ حَيرانُ
لِمِثلِ هَذا يَذُوب القَلبُ مِن كَمَدٍ ... إِن كانَ في القَلبِ إِسلامٌ وَإِيمانُ

وانظر أخي نقمة الله وإنزال الهوان على من عصاه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، انظر أخي في الله ما قاله أبو الدرداء ﷺ صاحب رسول الله ﷺ حين فتح المسلمون جزيرة قبرص وأتوا بالأسرى والسبايا والغنائم، فإذا بأبي الدرداء ﷺ يبكي فقال له جبير بن نفير: أتبكي يا أبا الدرداء في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال ويحك! بينما هي أمة قاهرة لهم الملك فلما ضيعوا أمر الله صيرهم إلى ما ترى، سلط الله عليهم السبي، ! وإذا سلط على قوم السبي فليس لله فيهم حاجة، ثم قال: ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره، أو قال: ضيعوا أمره!؟ هـ[1].

(١) من البداية والنهاية، فتح قبرص. وسنن سعيد بن منصور (٢٦٦٠).

المبحث العاشر: من عجائب التاريخ

فهل من مدكر؟ التاريخ مدرسة لكل عاقل متبصر، والتاريخ يجدد العبر ويمنح المواعظ البليغة لأهل القلوب الحية والسعيد من وعظ بغيره: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، والتاريخ يثبت إحسان المحسن ويسجله بأحرف من نور ويصور ما حدث في الأرض من استبداد وظلم ووحشية وجور، وينقش على صفحات التاريخ في كل عصر ومصر مصارع الطغاة المتكبرين، ومن التاريخ يُعلم أنه ليس بين الله سبحانه وتعالى وبين أحد من خلقه نسب، وإنما يرصد لكل فرد ودولة ومجتمع كل ما عملوه في حياتهم الغابرة كما جاء في الحديث القدسي عن أبي ذر: «**يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذٰلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ**»(١)، التاريخ يحمل في طياته العجائب ومنه تؤخذ العبرة يستفيد منه اللبيب الفطن ممن حالفهم التوفيق، ويسقط في الوحل من سلب الله عقله وكتب في الأزل شقاوته، التاريخ كتاب مفتوح يرصد كل شاردة وواردة بوضوح، كما سُجِّل ذلك في قصص الأنبياء والرسل من كتاب الله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، فقد أثبت خبر من قال الله عنه: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢١ – ٢٤]، كما قص خبر غيره من

---

(١) رواه مسلم(٢٥٧٧) وغيره.

الجبابرة والمفسدين في الأرض وهم قوم نوح، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وعاد، وثمود، وقارون، وهامان، كما قال سبحانه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وفي سورة هود أثبت ما حل بتلك الأمم وقص علينا قصصهم، وكيف كانت النهاية لكل الطغاة المكذبين، واسمع إلى قول شعيب وهو يحذر قومه مما حل بالأمم التي سبقته من قبل فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، وختم ذلك بقوله جل شأنه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠ – ١٠٥].

حين يحل الرخاء وتفتح الدنيا كنوزها وتخرج الأرض خيراتها وتهيمن حلاوتها على عقول من تاهوا في غرورها، ويستولي البطر على قلوب من علقت بقلوبهم شهواتها، عندها يموت الإحساس وتحجب القلوب عن خوف خالقها ورازقها، عند ذلك يأذن الله بخراب تلك الدنيا الزائلة قال جل شأنه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ

ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ
وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٨-٥٩].

المبحث الحادي عشر: إنها السنن

ما أشبه الليلة بالبارحة، من عجائب التاريخ إنه يعيد الكرة ويسجل بكل وضوح ويسطر كل ما حل بشعوب الأمة الإسلامية من تأخر وضعف وتأمر وإبادة واستعباد، وأسباب انهيارها؟ كما هو الحال في زماننا هذا حين تكالبت دول الكفر بقيادة الطاغوت الأمريكي على المسلمين، بحجة محاربة الإرهاب الدولي وهم الذين صنعوا الإرهاب وصدروه، وقتلوا الشعوب المغلوبة على أمرها وأرهبوها بل وأبادوها، ونكلوا بالأبرياء العزل من المسلمين وقتلوهم بلا رحمة ولا ذنب ارتكبوه، في مذابح ومجازر رهيبة فهم -أي دول الغرب- بقيادة طاغوتهم دولة أمريكا هم يصنعون الإرهاب ويصدرونه باسم محاربة الإرهاب، كما قيل: رمتني بدائها وانسلت، فالمسلمون يبادون في مجازر همجية وإرهاب منظم لم يسبق لهمجيته مثيل في التاريخ.

وما كان الدافع لتلك المجازر البربرية والمحرك لها إلا الغل الصليبي والصهيوني المتحالف على إبادة المسلمين، ومحو الإسلام بحجة حرب الإرهاب، فقد اتخذوه ذريعة لمحو الإسلام وقتل أمته، ألا يرون أنهم هم الذين اخترعوا أنواع أسلحة الدمار الشامل، وقطعوا بقواتهم عبر المحيطات وضربوا بأسلحتهم المدمرة أغلب بلاد المسلمين، ثم يذرون الرماد في العيون بأنهم يحاربون الإرهاب، ومن الدواهي التي لم يسبق لها مثيل وتجسد الغل الصليبي أن يطالب وزير العدل الأمريكي على عجل من أهل الإسلام حذف آيات من القرآن يزعمون أنها تحرض على الإرهاب وتدعمه، وهي آيات الجهاد التي تأمر بمقاومة الغزاة المعتدين على بلاد المسلمين وتحمي الأرض والعرض والمال، ومن أغرب الغرائب وليس في هذا العصر

غرائب أن دولة الصهاينة تذبح المسلمين وتنتهك أعراضهم وتهدم منازلهم على رؤوسهم، كل ذلك بتحريض من الدولة التي تزعم أنها الدولة المتحضرة، وأنها ستقود العالم إلى سبل النجاة، وتقضي على ما أسمته بالإرهاب، وهي التي تصنع أبشع أنواع الإرهاب، ونحن نقول لهم حسبنا الله وحده، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فهو حسبنا ونعم الوكيل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

إن هذا القهر والتكتل الدولي الظالم على أمة الإسلام ما كان ليحدث لو أن للمسلمين دولة متمسكة بمبادئها وإسلامها نصاً وروحاً، نعم إنها ما حلت النكبات بشرقنا المنكوب، وما ذل وضعف واستكان وتسلطت شرذمة اليهود وتغلبت على مليار وثلاثمائة مليون مسلم إلا حين ماتت النخوة وفرغت القلوب من اليقين، ونهجنا نهج الطوائف التي سلمت الأندلس وبقيت تلك الطوائف شعر على ماء، لقد اتبعنا سنن الجاهلية حين سلبوا الهوية الشخصية الإسلامية حين كانت هي السد المنيع!! فلو كان المليار وثلاثمائة مليون من المسلمين غثاء كغثاء السيل لسدوا مجاري فحول الأودية ولمنعوا السيول من اختراقها، لذلك الكم الهائل من الغثاء، يا حسرة على هذه الأمة كيف ضاعت فلسطين وثالث الحرمين الشريفين، وداس شذاذ الآفاق على شعبه العربي الإسلامي في فلسطين وقتلوا النساء والأطفال وهدموا المدن على رؤوس أهلها، أمام أصحاب التيجان والعظمة والجيوش المدججة!! كيف ننسى النكبات المتلاحقة وما حل من قبل ذلك ومن بعد حين أبيد ولا يزال يباد شعب الشيشان المسلم المجاهد كما تباد الحشرات أمام سمع العالم وبصره! وكيف طحن شعب البوسنة والهرسك المسلم

واستحلت أعراض المسلمات واسترق أبناء المسلمين هناك ولا يزال ذلك العذاب وتلك الإبادة والمهازل المستمرة إلى يومنا هذا؟!! ناهيك عن قتل المسلمين في جميع أقطار الدنيا في أفغانستان والصومال والسودان وكشمير والفلبين وغيرها، ثم ماذا حدث أخيراً ولا تزال المجازر الرهيبة تستأصل شعب العراق المسلم، حيث لم تتورع دولة الحرية والديمقراطية عن قتل النساء والشيوخ والأطفال الرضع، حيث أبادت الآمنين من الأنصار المسلمين في شمال العراق وأزالت مدناً بكاملها من السنة، ودفنت أهلها وهم نيام تحت أنقاض منازلهم في جوف الليل بحجة تحرير العراق وكأنها تقصد تحرير العراق من أهله!

ولاشك أن هدف دولة الإرهاب الدولي المنظم يقصد تحرير العراق وشبه جزيرة العرب وبقية بلاد المسلمين من الإسلام والمتمسكين بالإسلام، ثم ماذا تسمي الدولة العظمى التي تسير العالم وتزعم أنها الدولة الحضارية الديمقراطية وتزعم أنها تقود المجتمع الدولي لمحاربة الظلم والإرهاب والجهل والفقر والتخلف؟ وإذا بها تصنع الإرهاب وتتبناه، وتصنع وسائل الموت والخوف والهلع والدمار الشامل، وتصدر الإرهاب والجهل والفقر والتخلف الهمجي وتدعمه بالهمجية التي ترتكبها تلك الدولة التي تدعي زوراً وبهتاناً أنها متحضرة، كما تسمي نفسها بالدولة العظمى، وهي كذلك تشجع الفوضى التي يرتكبها شذاذ الآفاق وقطاع الطرق من دولة اليهود الصهيونية وتحميهم حتى من الإدانة في ما يسمى بمجلس الأمن! وتقديم ما يعرف بالنقض الفيتو لصالح ربيبتها إسرائيل، وتبارك المذابح التي تجري هناك في أرض فلسطين تحت سمعها وبصرها، وتأييدها لذبح الشعب الأعزل وإبادته، ولا تتورع دولة اليهود عن قتل النساء والأطفال والشيوخ العزل،

أليست تلك هي قمة الوحشية والهمجية والإرهاب المنظم ؟ أين الحضارة وأين ما يسمى بحقوق الإنسان؟.

المبحث الثاني عشر: العهد العثماني

بمجيء دولة الخلافة العثمانية دب الأمل في نفوس المسلمين، واستعادوا ثقتهم حين قويت دولة الخلافة الإسلامية، وامتد سلطانها لما كان شعارها الإسلام الحنيف، واتسع نفوذها إلى مشارق الأرض ومغاربها، فحكموا به معظم قارة آسيا وأوربا وأفريقيا، وهم الذين حققوا بشارة رسول الله ﷺ بفتح مدينة القسطنطينية، بعد أن عجزت محاولات القادة المسلمين قبلهم عن فتحها، وكان أول من حاول تحقيق النصر بفتحها معاوية بن أبي سفيان ﷺ في عام ٤٨هـ فلم يتمكن من فتحها، وبعده في عهد سليمان بن عبد الملك وأخيه مسلمة فباءت محاولاتهم بالفشل فلم يتم لهما ما أرادا، وفي زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد أرسل الجيوش لفتحها في عام ١٦٥هـ فلم تفلح محاولا ته رغم عزمه وعزم القادة الذين سبقوه وقوة جيوشهم.

وفي عام ٨٥٧هـ تم فتحها بقيادة القائد العثماني المسلم محمد بن مراد الفاتح واستمر حكم الدولة التركية بقيادة آل عثمان، فوصلت طلائع فتحهم الإسلامي إلى كل منطقة البلقان وحدود النمسا في قلب أوربا، وبرهن القادة الأتراك على جدارتهم وأنهم دخلوا التاريخ القيادي الإسلامي من أوسع أبوابه، حين رفعوا راية الإسلام وأعادوا للأمة مجدها واستقلالها، وكانت دولة الإسلام العظمى حيث أسسوا الخلافة الإسلامية في قلب أوربا وأفريقيا وآسيا، فسبحان من له البقاء، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

المبحث الثالث عشر: سقوط دولة الخلافة

واستمر ذلك العز والتمكين في دولة الخلافة العثمانية إلى أن أصابهم داء الأمم، فدب الوهن وتنافسوا على حطام الدنيا، وقام الاستعمار الغربي يدس الدسائس من خلال عملائه، فبدأ عامل الهبوط والانحلال الأخلاقي في صفوف القادة وهيمنت الفوضى وتغلغل الفساد الإداري، فانحسرت دولة الخلافة الإسلامية، وكانت في النهاية تلقب بالرجل المريض، فسقطت وقامت على أنقاضها دولة علمانية عميلة، ولكنها لم تفلح وضعف سلطانها وأصبح محاصراً في قلب تركيا الجغرافي، وانضوت تحت سيطرة العدو الأكبر للإسلام وهي دول الغرب الصليبي الماكر ودخلت في حلفهم الذي أسسوه لمحاربة المسلمين بعد أن كانت دولتهم لا تغرب عنها الشمس، فعادوا أتباعاً لا متبوعين وأذيالاً مستضعفين.

فحلت النكبات ببلاد المسلمين، وانهار كيانهم وسقطت دولتهم من قوة إلى ضعف، ومن تماسك إلى شتات، وبسقوط الدولة العثمانية سقطت كل بلاد المسلمين، وقُسمت إلى دويلات متناثرة متناحرة، وعادت شبه مستعمرات لا حول لها ولا طول، وحل بها ما حل بحكام الطوائف في بلاد الأندلس، وتحولت كل قرية وقبيلة أو فخذ دولة هزيلة بعد أن شتت شملها وقسمها لتعيش تحت رحمته وحمايته لا حول لها ولا طاقة، ورسم لها الاستعمار الغربي حدوداً وفرضها بسلطان النظام الدولي، المريض لتبقى تلتمس وده وتستسلم لطلب حمايته، وهل بعد ذلك من ذل وضياع؟! وما كان ذلك ليكون إلا حين تسيطر الشهوات على نفوس الحكام، ويهيمن الظلم على المجتمع المغلوب على أمره، عند ذلك تجري سنة الله العادلة في معاقبة الظالمين، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ

ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣١]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

المبحث الرابع عشر: آثار الغابرين ومصارع الظالمين

مما يشهده الحس والنظر في آثار الأمم البائدة وما ينقله النص الشرعي من صور بارزة تنبئ بأخذ الدروس والعبر والأمر بالسير في الأرض من أجل التفكر والتأمل وأخذ العبرة مما تبقى من آثار الأمم البائدة وهم: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾ [الفجر: ١١- ١٢]، قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨]، وقوله جل شأنه: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨]، فقد أهلك الأمم الظالمة حين بطرت معيشتها وسكنت إلى شهواتها ونسيت عظمة من خلقها ورزقها وأسبغ عليها نعمه، وفتح عليهم أبواب كل شيء، ساقهم الترف إلى قول قوم هود: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]، وكما قص علينا تكذيب الأحزاب من قوم إبراهيم وقوم نوح وعاد وثمود، وفرعون وعصابته فقال جل جلاله: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٨-٤٠]، ولذلك أشار الله في كتابه العزيز إلى أخذ المواعظ

من آثار ومساكن من أهلكهم الله بتمردهم على أوامره وتعدي حدوده كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦]، وقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٠ - ٥٢].

إن فائدة تلقي الدروس، من رؤية بقايا آثار الظالمين ومساكنهم ترسخ اليقين، أن الدوام لله وحده لا شريك له، وأن الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] قوة وهم الذين أثاروا الأرض وعمروها، فذهبوا وذهبت بقية آثارهم بعد ذهابهم،السير في الأرض مدرسة لكل من كان له قلب، حتى يتم أخذ العبرة من أحوال الأمم الغابرة، ومما انتهى إليه عُتُوّ الجبابرة واستعلاؤهم وتكذيبهم؛ قال ـ تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقوله جل شأنه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، وقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٦٩ - ٧٠]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقوله ـ سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا

كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٣٦-٣٨].

وفي آية سورة الحج يوجه الأنظار إلى السير في الأرض؛ لقصد النظر في آيات الله بإمعان، وقلوب تعقل كيف بدد الله أهل الظلم، وجعلهم عبرة لكل من يأتي من بعدهم، وهم يسمعون ما قصه الله من أخبارهم؛ قال ـ تبارك وتعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال ـ تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم: ٩]، وإذا كانت الأمم البائدة هم أشد قوة من قريش وأكثر جمعاً ولهم مآثرهم التي تنم عن مدى قوتهم، فأثروا الأرض وعمروها فكذبوا أنبياءهم ورسلهم فكيف كانت نهايتهم، فانظر يا رعاك الله وكيف ذكر من أبادهم بسبب ذنوبهم؟ وكانت لهم مآثرهم التي كانوا يفخرون بها، قال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [غافر: ٢١]، وفي قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [غافر: ٨٢]، وقوله ـ تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ [محمد: ١٠].

وأمر بالسير في الأرض؛ ليجول الفكر في بداية الخلق ونشأته ونهايته، فالخالق المبدع يبدأ الخلق من العدم إلى الوجود، ثم يعيده، فبداية كل كائن حي مثل الإنسان والحيوان من ماء مهين، ثم يبدأ تطويره إلى أن يكون ذلك الماء ـ بقدرة الله ـ عظامًا، فتكسى تلك العظام باللحم، ثم ينفخ فيه الروح، قال ـ سبحانه: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

الفصل السابع
الباب المفتوح ولطف الخالق بمن خلق

(١) المبحث الأول : قل يا عبادي.

(٢) المبحث الثاني: التوبة النصوح.

(٣) المبحث الثالث: تحقيق التوبة.

المبحث الأول: قل يا عبادي

باب الله مفتوح أبداً لا يُوصد، وليس عليه حراس معهم السلاح ولا حجاب يمنعون الداخل من الولوج إليه، فكل من يريد الدخول فليدخل بدون استئذان فما عليك إلا أن تقرع بابه الواسع بالتضرع إليه عندها يفتح لك الباب الذي لا نهاية تحده، ثم ادخل إليه فهو يحب من يلج إلى جنابه العالي وينزل به حاجته، فما أسعد من شملته رحمة الله الواسعة، مع غناه جل شأنه عن الناس جميعاً، وفقر الناس إليه، لا تنفعه طاعة من أطاعه، ولا تضره معصية من عصاه، فهو يتودد إلى عباده بالعطاء، وهم يتبغضون إليه بالمعاصي، رحمته سبقت غضبه، وهو الغفور الرحيم قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

ومن رحمة الله بعباده أن من أحسن الظن بربه قاده حُسن ظنه إلى توفيق الله ومحبته، وإليك حديث: «**إنَّ عَبْداً أصاب ذَنْباً، فقال: رَبِّ أَصبتُ ذنباً**» كما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إنَّ عَبْداً أَصَابَ ذَنْباً - وَرُبَّما قَالَ: أَذْنَبَ ذَنْباً - فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ ذَنْباً - وَرُبَّما قَالَ: أَصَبْتُ - فَاغْفِرْ لِي، فَقالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَصاب ذَنْبا - أَوْ قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبا - فَقَالَ: رَبِّ، أَذْنَبْتُ - أَوْ أَصَبْتُ آخَرَ، فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ الله، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبا - وَرُبَّما قَالَ: أَصاب ذَنْبا، فَقَالَ: رَبِّ، أَصَبْتُ أَوْ قَالَ: أَذْنَبْتُ آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ**

رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»(١).

وأخرج هذا الحديث مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قَالَ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْباً، فَقَالَ اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لي ذَنْبي، فَقَالَ: تبَارَكَ وَتَعَالى ـ أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْباً، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا، يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، اغْفِرْ لِي ذنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالى، عَبْدي أَذْنَب ذَنْباً، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفرُ الذَّنْبَ، وَيأْخُذُ بِهِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، اغْفِرْ لي ذَنْبي فَقَالَ تبَارَكَ وَتعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدي ذَنْبا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا، يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعمَلْ مَا شِئْتَ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»(٢).

إن الأمل في الله قوي، حيث نرجو رحمته ونثق بعفوه، فهو بشمول عطفه على عباده ينادي عباده ويردد تودده إليهم بأسلوب العطف وإضافتهم إلى ذاته المقدسة، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ﴾ هيا بادروا وأسرعوا واغتنموا فرصة الحياة مادام في الوقت متسع والفرصة سانحة، فإذا كنتم وقعتم في شراك إبليس اللعين وزلت بكم القدم وجرفتكم الأهواء وغرتكم الأماني وأسرفتم على أنفسكم بالمعاصي، فلا تقنطوا ولا تيأسوا من رحمة الله وعفوه، فهيا بادروا بتصحيح العمل واحرصوا على الاستقامة، وهيا أقلعوا عن الذنوب كلها جميعاً وهيا عودا إلى الله، فإذا علم الله صدق توبتكم غفر لكم جميع ذنوبكم، لأنه أرحم بكم من أنفسكم: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هيا صححوا النية بالإنابة إليه يعفو عنكم ويغفر لكم كل ما اقترفتموه وأسرفتم به على أنفسكم، فإنه لا يعجزه شيء، وانظر إلى قوله:

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ٩/ ١٤٥ (٢٢٩) باب: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٠) باب: سعة رحمة الله، وأنها تغلب غضبه.

﴿يَـٰعِبَادِىَ﴾ هذا الخطاب اللطيف، الخطاب اللين الهادئ، والتلطف الصادر من صاحب الكبرياء والعظمة المطلقة، هذا الخطاب الرقيق الذي تفوح منه بشائر الرحمة، ينزل من الأعلى إلى الأدنى، ومن القوي العزيز، ومع عزته يوجه نداءه العالي إلى الإنسان العاجز الضعيف، ومن الغني إلى الفقير، ومن الرب إلى العبد، ومن المحيي المميت إلى الميت الفاني، إنه من الله القوي العزيز.

إليك أيها العبد الذي لا تملك لنفسك مثقال ذرة من خير أو شر، قال تعالى: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، وإليك أخي العائد إلى الله أسوق الحديث القدسي الصحيح الذي رواه مسلم، فعن أبي ذر عن النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَىٰ عَنِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي. وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً. فَلاَ تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ. فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ. فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ. فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً. فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرُ لَكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي. وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ. كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ. مَا زَادَ ذٰلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ. وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ. كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ. مَا نَقَصَ ذٰلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ. وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ. قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي. فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ. مَا نَقَصَ ذٰلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ. يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ. ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا. فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ الله.**

وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذٰلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ»(١).

انظر أخي هداك الله ورعاك فيما اشتمل عليه هذا الحديث الرباني الشريف من عبارات الرحمة واللطف، بترديد كلمة «**يا عبادي**» إضافة إليه سبحانه وتعالى بياء المضاف إليه، في عشرة مواضع من هذا الحديث، فبدأ في تحريم الظلم على نفسه، وجعله بين عباده محرماً، والظلم ظلمات كما جاء في حديث جابر بن عبدالله الأنصاري، أن رسول الله ﷺ قال: «**اتَّقُوا الظُّلْمَ. فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢) وأرشد عباده إلى طلب الهداية منه لأن كل إنسان ضال وظالم لنفسه إذا لم يتداركه الله بلطفه ويقوده بعنايته إلى درب الهداية، وأن الخلق كلهم فقراء إليه، وهو غني عنهم كل الغنى، ومع ذلك يرشدهم إلى طلبهم منه، أن ينعم عليهم بالرزق والطعام واللباس، ويوجههم إلى طلب العفو والمغفرة منه، فكل بني آدم خطَّاء وهو يغفر الذنوب ويستر الأحوال، وأرشدهم إلى التوسل إليه بالتوبة والاستغفار، ووعدهم بالمغفرة إن هم فعلوا ذلك، وأوضح لهم بالبيان الشافي أن طاعتهم مهما كثرت وتنوعت لا تنفعه، ومعصيتهم كلهم لا تضره، وهو سبحانه لا يعجزه رزق العباد وإن تنوعت مطالبهم وتعددت مسائلهم، فهو القادر على جلب كل ما يريدونه ويتمنونه وليس ذلك بشيء على قدرة الله كما أوضح جل شأنه أن الأولين والآخرين لو اجتمعوا كلهم من بداية خلقه لهم إلى نهايتهم، صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم، أنسهم وجنهم، وزيادة عليهم أضعاف أضعافهم، وسألوه فتمنى كل إنسان ما يريد، أعطاهم كل ما سألوه لا ينقص ذلك من خزائن الله ولا

---

(١) رواه مسلم (٦٥٢٤) كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم.

(٢) رواه مسلم (٦٥٢٨).

قدر هباة طائرة أو أقل من الهُباة.

فسبحان واسع العطاء، وسبحان واسع الملك، وسبحان من إذا قال لشيء كن كان، ثم بين سبحانه مسألة الخير والشر، فحصول الخير لمن سبقت له السعادة كان بتوفيق من الله، ثم بما عمل من صالح يرضى به الله، وإن وجد شراً نعوذ بالله منه، فبما كسبت يداه وعملته جوارحه، فإن موضوع الخير والشر راجع إلى أعمال العباد أنفسهم إن عملوا خيراً فلأنفسهم، وإن عملوا شراً يعود عليها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

من هنا تدرك أيها الأخ المسلم سعة رحمة الله بمن خلق، وأن معصية العاصي لا تكون سداً منيعاً دون عفو الله، فعفو الله أعظم وكرمه أوسع فإذا بادر من أسرف على نفسه بالمعاصي وانغمس في الشهوات ثم رجع إلى الله بتوبة صادقة، فإن الله يتوب عليه ويغفر كل ذنوبه، بل إنه يحول تلك المعاصي والخطايا والذنوب كلها حسنات، كما مر بنا في سورة الفرقان عند قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠] فانظر إلى سعة عفو الله ورحمته بعباده التائبين كيف يحول كل ذنوبهم وسيئاتهم حسنات، وهذا من كرم ضيافة الوافد على الله سبحانه إكرامًا لمن سلكوا طريق التقوى الموصل إلى دار ضيافة المولى الكريم جل شأنه.

ورد في صحيحي البخاري ومسلم، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«قَالَ رَجُلٌ، لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ، لأَهْلِهِ: إِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ. ثُمَّ اذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ. فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ. فَلَمَّا مَاتَ الرَّجُلُ فَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ. فَأَمَرَ اللهُ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ. وَأَمَرَ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ. ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتَ هٰذَا؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ. يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ. فَغَفَرَ اللهُ لَهُ»[1]. وكذلك روي عن أبي سعيد الخدري وحذيفة ـ رضي الله عنهما ـ فكانت نتيجة الخوف من الله ومحاسبة النفس أن أنجاه الله من النار.

وفي الصحيحين عن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: **«إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ. ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً... وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»**[2].

فانظر هداك الله إلى عطف الله وسعة رحمته بعباده، كيف من يعمل الحسنة الواحدة فتكتب عشر إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ويهم بالحسنة فلم يعملها فيكتبها الله له حسنة ويهم بالسيئة فلا يعملها فيكتبها الله له حسنة ويهم بالسيئة فيعملها فلا يكتبها عليه إلا سيئة واحدة، فسبحان من يضاعف الحسنات ويعفو عن السيئات.

فإذا كان المولى جل شأنه يضاعف الحسنات ويعفو عن السيئات، ويدلنا ويأمر بمتابعة الصراط المستقيم الموصل إلى دار النعيم، ذلك الصراط هو كتاب

---

(١) رواه البخاري (٧٣٤٠) ومسلم (٦٩٢٩) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٦٣٤٤) ومسلم (٢٩٦) واللفظ له.

الله الذي نزهه وحفظه من الغش والنقصان والزيادة والتحريف وتلاعب المحرفين كما قال تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] فاتبعوه فهو معصوم بعصمة الله، لأنه كلامه وهديه وشرعته وآخر كتبه المنزلة وأتمها وهو المهيمن عليها وهو الناسخ لجميع الكتب السماوية كلها، من قبل أن يأتيكم العذاب بغـتة وأنتم لا تشعرون، اتبعوا الحق المنزه عن الباطل اتبعوه وتمسكوا به نصاً وروحاً قبل أن تحل بكم المنية ويحين وقت الرحيل، وقبل ما يحال بينكم وبين ما تشتهون قبل فوات الأوان، وانتهى الوقت، وحلول العذاب، وحصول الندامة حيث لا ينفع الندم، وباغتت الطامة الكبرى أهل التسويف وقتلى الأماني، حين فرطوا في ضياع الغنيمة وفرصة العمر ولم يلبوا داعي الهدى، نعوذ بالله من الخذلان.

إن من أسباب السعادة، هداية الله إذا منحها لعباده قادتهم إلى تقواه بقلوب صادقة ويقين ثابت، ومن رزق الهداية فقد كملت له السعادة في الدارين وكفاه الله كل ما أهمه في حياته الدنيا وفي آخرته، لأن الإنسان والحالة كذلك يصبح مرتبطاً برباط وثيق مع من بيده مقاليد السماوات والأرض، وكل العباد نواصيهم في قبضته، وقلوبهم بين أصبعين من أصابعه يقلبها الرحمن كيف يشاء، فمن يتق الله فقد هداه ومن هداه حفظه ووقاه من كل مكروه، ومن أراد بعبد من عباد الله سوءًا أو يقترف ضده إثماً ومكروهاً إليه فإن الحصانة الإلهية تحميه، ونصر الله يؤازره ويحوطه، فهو سبحانه يمنح كل من التجأ إلى جنابه وتوكل عليه حصانة ربانية يتحصن بها ويحوطه، بحجابه الساتر ويجعل له من كل ضائقة فرجاً ومن كل هم مخرجاً قال تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ

وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَدَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٢-٣] إن تقوى الله هي الملاذ من المخاطر بإذن الله وهي الحصانة من كل مصائب الدنيا، فبالتقوى يكون المخرج من الشدائد، ويتحقق الرزق الحلال، وتتوسع طرقه ومصادره، بفضل الله﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ من يعتصم بالله ويتوكل عليه فهو حسبه وحارسه وكافيه، ورد في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قال: من عادَى لي وَليّاً فقد آذَنْته بالحرب. وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترَضْته عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحبَبْتُه كنتُ سمعَه الذي يَسمعُ به، وبَصرَه الذي يُبصرُ به ويدَه التي يبطِشُ بها. ورِجلَهُ التي يَمشي بها، وإنْ سَألني لأعطينه، ولئن استعاذَ بي لأُعيذَنه. وما ترددتُ عن شيءٍ أنا فاعله تردُّدي عن نفسِ المؤمن، يكرَه الموتَ وأنا أكرَه مَساءته**»(١).

انظر حفظك الله إلى عناية الله بعباده، إذا هم أطاعوا أمره واجتنبوا ما حرمه عليهم وعملوا بما فرضه عليهم، وأتبعوها بالنوافل المشروعة في طاعته، فمن فعل ذلك إيماناً واحتساباً كان يرى ويسمع ويمشي وينام ويستيقظ وهو مع الله وفي كنفه فيحظى بحبه، فإذا أحبه كان هو رجله وهو سمعه وهو بصره وهو يده وهو معه يقبل سؤله فيمنحه ويعيذه من كل شر يراد به: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾.

(١) رواه البخاري (٦٣٥٥).

المبحث الثاني: التوبة النصوح

كيف تتم التوبة النصوح؟ الجواب: لا تتم التوبة النصوح إلا بالإخلاص والعزيمة الصادقة الفريدة من نوعها، لأن عاقبة التوبة النصوح، رضوان الله ومغفرة الذنوب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم: ٨]، في آية التحريم يأمر الله عباده المؤمنين ويلزمهم بالتوبة النصوح، والتوبة النصوح لا تتم إلا بعزم صادق ونية مخلصة لا فيها غش ولا خداع، فبالتوبة النصوح والنية المخلصة يغفر الله ذنوب التائبين ويضاعف لهم الثواب ويؤمنهم من الفزع الأكبر، وينور وجوههم وقلوبهم وقبورهم، ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾، قيل عسى من الله مُوجبة لتكفير الذنوب ومنحة منه بالمغفرة: ﴿وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بسبب التوبة النصوح يكفر عن التائبين ذنوبهم وسيئاتهم ثم يكون مأواهم جنات أعدها الله لأهل طاعته، مزينة بالبساتين الخضراء، ويتخللها مروج الأنهار الجارية، والحدائق المورقة الخلابة، جزاء لمن آثر رضوان الله وتاب وأخلص له التوبة وأكملها بالطاعة واستمر في العمل الصالح بما يرضي الله قال في صفات التائبين الذين استثناهم الله من العذاب: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٦٠] فمن هنا يكون شرط التوبة الإيمان والعمل الصالح، وقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا

حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧]، وقوله: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٩] ، فلابد بعد التوبة من إصلاح العمل على ضوء الوحي من كتاب الله وهدي الرسول ﷺ، قال سبحانه: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٠]، إن طريق التوبة المشرق بنور من الله الدال على الثواب الجزيل والفضل الرباني هو الطريق الموصل إلى رضوان الله والمبشر بالمغفرة والعفو عن التائبين، وهنا يذكر مع التوبة صلاح العمل وتبيان الحق للناس والدعوة إليه، وتوضيح سبيل النجاة والحث على العمل الصالح والتمسك بحبل الله، والتحذير من الباطل وأهل الباطل، والبعد عن طرقه طرق الضلال.

ومن عظيم لطف الله أنه يفرح بتوبة عبده وهو الغني، والعبد هو الفقير والمحتاج إلى لطف الله، وكيف أن الرب الغني عن عباده يفرح بتوبة أحدهم إذا تاب كما جاء في الحديث عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**والله لله أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ...**».

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**يقولُ الله تعالى: أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرَني في مَلأٍ ذكرته في مَلأٍ خيرٍ منهم، وإن تَقرَّب إليَّ شِبراً تقرَّبتُ إليه ذراعاً، وإن تقرب إليَّ ذِراعاً تقرَّبتُ إليه باعاً، وإن أتاني يَمشي أتيته هَرْوَلة**»[1].

وأخرج مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**قَالَ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، ـ والله،**

(١) رواه البخاري (٧٢٣٩) ومسلم (٦٧٨٣).

للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِه، مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلاَةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ»(١).

وفي رواية ثانية لمسلم، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي. وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي. إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي. وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ. وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْراً، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً. وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعاً. وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي، أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»(٢).

نعوذ بالله من غضب الله ومقته واستدراجه، ونسأله أن يلهمنا الرشد ونستعيذ به من شرور أنفسنا، إن ترك المبادرة أو التثاقل عن التوبة الصادقة والتلهي بالتسويف، حتى تسلم الروح إلى خالقها فتضيع الفرصة ويورث الندم حين لا ينفع الندم، واسمع إلى قول الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٤ – ٥٨] هكذا جزاء من أصم أذنيه عن النداء الإلهي الذي يحث على المسارعة إلى التوبة، ولم يتقبل الإنابة والعودة إلى الله اللطيف الخبير الغفور الرحيم وهو يناجي عباده، ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ فيسمع النداء ويتباطأ عن

---

(١) رواه مسلم (٦٩٠١).

(٢) رواه مسلم (٦٧٥٦).

الإجابة بالانقياد بل يدير ظهره ويتولى، بعد أن كذب وتولى، ولم يصغ لنداء الله ولم يهتد بنور القرآن الكريم، وهو الهادي للطريق الأمثل، وهو الدليل للتي هي أحسن، وحين يُعاين الحقيقة الماثلة والمتمثلة في رؤية العذاب فلم يكن أمامه إلا أن ينادي بالويل والثبور، ويردد في أسى وحزن قائلاً: يا حسرتى على التفريط في جنب الله! كل هذا التمني بعد ذهاب الوقت يتمنى لو أن الله هداه ولكن هو الذي أبى من سلوك طريق الهدى حين عرض عليه وأتاه، أو يتمنى العودة ليبدأ في عمل الإحسان، ولكن عامل الزمن والتمني قد فوت عليه ما يتمناه الآن، وهذه التأوهات، ما هي إلا ضرب من التوبيخ للنفس والاعتراف بالذنب والإقرار بالشرود عن سبيل الهداية، والسبب أن الله فتح لهم باب التوبة الواسع وأمرهم بالولوج فيه، وأن الله سيغفر لهم كل ما اقترفوه من الذنوب والخطايا مهما كان حجمها كماً وكيفاً، وحثهم على الإنابة والتقرب إليه والتمسك بنهج القرآن المنزَّل من عند الله، فحين رفضوا هذه الصفقة الرابحة والعرض السخي من الله الغفور الرحيم، وبعد أن فاتتهم الفرصة السانحة ورفضوا المنحة، وشاهدوا العذاب، لم يبق أمامهم إلا بضاعة الحمقى والمغفلين وهي الأماني: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦] إن الفرصة المعروضة من الرحمن الرحيم والوسائل الممكنة لم يبادروا إليها لسابق علم الله بالمجرمين الذين إذا سمعوا داعي الله سخروا منه وتكبروا وصدوا عن سبيل الله، وشنوا حرباً على كل داع إلى الله، ثم تتالت عليهم الحسرات واعترفوا بجرمهم وعادوا إلى كلمة (لو) ولو تفتح عمل الشيطان.

وقوله: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧] الله

هو الهادي وقد هدى وأبان الطريق الموصل إلى الهدى، ولكنه هو الذي (امتنع أبى) وليس خبر ثمود عنا ببعيد قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت: ١٧]، إن الأنانية والتكبر والفرار عن الله، واتباع الشهوات وطاعة الشيطان حالت دون هداية الله، فالله يريد لعباده الخير، ولكن من جعل ناصيته بيد الشيطان، وأبى من الانقياد لهداية الله حيث سلك طريق الشهوات، ونهج سبيل الضلالة! فكان من أصحاب الجحيم، فماذا بعد هذا؟ وكيف يطلب العودة إلى الدنيا ليحقق التوبة من جديد؟ وهو الذي أبى في المرة الأولى؟ فهل ترى يتحقق ذلك الرجاء بعد أن فاتته الفرصة وما نوع ذلك الرجاء؟ ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨] يا سلام! أين كنت من قبل في حياتك الطويلة، وما صدك عن العمل وما كنت تفعل حين كان بمقدورك ذلك، ولو قدرت لك العودة إلى الحياة لعدت لما كنت تمارسه من قبل كما قال الله عنك وعمن كان على مثل ما أنت عليه: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[الزمر: ٥٩].

فكيف وقد كنت تدعى إلى التوبة النصوح، ووعدك الله إذا أنت تبت إليه وبشرك بالمغفرة ومضاعفة الحسنات فكذَّبت داعي الله، وتكبرت وأبيت الإذعان والانقياد إلى الله وكفرت بما أنزل الله واسمع إلى ما سوف تقول أنت ومن كان على مثل ما أنت عليه حين ترى عذاب الله قد أحاط بك من كل جانب، وعلمت أنه لا مفر لك منه قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧ – ٢٨] إنها أماني المفلسين يا ليتنا نرد، من أين جئتم؟

وأين كنتم قبل هذا الموقف العصيب؟ ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ إن قولهم هذا ﴿نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ﴾ هو عين التذبذب وهو محض الكذب، ودليل ذلك يثبته فعلهم حين انكشف قبيح صنيعهم، وأُوقفوا على شفير جهنم وهم يتأوهون، ثم عادوا يرسلون الأماني المستحيل تحقيقها، وكما قال الله عن حال المجرمين: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، يا سلام إنا موقنون من أين أتى هذا اليقين المزيف بعد ما رحلتم من منطقة العمل إلى دار الجزاء، وكنتم تخادعون الله بالأماني والتسويف بالتوبة.

التوبة الصادقة هي التي بينها الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [النساء: ١٧ - ١٨] إن مثل تلك التوبة كمثل توبة فرعون الذي قال للناس وهو في عنفوان قوته وطغيانه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ وقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ فحين أدركه الغرق وعاين العذاب قال الله عنه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] آمنت بإله بني إسرائيل، الآن وكيف تنازل عظمة الربوبية؟ وكيف انتكست دعاوي الربوبية والألوهية؟ أذعن قسراً حين شاهد بالمصير المحتوم، وكان يقول أنا الإله، ولا إله غيري، إن هذا هو الإيمان الصوري إيمان

سياسة ومناورة الشعوب المغلوبة على أمرها، وظن حين استطاع أن يضلل على عقول البسطاء من قومه أن تلك الحيلة القذرة ستنطلي على عالم الغيب والشهادة، أما التوبة التي يريدها الله سبحانه فهي أن يتوب الإنسان وهو صحيح معافى فيستمر في توبته والعمل الصالح بإخلاص ويقين فأولئك هم الذين يتقبل الله توبتهم ويكفر عنهم سيئاتهم.

اللهم اجعلنا من أهل التوبة النصوح، وانفعني بما قلت وكتبت، وارزقني فيه الإخلاص، ولا تجعل ما قلت حجة علي يا كريم ، واجعلني ممن يشملهم عفوك وكرمك إنك على كل شيء قدير: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ – ١٨٢].

المبحث الثالث: تحقيق التوبة؟

شرط قبول التوبة النصوح: العودة الأكيدة إلى الله، وأخذ الأسوة الحسنة من هدي التائبين من صفوة الناس بعد الأنبياء، وهم أصحاب نبينا محمد ﷺ الوارد خبرهم في سورة التوبة، وهؤلاء الثلاثة هم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، ومن دواعي التوبة أن تكون بنية صادقة، كما ذكر حال: ﴿ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾، فالتوبة معناها: محبة ورغبة في العودة إلى الله، والإقلاع عن الذنب، والبعد عنه، وعدم الرجوع إليه، والندم على فعله، والاستمرار في تأدية العمل الصالح بحب صادق، ومن هنا أردتُ تصوير معني التوبة النصوح، يصورها خبر كعب بن مالك ورفيقيه، ليعلم من لا يعلم كيف يكون الندم على المعصية، وكيف تكون التوبة النصوح وكيف كان حال: ﴿ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾، قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧ – ١١٨]، ففي الآية الأولى ذكر توبته على نبيه وعموم صحابته: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ وهم المجاهدون في أحلك المواقف، وأضنكها وهي غزوة تبوك، ثم أضاف إلى ذلك توبته: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ وضاقت بهم الحياة وضاقت بهم الأرض كما وصف الله حالهم، وهؤلاء الثلاثة هم، كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة

ابن الربيع، وقد أورد الإمام مسلم في صحيحه[١]، حديث كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه، وكيف يصور حال النادم على المعصية والتائب من الذنب، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾، وكيف ضاقت عليهم الأرض بما رحبت؟ الضيق خلاف السعة، يقال: ضاقَ المكان فهو ضَيِّق ومَنزِلٌ ضَيق، وصدرٌ ضيق، كأنما يتصعد في السماء، وكعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه وعن صاحبيه من الذين تخلفوا عن رسول الله فيٰ غزوة العسرة، وهي غزوة تبوك وتحسروا على تخلفهم عن رسول الله ﷺ، كما ذكر الله حالهم بقوله جل جلاله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧ – ١١٨]، وتلك هي توبة المؤمن الصادق، حين علم أنه قد تخلف عن أداء واجب مقدس، مع أطهر خلق الله فتحسر هو وصاحباه بعد أن علموا أنه لم يتخلف معهم إلا من أعذر الله ممن لا حول لهم ولا طول، أو منافق مغموس في النفاق تخلف عن عمد وإصرار، لأن قلبه خاوٍ من الإيمان، وإليك أخي الخبر كما رواه البخاري في كتاب المغازي من صحيحه في حديث كعب بن مالك[٢].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٦٩).

(٢) البخاري (٤١٥٦).

قال البخاري: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ - وَكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ- قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ تَبُوكَ قَالَ كَعْبٌ لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ الله بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلامِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا، كَانَ مِنْ خَبَرِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلا أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ وَالله مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ الله ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلا وَرَّى بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ غَزَاهَا رَسُولُ الله ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا، وَعَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ كَثِيرٌ، وَلا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ - يُرِيدُ الدِّيوَانَ - قَالَ كَعْبٌ: فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ، مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ الله، وَغَزَا رَسُولُ الله ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتْ الثِّمَارُ وَالظِّلالُ، وَتَجَهَّزَ رَسُولُ الله ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ فَأَصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، فَقُلْتُ أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ، ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لأَتَجَهَّزَ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ

بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ، وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ، فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ، فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ - بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ - فَطُفْتُ فِيهِم، أَحْزَنَنِي أَنِّي لا أَرَى إِلا رَجُلا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النِّفَاقُ، أَوْ رَجُلا مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ مِنْ الضُّعَفَاءِ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ: مَا فَعَلَ كَعْبٌ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلا حَضَرَنِي هَمِّي، وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ: بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا؟ وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ - وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلا فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللهِ. فَجِئْتُهُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ: تَعَالَ، فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: مَا خَلَّفَكَ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ فَقُلْتُ بَلَى إِنِّي وَاللهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلا، وَلَكِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللهِ، لا وَاللهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فَقَالَ

رَسُولُ الله ﷺ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ، فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي فقَالُوا لِي: وَالله مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ الله ﷺ لَكَ. فوَالله مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ رَجُلانِ قَالا مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ. فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ وَهِلالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي. وَنَهَى رَسُولُ الله ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلامِنَا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ. فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ، وَلا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ وَآتِي رَسُولَ الله ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلامِ عَلَيَّ أَمْ لا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي. حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَالله مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ. فَقُلْتُ يَا أَبَا قَتَادَةَ: أَنْشُدُكَ بِالله هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ. فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ. فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَقَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ. قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ، إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ

بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ الله بِدَارِ هَوَانٍ وَلا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ. فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنْ الْبَلاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا. حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنْ الْخَمْسِينَ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ الله ﷺ يَأْتِينِي فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ. فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لا بَلْ اعْتَزِلْهَا. وَلا تَقْرَبْهَا، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ فَقُلْتُ لامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ الله فِي هَذَا الأَمْرِ، قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ هِلالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ. لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: لا، وَلَكِنْ لا يَقْرَبْكِ. قَالَتْ: إِنَّهُ وَالله مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَالله مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا، فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ الله ﷺ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لامْرَأَةِ هِلالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَه، فَقُلْتُ: وَالله لا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ الله ﷺ وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا، وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ. فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ الله ﷺ عَنْ كَلامِنَا. فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ. قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَآذَنَ رَسُولُ الله ﷺ بِتَوْبَةِ الله عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا. وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى

سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ، فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ، وَاللهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ. وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وَانطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ يَقُولُونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللهِ عَلَيْكَ، قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، وَاللهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ، وَلا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ. قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنْ السُّرُورِ: أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ. قَالَ قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟ قَالَ: لا. بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ. وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ. فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِ اللهِ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ. قُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لا أُحَدِّثَ إِلا صِدْقًا مَا بَقِيتُ. فَوَاللهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَبْلاهُ اللهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلانِي، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللهُ فِيمَا بَقِيتُ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ

أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٨]، فَوَاللهِ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ - بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلإِسْلامِ - أَعْظَمَ، فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ لا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لأَحَدٍ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٥-٩٦]، قَالَ كَعْبٌ: وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللهُ فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنْ الْغَزْوِ، إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ»(١).

وبهذا تم الكتاب بحمد الله، أسأل الله أن ينفع به، وأن يدخر أجره لي يوم ألقاه.

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٥٦).

المراجع

(١) القرآن الكريم.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري الطبعة الأولى مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع بيروت، لبنان.

(٣) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

(٤) الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي، طبعة دار الكتب المصرية في ٢٨/ ٥/ ١٣٧٣هـ.

(٥) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ المكتب الإسلامي بيروت.

(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب، الطبعة الشرعية السابعة ١٣٩٨هـ دار الشروق بيروت.

(٧) صحيح البخاري، الطبعة الأولى، المطبعة السلفية ومكتبتها عام ١٤٠٠هـ.

(٨) صحيح مسلم بشرح النووي، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

(٩) سنن أبي داود الطبعة الأولى عام ١٤١٨هـ دار ابن حزم بيروت لبنان.

(١٠) صحيح الترمذي تحقيق ناصر الدين الألباني الطبعة الثانية عام ١٤٢٢هـ.

(١١) سنن النسائي الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت، لبنان.

(١٢) سنن ابن ماجه، الطبعة الأولى عام ١٤١٦هـ دار المعرفة للطباعة والنشر.

(١٣) نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم الطبعة الأولى عام ١٤١٨هـ دار الوسيلة للنشر والتوزيع جدة المملكة العربية السعودية.

(١٤) الإصابة في تمييز الصحابة الطيعة الأولى عام ١٣٨٨هـ مكتبة الكليات الأزهرية شارع الصنادقية بالأزهر.

(١٥) أسد الغابة الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير علي بن محمد بن الأثير الجزري دار الفكر للنشر والتوزيع.

(١٦) السيرة النبوية لبن هشام من مطبوعات مكتبة ومطبعة الحاج عبدالسلام بن محمد بن شقرون شركة الطباعة الفنية المتحدة.

(١٧) سير أعلام النبلاء الطبعة الأولى ١٤٠١هـ والطبعة الثانية ١٤٠٢هـ دار الوسيلة للنشر والتوزيع بيروت لبنان، تأليف الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي.

(١٨) تاريخ الخلفاء للحافظ جلال الدين السيوطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

(١٩) تاريخ الرسل والملوك الطبعة الرابعة في ١٩/ ٥/ ١٤٨٠هـ دار المعارف القاهرة تأليف الإمام محمد بن جرير الطبري.

(٢٠) تاريخ ابن كثير البداية والنهاية طبعة دار الفكر بيروت لبنان عام ١٣٩٨هـ

(٢١) تاريخ بغداد، تأليف الحافظ أحمد بن علي البغدادي، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

(٢٢) المنتظم من تاريخ الملوك والأمم الطبعة الثانية ١٤١٥هـ دار الكتب العلمية بيروت لبنان تأليف الإمام أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي.

(٢٣) مجلة البحوث الإسلامية عن دار البحوث العلمية والإفتاء بالرياض العدد ٦٦ من ربيع الأول إلى جمادى الآخرة عام ١٤٢٣هـ.

(٢٤) الإنسان ذلك المجهول تأليف الكسيس كاريل، تعريب شفيق أسعد فريد مكتبة المعارف بيروت عام ١٤٠٩هـ.

المحتويات

الفصل الأول
التوحيد

الفصل الثاني
العدل وتهذيب الأخلاق وتقويم السلوك

الفصل الثالث
آيات الله في مخلوقاته

الفصل الرابع
الإبداع في خلق الإنسان وتكريمه وأطوار حياته

الفصل الخامس

إبداع الله في خلق الدواب والطير والأنعام

الفصل السادس

أهمية الخلافة في الأرض

الفصل السابع

الباب المفتوح ولطف الخالق بمن خلق